

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## في إحساس أجناس الحيوان

اللهم إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ونسألك الهداية إلى صراطك المستقيم، وصلى الله على سيدنا محمد خاصة وعلى أنبيائه عامة، ونعوذ بالله أن تدعونا المحببة لإتمام هذا الكتاب إلى أن نصل الصدق بالكذب ونُدخل الباطل في تضاعيف الحق، وأن نتكثّر بقول الزور ونلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن، وستر قبحه بالتأليف المونق، أو نستعين على إيضاح الحق إلا بالحق، وعلى الإفصاح بالحجة إلا بالحجة، ونستميل إلى دراسته واجتباؤه، ونستدعي إلى تفضيله والإشادة بذكره، بالأشعار المولدة، والأحاديث المصنوعة، والأسانيد المدخولة، بما لا شاهد عليه إلا دعوى قائله، ولا مصدق له إلا من لا يؤثق بمعرفته، ونعوذ بالله من فتنة القول وخطله، ومن الإسهاب وتقحم أهله، والاعتماد فيما بيننا وبين كثير من أهل هذا الزمان على حسن الظن، والالتكالم فيهم على العذر؛ فإن كثيراً ممن يتكلف قراءة الكتب، ومدارسة العلم،

يقفون من جميع الكتب على الكلمة الضعيفة، واللَّفظة السَّخيفة،  
وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيءٌ من استكراهٍ، أو ناله  
بعضُ اضطراب، أو كما يعرض في الكتب من سَقَطات الوهم،  
وقَلَّات الصَّجَر، ومن خَطَأ النَّاسِخ، وسوء تحفُّظ المعارض على  
معنى لعله لو تدبَّره بعقلٍ غير مُفسدٍ، ونظرٍ غير مدخول، وتصفِّحه  
وهو محترسٌ من عوارض الحسد، ومن عادة التسرُّع، ومن أخلاقٍ  
مَن عسى أن يتسبَّع في القول بمقدار ضيق صدره، ويُرسل لسانه  
إرسالَ الجاهلِ بِكُنْه ما يكون منه، ولو جعلَ بدلَ شُغله بقليلٍ ما  
يرى من المذموم شُغْلُهُ بكثيرٍ ما يرى من المحمود - كانَ ذلكَ أشبهَ  
بالأدبِ المرضيِّ والخيمِ الصَّالح، وأشدَّ مشاكلةً للحكمة، وأبعدَ من  
سلطان الطَّيش، وأقربَ إلى عادة السَّلف وسيرة الأوَّلين، وأجدَر  
أن يَهَبَ اللهُ له السَّلامة في كتبه، والدِّفاعَ عن حُجَّتِه يومَ مناقلةِ  
خصومه ومقارعةِ أعدائه. وليس هذا الكتابُ - يرحمك اللهُ - في  
إيجاب الوَعْد والوَعِيد فيعترض عليه المرجئ، ولا في تفضيل عليٍّ<sup>ع</sup>  
فَيُنصِبَ له العثمانيِّ، ولا هو في تصويب الحكمين، فيتسَخَّطَه  
الخارجيِّ، ولا هو في تقديم الاستطاعة فيعارضه من يُخالف  
التقديم، ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفه صاحبُ الأجسام، ولا هو

في تفضيل البصرة على الكوفة، ومكة على المدينة، والشَّام على الجزيرة، ولا في تفضيل العجم على العرب، وعدنان على قحطان، وعمرو على واصل فيردُّ بذلك الهذلي على النُّظامي، ولا هو في تفضيل مالك على أبي حنيفة؛ ولا هو في تفضيل امرئ القيس على النَّبغة، وعامر ابن الطفيل على عمرو بن معد يكرب، وعباد بن الحصين على عبيد الله بن الحُرِّ، ولا في تفضيل ابن سُريج على العريض، ولا في تفضيل سيبويه على الكسائي، ولا في تفضيل الجعفري على العقيلي، ولا في تفضيل حلم الأحنف على حلم معاوية، وتفضيل قتادة على الزُّهري، فإنَّ لكلِّ صنفٍ من هذه الأصناف شيعةً، ولكلِّ رجلٍ من هؤلاء الرجال جُند، وعدداً يخاصمون عنهم، وسفهاؤهم المتسرعون منهم كثير، وعلماءُهم قليل، وأنصاف علمائهم أقلُّ.

ولا تنكر هذا - حفظك الله - أنا رأيت رجلين بالبصرة على باب مُويس بن عمران، تنازعا في العنب التَّيروزي والرازقي، فجرى بينهما اللعين حتى توثبا، فقطع الكوفيُّ إصبع البصريِّ، وفقاً البصريُّ عين الكوفيِّ، ثم لم ألث إلا يسيراً حتى رأيتهما متصافيين متنادمين لم يقعا قطُّ على مقدار ما يُغضب من مقدار ما يُرضي،

فكيف يَقَعَانِ على مقادير طبقات الغضب والرضا؟ والله المستعان.  
وقد ترك هذا الجمهورُ الأكبر، والسَّوَادُ الأعظمُ، التوقفَ عندَ  
الشبهة، والتثبَّتَ عند الحكومة جانباً، وأضربوا عنه صَفْحاً، فليس إلاَّ  
لا أو نعم، إلاَّ أَنَّ قولهم لا موصول منهم بالغضب، وقولهم نعم  
موصولٌ منهم بالرضا، وقد عُزِلت الحرِّيَّة جانباً، ومات ذكرُ الحلال  
والحرام، ورُفِض ذكر القبيح والحسن.  
قال عمرو بن الحارث: كُنَّا نُبْغِضُ مِنَ الرِّجَالِ ذَا الرِّبَاءِ وَالتَّنْفِخِ، وَنَحْنُ  
الْيَوْمِ تَتَمَّنَّاهُمْ.

قد كتبنا من كتاب الحيوان ستة أجزاء، وهذا الكتابُ السابع هو الذي  
ذكرنا فيه الفيل بما حَصَرْنَا مِنْ جُمْلَةِ الْقَوْلِ فِي شَأْنِهِ، وَفِي جُمْلَةِ  
أَسْـبَابِهِ، وَاللَّهُ بِهِ الْمَوْفِقُ.  
وإنما اعتمدنا في هذه الكتب على الإخبار عمّا في أجناس الحيوان  
من الحجج المتظاهرة، وعلى الأدلة المترادفة، وعلى التنبيه على ما  
جَلَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْبَرْهَانَاتِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ حَقَائِقُهَا إِلَّا بِالْفِكْرَةِ،  
وَعَشَّاهَا مِنَ الْعَلَامَاتِ الَّتِي لَا تَنَالُ مَنَافِعَهَا إِلَّا بِالْعِبْرَةِ، وَكَيْفَ فَرَّقَ  
فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ الْعَجِيبَةِ، وَالْأَحَاسِيسِ الدَّقِيقَةِ، وَالصَّنْعَةِ اللَّطِيفَةِ، وَمَا  
أَلْهَمَهَا مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَحَشَاهَا مِنَ الْجُبْنِ وَالْجُرْأَةِ، وَبَصَّرَهَا بِمَا يُقِيئُهَا

ويُعِيشُهَا، وَأَشْعَرُهَا مِنَ الْفِطْنَةِ لَمَا يَحَاوِلُ مِنْهَا عَدُوُّهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلْحَذَرِ، وَيَكُونَ حَذْرُهَا سَبَبًا لِلْحِرَاسَةِ، وَحِرَاسَتُهَا سَبَبًا لِلسَّلَامَةِ، حَتَّى تَجَاوِزَتْ فِي ذَلِكَ مَقْدَارَ حِرَاسَةِ الْمَجْرَّبِ مِنَ النَّاسِ، وَالْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْتِطَاعَةِ وَالرَّوِيَّةِ، كَالَّذِي يَرُودُ مِنْ تَحَارُّسِ الْغُرَانِيقِ وَالْكَرَاكِيِّ، وَأَشْكَالٍ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، حَتَّى صَارَ النَّاسُ لَا يَضْرِبُونَ الْمِثْلَ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَذْمُونَ وَلَا يَمْدَحُونَ إِلَّا بِمَا يَجِدُونَ فِي أَصْنَافِ الْوَحْشِ مِنَ الطَّيْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَقَالُوا: أَحْذَرُ مِنْ عَفْعَقٍ، وَأَحْذَرُ مِنْ غَرَابٍ، وَأَحْذَرُ مِنْ عَصْفُورٍ، وَأَسْمَعُ مِنْ قَرْخِ الْعُقَابِ، وَأَسْمَعُ مِنْ قُرَادٍ، وَأَسْمَعُ مِنْ قَرَسٍ، وَأَجْبَنُ مِنْ صِغْرِدٍ، وَأَسْحَى مِنْ لَافِظَةٍ، وَأَصْنَعُ مِنْ تُنَوِّطٍ، وَأَصْنَعُ مِنْ سُرْفَةٍ، وَأَصْنَعُ مِنْ دَبْرٍ، وَأَهْدَى مِنْ قَطَاةٍ، وَأَهْدَى مِنْ حَمَامٍ، وَأَهْدَى مِنْ جَمَلٍ، وَأَزْهَى مِنْ غَرَابٍ، وَأَزْهَى مِنْ ذَبَابٍ، وَأَجْرَأُ مِنَ اللَّيْثِ، وَأَكْسَبُ مِنَ الدَّبِّبِ، وَأَخْدَعُ مِنْ صَبِّ، وَأَرْوَعُ مِنْ ثَعْلَبٍ، وَأَعَقُّ مِنْ صَبِّ، وَأَبْرُّ مِنْ هِرَّةٍ، وَأَسْرَعُ مِنْ سِمْعٍ، وَأَظْلَمُ مِنْ حَيَّةٍ، وَأَظْلَمُ مِنْ وَرَلٍ، وَأَكْذِبُ مِنْ فَاخِتَةٍ، وَأَصْدَقُ مِنْ قَطَاةٍ، وَأَمْوَقُ مِنْ رَحْمَةٍ، وَأَحْزَمُ مِنْ قَرْخِ الْعُقَابِ. وَنَبَّهْنَا تَعَالَى وَعَزَّرْنَا عَلَى هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ، وَعَلَى هَذِهِ الْمَشَارِكَةِ، وَامْتَحَنَّا مَا عِنْدَنَا بِتَقْدِيمِهَا عَلَيْنَا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَيْنَا فِي

أكثر الأمور وأراد بذلك ألا يُخْلِينَا من حُجَّة، ومن النَّظَرِ إلى عبرة،  
وإلى ما يعود عند الفكرة موعظة، وكما كره لنا من السهو  
والإغفال، ومن البطالة والإهمال، في كلِّ أحوالنا لا تُفْتَحُ أبصارنا إلا  
وهي واقعةٌ على ضربٍ من الدلالة، وعلى شكل من أشكال  
البرهانات، وجعل ظاهر ما فيها من الآيات داعياً إلى التفكير فيها،  
وجعل ما استخزنها من أصناف الأعاجيب يُعرف بالتكثيف عنها،  
فمنها ظاهرٌ يدعو إلى نفسه، ويشير إلى ما فيه، ومنها باطنٌ  
يزيدك بالأمور ثقةً إذا أفضيت إلى حقيقته، لتعلم أنك مع فضيلة  
عقلك، وتصرف استطاعتك إذا ظهر عجزك عن عمل ما هو أعجز  
منك - أن الذي فضلك عليه بالاستطاعة والمنطق، هو الذي فضله  
عليك بضروبٍ آخر، وأنكما ميسران لما خلقتُما له، ومُصَرَّفان لما  
سُخِّرَتما له، وأن الذي يعجز عن صنعة السُّرْفَةِ، وعن تدبير  
العنكبوت في قلتها ومهانتها وضعفها وصغر جرمها، لا ينبغي  
أن يتكبر في الأرض ولا يمشي الخيلاء، ولا يتهكم في القول، ولا  
يتألى ولا يستأمر، وليعلم أن عقله منيحة من ربه، وأن استطاعته  
عاريَّةٌ عنده، وأنه إنما يستبقي النعمة بإدامة الشُّكْرِ، والتعرُّض  
لسلبها بإضاعة الشُّكْرِ.

ثم حَبَّبَ إليها طلب الذَّرِّءِ والسَّفَادِ الذي يكون مَجَلَبَةً للذَّرِّءِ، وَحَبَّبَ إليها أولادَها ونَجَلَهَا وَذَرَّءَها ونَسَلَهَا، حتى قالوا: أكرم الإبل أشدُّها حيناً، وأكرم الصَّفايا أشدُّها حَبًّا لأولادها، وَزَاوَجَ بين أكثرها وجعل تَأَلَّفَها مَعَ بعضها من الطَّرِوقَةِ إذا لم يكن المَرْوَجُ لها حُلُقاً، وجعل إلف العِرْسِ لها عادة، وَقَوَّاهَا على المَساقِدَةِ، لتَمَّ النعمة، وتعظم المنة، وألهمها المبالغة في التربية، وَحُسْنَ التَّعَبُّدِ، وشِدَّةَ التَّفَقُّدِ، وَسَوَّى في ذلك بين الجِنْسِ الذي يُلَقِّمُ أولاده تلقيماً، وبين الذي يُرْضِعُها إرضاعاً، وبين الذي يَرْقُها رَقًّا، وبين ما يحضن وما لا يحضن، ومنها ما أخرجها من أرحام البَيضِ وأرحام البَطونِ كاسيَّةً، ومنها ما أخرجها كاسيَّةً كاسيَّةً، وَأَمْتَعَهَا وألذَّها، وجعلها نِعْمَةً على عباده، وامتحاناً لشكرهم، وزيادةً في معرفتهم، وَجِلَاءً لما يتراكم من الجهل على قلوبهم، فليس لهذا الكتاب ضُدُّ من جميع مَن يشهد الشهادة، وَيُصَلِّي إلى القبلة، وَيَأْكُلُ الدَّبِيحَةَ ولا ضُدُّ من جميع الملحدين مَمَّن لا يَقْرَأُ بالبعث، وَيَنْتَحِلُ الشَّرَائِعَ وإن أَلْحَدَ في ذلك وزاد ونقص، إلا الدَّهْرِيَّ، فإن الذي ينفي الربوبية، وَيُحِيلُ الأمرَ والنَّهْيَ، وَيُنْكَرُ جواز الرِّسالة، ويجعل الطَّيْنَةَ قديمة، وَيَجْحَدُ الثَّوَابَ والعِقَابَ، ولا يعرف الحلالَ والحرامَ، ولا يَقْرَأُ بأن في جميع العالم

برهاناً يدلّ على صانعٍ ومصنوعٍ، وخالقٍ ومخلوقٍ، ويجعلُ الفلكَ الذي لا يعرف نفسه من غيره، ولا يفصل بين الحديث والقديم، وبين المحسن والمسيء، ولا يستطيع الزيادة في حركته، ولا النقصان من دورانه، ولا مُعاقبةً للسُّكون بالحركة، ولا الوقوفَ طَرْفةَ عينٍ، ولا الانحرافَ عن الجهة - هو الذي يكون به جميع الإبرام والنقض، ودقيقُ الأمور وجليها، وهذه الحكمة العجيبة، والتدابير المتقنة، والتأليف البديع، والتركيب الحكيم، على حسابٍ معلوم، ونسقٍ معروف، على غايةٍ من دقائق الحكمة وإحكام الصنعة. ولا ينبغي لهذا الدهريِّ أيضاً أن يعرض لكتابنا هذا وإن دلَّ على خلافِ مذهبه، ودعا إلى خلافِ اعتقاده، لأن الدهريِّ ليس يرى أن في الأرض ديناً أو نِحلةً أو شريعةً أو مِلةً، ولا يرى للحلال حُرمةً ولا يعرفه ولا للحرام نهايةً ولا يعرفه، ولا يتوقَّع العقابَ على الإساءة، ولا يترجى الثواب على الإحسان، وإنما الصواب عنده والحقُّ في حُكمه، أنه والبهيمة سِيَّانٍ، وأنه والسَّبُعُ سِيَّانٍ، ليس القبيحُ عنده إلا ما خالف هواه وليس الحسنُ عنده إلا ما وافق هواه، وأن مدار الأمر على الإخفاق والدرك، وعلى اللدَّة والألم، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة، وإن قتلَ ألفَ إنسانٍ صالحٍ لِمَنالَةٍ درهمٍ رديءٍ،

فهذا الدهري لا يخاف إن ترك الطُّعْن على جميع الكتب عقاباً ولا  
لائمة، ولا عذاباً دائماً ولا منقطعاً ولا يرجو إن ذمّها وتَصَب لها ثواباً  
ففي عاجل ولا آجلاً.  
فالواجب أن يسلم هذا الكتابُ على جميع البريَّة، إذا كان موضِعُه  
على هذه الصِّفة، ومُجراه إلى هذه الغاية، والله تعالى الكافي  
الموقِّق بلطفه وتأييده، إنه سميع قريب، فعال لما يريد.  
ثم رجع بنا القولُ إلى الإخبار عن الحيوان، بأيِّ شيء تفاضلتُ وبأيِّ  
شيء خُصِّت، وبماذا أبيتُ، وقد عَرَفنا ما أُعطيت في الشَّمِّ  
والاستيزواح، قال الرَّاجز وذكر الذئب:

يستخِرُ الرِّيحَ إذا لم يسمَع      بمِثْلِ مِقْرَاعِ الصِّفَا الموقِّعِ  
وقد عرفنا كيف شَمُّ السَّنَانِيرِ والسَّبَاعِ والذئَابِ، وأعجبُ من ذلك  
وجدانُ الدَّزَّةِ لرائحةِ شيءٍ لو وضعَّته على أنفك لَمَا وجدَتْ له  
رائحةً، كرجلِ جرادَةٍ يابسةٍ منبوذةٍ، كيف تجدُ رائحتها من جوفِ  
جُحرها حتى تخرج إليها، فإذا تكَلَّفَتْ حملها فأعجزَتْها كيف تستدعي  
إليها سائر الدَّزَّةِ، وتستعينُ بكلِّ ما كان منها في الجُحر.  
ونحوِ شَمِّ الفَرَسِ رائحةَ الجِجْر من مَسيرةِ ميل، والفرس يسير  
قُدماً والجِجْر خلفه بذلك المقدار، من غير تَلَفُّتٍ ولا معاينةٍ من جهة

من الجهات، وهذا كثيرٌ، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع، فأما السَّمع فدعنا من قولهم: أسمعُ من فرسٍ،: أسمع من فرخ العقاب وأسمع من كذا، وأسمع من كذا، ولكننا نقصد إلى الصَّغير الحقير في اسمه وخطره؛ والقليل في جسمه وفي قَدْرِهِ. وتقول العرب: أسمع من قُرَاد، ويستدلون بالقردان التي تكون حَوْل الماء والبيئر، فإذا كان ليلة ورود القَرَب، وقد بعث القوم من يصلح لإبلهم الأرشية وأداة السقي، وباتت الرجال عند الماء تنتظر مجيء الإبل، فإنها تعرف قربها منهم في جوف الليل بانتفاش القردان وسرعة حركتها وخشختها، ومرورها نحو الرعاء، وزجر الرعاء، ووقع الأخفاف على الأرض، من غير أن يُحسَّ أولئك الرجال حسًّا أو يشعروا بشيء من أمرها، فإذا استدلوا بذلك من القردان نهضوا فتلبَّبوا واتزرُّوا وتهيَّؤوا للعمل. فأما إدراك البصر فقد قالوا: أبصر من غراب وأبصر من فرس؛ وأبصر من هدهد وأبصر من عقاب. والسَّنانير والفأر والجردان والسَّباع تُبصر بالليل كما تبصر بالنهار؛ فأما الطَّعم فيظنُّ أنها بفرط الشَّره والشَّهوة وبفرط الاستمراء وبفرط الجِرس واللَّهم، أن لذتها تكون على قَدْر شَرِّها وشهوتها،

تكون على قدر ما ترى من حركتها، وظاهر حرصها. ونحن قد نرى  
الحمار إذا عاين الأتان، والفرس إذا عاين الحجر والرمكة، والبغل  
والبغلة، والتيس والعنز فنظن أن اللذة على قدر الشهوة، والشهوة  
على قدر الحركة، وأن الصيَّاح على قدر غلبة الإرادة. ونجد الرجال  
إذا اعتراهم ذلك لا يكونون كذلك إلا في الوقت الذي هم فيه أشدَّ  
عُلْمًا وأفْهَمًا ورَطَّ شَهْوَةً.

فإن قال قائل: إن الإنسان يَغشى النَّساء في كلِّ حالٍ من الفصلين  
والصَّميمين، وإنما هَيْجُ السَّبَّاعِ والبهائم في أيام من السنة ثم يسكن  
هَيْجُ النَّيسِ والجمال، فالإنسان المداوم أحسن حالاً.  
قلنا: إننا لم نكن في ذكر المخايرة بين نصيب الإنسان في ذلك  
مجموعاً ومفترقاً، وبين نصيب كلِّ جنسٍ من هذه الأجناس مجموعاً  
ومفترقاً، وإنما ذكرنا نفس المخالطة فقط، وما يدرىكم أيضاً لعلها  
أَنْ تَسْتَوْفِي في هذه الأيام اليسيرة أضعاف ما يأتي الإنسان في  
تلك الأيام الكَثيرة.

وعلى أننا قد نرى ممَّا يعترى الحمار والفرس والبغل وضروباً كثيرة  
إذا عاينوا الإناث في غير أيام الهيج، وهاهنا أصنافٌ تُدِيم ذلك كما  
يُدِيمه الإنسان، مثل الحمام والدِّيكة وغير ذلك.



المعرفة والفتنة، ولو أردنا الأجناسَ المعروفةَ بالمعارف الكثيرة،  
والأحساسِ اللطيفة، لذكرنا الفيلَ والبعير، والذَّرة والنملة، والذئب،  
والثعلب، والغرنوق، والنحلة، والعنكبوت، والحمَامَ، والكلب،  
وسنذكر على اسم الله تعالى بعضَ ما في البهائم والسَّبَاع والطير  
من المعرفة، ثم نخصُّ في هذا الكتابِ المنسوباتِ إلى الموق،  
والمعروفاتِ بالغباوةِ وقلة المعرفة، كالرَّخمة والزنبور، والرَّبِيع من  
أولاد الإبل، والنَّسْر من عظام الطير.  
وقال المفصَّل الضبيُّ: قلت لمحمد بن سهل راوية الكميت: ما  
معنى قول الكميت في الرَّخمة:

وَذَاتِ اسْمَيْنِ وَالْأَلْوَانُ  
شَتَّى  
تَحْمَقُ وَهِيَ كَيْسَةُ الْحَوِيلِ  
لَهَا خَبٌّ تَلُوذُ بِهِ وَليست  
بضائعة الجنين ولا مَدُولِ

قال: كأنَّ معناه عندي حفظُ فراخها، أو موضع بيضها، وطلب طعمها، واختيارها من المساكن ما لا  
يَطُوره سبع طائر ولا ذو أربع، قال: فقلت: فأبي كيس عند الرَّخمة إلا ما ذكرت، ونحن لا نعرف طائراً  
ألمَ لؤماً ولا أقدرَ طُعْمَةً، ولا أظهرَ مَوْقاً منها، حتى صارت في ذلك مثلاً؟ فقال محمد بن سهل: وما  
حمُّها وهي تحضن بيضها، وتحمي فراخها، وتحبُّ ولدها، ولا تمكُّنُ إلا زوجها، وتقطع في أوَّل القواطع  
وترجع في أوَّل الرواجع، ولا تطير في التحسير، ولا تغتثُّ بالشكير، ولا تُربُّ بالوكور ولا تسقط على  
الجفير.

أمَّا قوله: تقطع في أول القواطع وترجع في أوَّل الرواجع فإنَّ الرُّماة وأصحابَ الحبالِ والقُتَّاصَ إنما  
يطلبون الطير بعد أن يعلموا أنَّ القواطع قد قَطَعَتْ، فيقطع الرَّخمة يستدلُّون، فلا بدَّ للرَّخمةِ مِنْ أن  
تنجسَ أو سـالمَةً إذا كانت أوَّل طـالعٍ عليها.

وأما قوله: ولا تُرَبُّ بالوُكُورِ فإنه يقول: الوكر لا يكون إلا في عُرضِ الجبل، وهي لا تَرْضَى إلا بأعالي الهضاب، ثم مواضع الصّدوع وِجَالِ الصخور، وحيث يمتنع على جميع الخلق المصيرُ إلى فراخها، ولذلك قال الكميت:

كراجٍ على بيض الأنوق  
أحبالها

ولا تجعلوني في رجائي  
وُدَّكم

والأنوق هي الرّخمة، وقال ابن نوفل:

يَصِيرُ إلى الخبيثِ من  
المَصِيرِ  
تعاظُمها إذا ما قيل  
طيري  
من الطيرِ المُربّةِ في  
الوكرِ

وأنت كساقطٍ بينَ  
الحشايا  
ومثلُ نعامٍ تُدعى بغيراً  
وإن قيل احملي قالت  
فإني

**وأما قوله: ولا تطير في التحسير، ولا تغترب بالشكير فإنها تدعُ الطيرانَ أيام التحسير، فإذا نبت الشكير - وهو أول ما ينبت من الريش - فإنها لا تنهض حتى يصير الشكير قصباً،**

**وأما قوله: ولا تسقط على الجفير، وإنما يعني جعبة**

**السّهام، يقول: إذا رآته علمت أنّ هناك سهماً، فهي لا**

**تسقط في موضع تخاف فيه وقع السّهام. اتباع الرخم**

## **والنسور والعقبان للجيش**

والرّخم والنّسور والعقبان تتبع الجيوشَ لتوقع القتال وما يكون لها من الجيف، وتتبع أيضاً الجيوشَ والحجّاج لما يسقط من كسير الدّواب، وتتبعها أيضاً في الأزمنة التي تكون فيها الأنعام والحجور حوامل، لِمَا تُوَمِّل من الإجهاض والإخجاج، قال النابغة:

كَتَائِبُ مِنْ عَسَّانٍ غَيْرِ  
أَشَائِبِ  
أَوْلَيْكَ قَوْمٌ بِأَسْهُمٍ غَيْرِ  
كَاذِبِ  
عَصَائِبِ طَيْرٍ تَهْتَدِي  
بِعَصَائِبِ  
إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانَ أَوْلُ  
غَالِبِ  
جُلُوسِ شَيْوِخٍ فِي مُسُوكِ  
الْأَرَانِبِ

وَتَثَقُّ لَهُ بِالنَّصْرِ إِذْ قِيلَ قَدْ  
عَدَّتْ  
بَنُو عَمِّهِ دُنْيَا وَعَمْرُو بْنُ  
عَامِرٍ  
إِذَا مَا عَزَّوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ  
فَوْقَهُمْ  
جَوَانِحٌ قَدْ أَيْقَرْنَ أَنْ  
قَبِيلِهِ  
تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ حُزْرًا  
عِيُونُهَا

فأخذ هذا المعنى حميد بن ثور الهلالي فقال:

مِنَ الطَّيْرِ يَنْظُرَنَّ الَّذِي هُوَ  
صَانِعُ

إِذَا مَا غَزَا يَوْمًا رَأَيْتَ  
عِصَابَةً

وقال آخر:

وَيَجْعَلُ الرُّوسَ تَيْجَانَ الْقَنَا  
الذُّبْلِ  
فَهَنَّ يَتَّبَعْتَهُ فِي كُلِّ  
مُرْتَحَلِ

يَكْسُو السِّيُوفَ نَفُوسَ  
التَّائِكِينَ بِهِ  
قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثَقَنَ  
بِهَا

فقال الكميت كما ترى:

تَحْمَقُ وَهِيَ كَيْسَةُ الْحَوِيلِ

فزعهم أن التماس يحمقونها وهي كيسة.  
قول بعض الأعراب وقال بعض أصحابنا: قيل لأعرابي: أتحسن أن  
تأكل الرأس؟ قال: نعم، قيل: وكيف تصنع به؟ قال: أبخض عينيه،  
وأسخى خديه، وأعفص أذنيه، وأفك لحيته، وأرمني بالمدح إلى من هو  
أحوج مني إليه، قيل له: إنك لأحمق من ربيع، قال: وما حمق الربيع؟

والله إنه لَيَجْتَنِبُ الْعُدَاوَةَ وَيَتَّبِعُ أُمَّهُ فِي الْمَرَعَى، وَيُرَاوِحُ بَيْنَ الْأَطْبَاءِ،  
ويعلم أن حنينها رُغَاءٌ، فأين حمفُهُ.

## قتل المكاء للثعبان

وحدث ابنُ الأعرابيِّ عن هشام بن سالم، وكان هشام من رَهْطِ ذِي الرُّمَّةِ، قال: أَكَلْتُ حَيَّةَ بَيْضَ  
مُكَّاءَ فَجَعَلَ الْمُكَّاءُ يَشْرِيثِرُ عَلَي رَأْسِهَا وَيَدْتُو مِنْهَا، حَتَّى إِذَا فَتَحَتْ فَاهَا تَرِيدُهُ وَهَمَّتْ بِهِ أَلْقَى فِيهِ  
حَسَكَةً، فَلَمْ يَزَلْ يُلْقِي فِيهِ حَسَكَةً بَعْدَ حَسَكَةٍ، فَأَخَذَتْ بِحَلْقِهَا حَتَّى مَاتَتْ.  
وأنشد ابن الأعرابيِّ عند هذا الحديث قولَ الشاعر:

يُرِيدُ بِتَخْرِيقِ الْأَدِيمِ  
اسْتِلَالَهَا

كَأَنَّ لِكُلِّ عِنْدَ كُلِّ سَخِيمَةٍ

وأنشد أبو عمرو الشيباني بيت شعر، وهو هذا المعنى بعينه، وهو قول الأسيديِّ الدُّبيريِّ:

إِنْ كُنْتَ أَبْصَرْتَنِي فِدًّا  
وَمُضْطَلِّمًا  
فَرُبَّمَا قَتَلَ الْمُكَّاءُ ثُعْبَانًا

يقول: قد يظفر القليل بالكثير، والقليلُ الأعوانِ بالكثير الأعوان؛  
والمُكَّاءُ من أصغر الطير وأضعفِهِ، وقد احتال للثُّعْبَانِ حَتَّى قَتَلَهُ.

## قول جالينوس في معرفة أنثى الطير

وقال جالينوس في الإخبار عن معارف البهائم والطير، وفي التعجُّب  
من ذلك وتعجب الناس منه: قولوا لي: مَنْ عَلَّمَ النَّسْرَ الْأُنْثَى إِذَا  
خَافَتْ عَلَى بَيْضِهَا وَفَرَاخِهَا الْخَفَافِيشَ أَنْ تَفْرِشَ ذَلِكَ الْمَوْكِرَ بَوْرُقَ  
الدُّلْبِ حَتَّى لَا تَقْرِبَهُ الْخَفَافِيشَ، وَهَذَا أَعْجَبُ، وَالْأَطْبَاءُ وَالْعُلَمَاءُ لَا

يتدافعونه، والنُّسور هي المنسوبة إلى قلة المعرفة والكيس والفتنة.

## حزم فرخ العقاب

وقال ابن الأعرابي وأبو الحسن المدائني: قال رجلٌ من الأعراب: كان سنان بن أبي حارثة أحزم من فرخ العقاب، وذلك أنّ جوارح الطير تتخذ أوكارها في عُرض الجبال، فربّما كان الجبلُ عموداً، فلو تحرّك الفرخ إذا طلب الطعام وقد أقبل إليه أبواه أو أحدهما وزاد في حركته شيئاً من موضع مَجِئمه لهوى من رأس الجبل إلى الحضيض، وهو يعرف مع صِغره وُضعفه وقلة تجربته، أنّ الصواب في ترك الحركة.

## اختلاف عادات صغار الحيوان

ولو وُضع في أوكار الوحشيات فرخٌ من فراخ الأهلّيات لتهافتن تهافتاً كفراخ القطا والحجل والقبج والدراج والدجاج؛ لأنّ هذه تدرّج على البسيط، وذلك لها عادة، وفراخ الوحشيّة لا تجاوز الأوكار؛ لأنها تعرف وتعلم أنّ الهلكة في المجاوزة، وأولادُ الملاحين الذين وُلدوا في

السفن الكبار، والمنشآت العظام لا يخاف الآباء والأمهات عليهم إذا درجوا ومَشُوا أَنْ يَقْعُوا فِي الْمَاءِ، وَلَوْ أَنَّ أَوْلَادَ سُكَّانِ الْقُصُورِ وَالدُّوَرِ صَارُوا مَكَانَ أَوْلَادِ أَرْبَابِ السُّفُنِ لَتَهَافَتُوا، وَلِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرٌ، وَلَهُ مَوْضِعٌ وَزَمَانٌ وَجِهَةٌ وَعَدَّةٌ. فَإِذَا اسْتَوَى قَصَبُ رِيَشِ فَرَخِ الْعُقَابِ، وَأَحْسَنَ بِالْقُوَّةِ طَارَ. وَأَبَوَا فَرَخَ الْخَطَّافِ يَعْلَمَانَهُ الطَّيْرَانَ تَعْلِيمًا.

### الختان عند اليهود والمسلمين والنصارى

وزعم ناسٌ من أطبَّاءِ النصارى وهم أعداءُ اليهود، أَنَّ الْيَهُودَ يَخْتِنُونَ أَوْلَادَهُمْ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَقَعُ، وَيُؤْفِقُ أَنْ يَكُونَ فِي الصَّمِيمِينَ، كَمَا يُؤْفِقُ الْفَصْلِينَ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا قَطُّ يَهُودِيًّا أَصَابَهُ مَكْرُوهُ مِنْ قِبَلِ الْخِتَانِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ رَأَوْا مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى مَا لَا يُحْصَى مِمَّنْ لَقِيَ الْمَكْرُوهَ فِي خِتَانِهِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي الصَّمِيمِينَ مِنْ رِيحِ الْحَمْرَةِ، وَمَنْ قَطَعَ طَرَفَ الْكَمْرَةِ، وَمَنْ أَنَّ تَكُونَ الْمُوسَى حَدِيثَةَ الْعَهْدِ بِالْإِحْدَادِ وَسَقَى الْمَاءِ، فَتَشِيْطُ عِنْدَ ذَلِكَ الْكَمْرَةَ وَيَعْتَرِبُهَا بَرَصٌ، وَالصَّبِيُّ ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ أَعْسُرُ خِتَانًا مِنَ الْغُلَامِ الَّذِي قَدْ شَدَّ بَرَصًا وَشَدَنَ وَقَوِيَ؛ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ الْبَرَصَ لَا يَتَفَشَى وَلَا يَعْدُو مَكَاتَهُ، وَهُوَ فِي

ذلك كنعو البرص الذي يكون من الكيِّ وإحراق النار، فإنهما يفحشان ولا يتسعان.

## ختان أولاد السفلة وأولاد الملوك وأشباههم

ويختن من أولاد السُّفلة والفقراء الجماعة الكثيرة فيؤمّن عليهم خطأً الخاتن، وذلك غير مأمونٍ على أولاد الملوك وأشباهِ الملوك، لفرط الاجتهاد، وشدة الاحتياط، ومع ذلك يَزْمَعُ، ومع الزَّمَع والرَّعدة يقعُ الخطأُ، وعلى قدر رعدة اليد ينال القلبَ من الاضطراب على حسب ذلِكَ.

وليس من التدبير أن يحضُر الصبيِّ والخاتنَ إلاَّ سفلة الخدم، ولا يحضره من يهاب.

## قدم ختان العرب

وهذا الختان في العرب في النساء والرجال من لدُن إبراهيم وهاجر إلى يومنا هذا، ثم لم يُولد صبيُّ مختونٌ قط؛ أو في صورة مختون.

## ختان الأنبياء

وناسٌ يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى بن مريم  
وُلِدَا مختونين، والسَّبِيلُ في مثل هذا الرَّجوعُ إلى الرواية الصحيحة،  
والأثر القائم.

## أثر الختان في اللذة

قال: والبظراء تجد من اللذة ما لا تجده المختونة، فإن كانت  
مُستأصلةً مستوعبةً كان على قدر ذلك، وأصل ختان النساء لم يُحاول  
به الحسنُ دونَ التماسِ نُقصان الشهوة، فيكون العفاف عليهنَّ  
مقصوداً ورأياً.

قال: ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم للخاتنة: يا أم عطية  
أشميه ولا تنهكيه، فإنه أسرى للوجه، وأحظى عند البعل، كأنه أراد  
صلى الله عليه وسلم أن ينقص من شهوتها بقدر ما يردها إلى  
الاعتدال؛ فإن شهوتها إذا قلت ذهب التمتع، ونقص حب الأزواج،  
وحب الزوج قيّد دون الفجور، والمرأة لا تكون في حالٍ من حالات  
الجماع أشدَّ شهوةً منها للكوم الذي لقحت منه.  
وقد كان رجلٌ من كبار الأشراف عندنا يقول للخاتنة: لا تقرصي إلا ما  
يظهر فقط.

## أثر الختان في العفاف والفجور

وزعم جناب بن الحشخاش القاضي، أنه أحصى في قرية واحدة النساء المختونات والمُعَبَّرات، فوجد أكثر العفائف مستوعبات وأكثر الف\_\_\_\_\_واجر مُعَبَّرات\_\_\_\_\_.

وأن نساء الهند والروم وفارس إنما صار الزنا وطلب الرجال فيهنَّ أعم، لأنَّ شهوتهنَّ للرجال أكثر، ولذلك اتخذ الهند دوراً للروائي، قالوا: وليس لذلك علَّة إلاَّ وفارة البظر والقُلفة. والهند توافق العربَ في كلِّ شيءٍ إلاَّ في ختانِ النساءِ والرجال، ودعاهم إلى ذلك تعمُّقهم في توفير حظ الباه، قالوا: ولذلك اتخذوا الأدوية، وكتبوا في صناعة الباه كتباً ودَرَسُوها الأولاد، السحق قالوا: ومن أكبر ما يدعو النساء إلى السحق أنهنَّ إذا ألصقن موضع مَحَرِّ الختان وجدنَ هناك لدَّةً عجيبه، وكلما كان ذلك منها أوفَرَ كان السحقُ ألدَّ، قال: ولذلك صار حُدَّاق الرجال يضعون أطراف الكمر ويعتمدون بها على محرِّ الختان، لأنَّ هناك مجتمع الشهوة.

ظماً الأيِّل إذا أكل الحيات

ومن هذا الباب الذي ذكرنا فيه صدق إحساس الحيوان؛ ثم اللاتي يضاف منها إلى الموق وينسب إلى الغثارة، قال داود النبي عليه السلام في الزبور: شوقي إلى المسيح مثل الأيّل إذا أكل الحيات، والأيّل إذا أكل الحيات فاعتراه العطش الشديد تراه كيف يدور حول الماء ويحجزه من الشرب منه علمه بأنّ ذلك عطبه، لأن السموم حينئذٍ تجري مع هذا الماء، وتدخل مداخل لم يكن ليبلغها الطعم بنفسه، وليس علم الأيّل بهذا كان عن تجربة متقدمة، بل هذا يوجد في أوّل ما يأكل الحيات وفي آخره. تعلق رؤوس الحيات في بدن الأيّل وربما اصطيد الأيّل فيجد القنّاص رؤوس الأفاعي وسائر الحيات ناشبة الأسنان في عنقه وجلد وجهه، لأنه يريد أكلها فربما بدرته الأفعى والأسود وغيرهما من الحيات فتعضّه، وهو يأكلها ويأكل ما ينال منها ويفوته ما تعلق به منها بالعضّ، فتبقى الرؤوس مع الأعناق معلقةً عليه إلى أن تنقطع.

## نصول قرن الوعل

قالوا: وليس شيء من ذوات القرون ينصل قرنه في كلّ عام إلا الوعل، فإذا علم أنّه غير ذي قرن، وأنه عديم السلاح، لم يظهر من مخافة السباع، فإذا طال مكثه في موضعه سمن، فإذا سمن علم أن حركته تفقد وتبطئ، فزاد ذلك في استخفائه وقلة تعرّضه، واحتال بالألّا يكون أبداً على علاوة الريح،

فإذا نجم قرنه لم يجد بُدًّا من أن يمطّعه ويعرّضه للشمس والريح، حتى إذا أيقن أنه قد اشتد أكثر المجيء والذهاب التماساً أن يذهب شحمه، ويشد لحمه، وعند ذلك يحتال في البعد من السّباع، حتى إذا أمكنه استعمال قرنيه في النزال والاعتماد عليهما، والوثوب من جهتهما، رجّع إلى حاله من مراعيه وعاداته، ولذلك قال عصام بن زفر:

تَرْجُو التَّوَابَ مِنْ صَبِيحٍ يَا      قَدْ مَصَّه الدَّهْرُ فَمَا فِيهِ  
حَمَلٌ      بَلَلٌ  
إِنْ صَبِيحاً ظَاعِرٌ      فَلَائِدٌ مِنْكَ بِشَيْعٍ مِنْ  
فَمَحْتَمِلٌ      جَبَلٌ  
كَمَا يَلُودُ مِنْ أَعَادِيهِ الوَعِلُ

فضرب به المثل كما ترى في الاحتيال والهرب من أعدائه: وقال الراجز:

لَمَا رَأَيْتُ الْبَرْقَ قَدْ      وَأَخْرَجَ الْقَطْرُ الْقَرُوعَ  
تَبَسَّمَا      الْأَعْصَمَا  
قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: إِنَّمَا سَمَّوْا الوَعْلَ الْقَرُوعَ لِأَنَّهُ يَقْرَعُ عَجَبَ ذَنْبِهِ مِنْ  
النَّاحِيَتَيْنِ جَمِيعاً.

## بيوت الزنابير

وقال ابن الكلبي: قال الشرقي بن القطامي ذات يوم: أرايتم لو فكّر رجل منكم عُمره الأطول في أن يتعرّف الشيء الذي تتخذ الزنابير بيوتها المخرّقة بمثل المجاوب، المستوية في الأقدار، المتحاذرة بالحيطان، السخيفة في المنظر، الخفيفة في المحمل، المستديرة المضمرة بعضها ببعض، المتقاربة الأجزاء، وهي البيوت التي تعلم أنها بُنيت من جوهر واحد وكأنها من ورق أطباق صغار الكاغد المزرّرة، قولوا لي: كيف جمعته؟ ومن أي شيء أخذته، وهو لا يشبه البناء ولا النّسج ولا الخياطة. ولم يفسر ابن الكلبي والشرقي في ذلك شيئاً، فلم يصِرْ في أيدينا منهما إلا التعجّب والتعجب، فسألت بعد ذلك مشايخ الأكرة فزعموا أنها تلتقطه من رّبْد المُدود، فلا يدرى من تفس الرّبْد تأخذ، أم من شـيـء يـكـون فـي الرّبـد.

والذي عرّف الزنابير مواضع تلك الأجزاء، ودلها على ذلك الجوهر هو الذي علّم العنكبوت ذلك النسج،  
وقد قال الشاعر:

كَأَنَّ قَفَا هَارُونَ إِذْ      قَفَا عَنكُبُوتٍ سُلِّ مَن دُبُرِهَا  
يَعْتَلُونَهُ      عَزَلُ

وقد قـال قـال بلا علـم.

وأما دودة القزّ فلا نشك أنها تخرجه من جوفها.

### معرفة الحُقنة من الطير

وتزعم الأطباء أنهم استفادوا معرفة الحُقنة من قبل الطائر الذي إذا أصابه الحُصْر أتى البحرَ فأخَذَ بمنقاره من الماء المالح، ثم استدخَلَه فمَجَّه في جوفه، وأمكته ذلك بطول العنق والمنقار، فإذا فعل ذلك، ذَرَقَ فاستراح.

### ما يتعالج به الحيوان

والقنفذ وابن عرسٍ إذا ناهشا الأفاعيَ والحياتِ الكبارَ تعالَجَا بأكلِ  
الصَّعْتِ عتر الـ بَرِّي.

والعقاب إذا اشتكت كبدَها من رَفَعها الأرتبَ والثعلبَ في الهواءِ  
وَحَطَّها لهما مِراراً فإنها لا تأكل إلاّ من الأكباد حتى تبرأ من وجع  
كبدِها.

### رغبة الثعلب في القنفذ

قال: وسألتُ القُنَّاصَ: ما رغبة الثعلب في أكل القنفذ وإن كان  
حشو إهابه شحماً سميناً، وفي ظاهر جلده شوك صلابٍ حداً  
مقاربٌ كتقارب الشعر في الجسد؟ فزعموا أنّ الثعلبَ إذا أصابه  
قلبه لظهره ثم بال على بطنه فيما بين مغرز عَجَبه إلى فكِّه، فإذا  
أصابه ذلك البولُ اعتراه الأسنُ فأسبَطَ وتمدَّد، فينقر عن بطنه،  
فمن تلك الجهة يأكل جميعَ بدنه ومسلوخه الذي يشتمل عليه  
جلده.

### صيد الطربان للضب

وقالوا: وبشبيه هذه العلة يصيد الطربان الضبَّ في جوف جُحره حتى يغتصبه نفسه؛ وذلك أنّه  
يعلم أنّه أنتن خلق الله قسوة، فإذا دخل عليه جُحره سدَّ حَصاصه وفروجه ببدنه، وهو في ذلك

مستديراً له، فلا يفسو عليه ثلاثَ قَسَوَاتٍ حتى يُعْطِيَ بيده فيأكله كيفَ شاءَ.  
قالوا: وربُّما فسا وهو بقرب الهجمة وهي باركةٌ فتتفرَّق في الصحراء فلا يجمعها راعيها إلاَّ بجهد  
شديد، ولذلك قال الشاعر:

لا تمنحوا صقراً فما  
لمنيحة  
أنت آل صقيرٍ من ثوابٍ  
ولا شكرٍ  
فما ظربانٌ يُؤبسُ الضبَّ  
فَسُوهُ  
بِأَلَمٍ لَوْماً قد علمناه من  
صقيرٍ

ولذلك قال الراجز، وهو يذكر تكسب الطربان بفسوه لِطُعْمِهِ وقوته، كما يتكسب الناس  
بالصناعات والتجارات، فقال:

باتا يُحكَان عراصيفَ  
القَتَبِ  
كما يحكُ القينُ أطرافَ  
الخشبِ  
مستمسكينَ بالبطانِ  
والحقبِ  
وابن يزيدَ حَرَبٍ من  
الحَرَبِ  
لا ينفع الصاحبَ إلاَّ أن  
يَسُبَّ  
كالظربانِ بالفُساءِ  
يكتسبُ

## ما قيل في بلاهة الحمام

قال ابن الأعرابي: قلت لشيخ من قريش: مَنْ علّمك هذا، وإنما  
يُحسِن من هذا أصحابُ التجارات والتكسب، وأنت رجلٌ مكفيٌّ  
مودّع؟ قال: علّمني الذي علم الحمامة على بلّها تقيبَ بيضها  
كي تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من الحَصْن، ولخوف طباع  
الأرض إذا دام على الشَّقِّ الواحد.  
والحمام أبله؛ ولذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقولون: كونوا بُلْهًا كالحمام، ألا ترى أنّ الحمام في الوجه الذي ألهمه الله مصالح ما يُعيشه، ويُصلح به شأنَ ذرئِه ونسله - ليس بدونِ الإنسان في ذرئِه ونسله، مع ما حُوِّل من المنطق، وألهم من العقل، وأُعطي من التصريف في الوجوه؟،

### حيلة الفأرة للعقرب

وإذا جَمَعَ بعضُ أهل العَبَث وبعضُ أهل التَّجْرِبة بين العقرب وبين الفأرة في إناءٍ زجاج، فليس عندَ الفأرة حيلةٌ أبلغُ من قرصِ إبرة العقرب فإمّا أن تموتَ من ساعتها، وإمّا أن تتعجل السَّلامَةَ منها، ثم تقتلها كيف شاءت، وتأكلها كيف أحبَّت.

### علم الذرة

قال: وَمَنْ عَلَّمَ الذَّرَّةَ أَنْ تفلق الحَبَّة فتأكل موضع القِطْمير لئلاّ تنبتَ فتفسُد، فإذا كانت الحَبَّة من حبِّ الكُزْبُرة ففلقتها أنصافاً لم ترض حتى تفلقها أرباعاً؛ لأن الكُزْبُرة من بين جميع الحبِّ تنبت وإن كانت أنصافاً، وهذا عِلْمٌ غامضٌ. إذا عرّفه الشَّيْخُ الفلاح المجرب، والفاشكار الرئيس والأكار

الحاذق، فقد بلغوا النهاية في الرّياسة.

## معرفة الدبّ

وقال جالينوس: ومن علّم الدبّ الأثني إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياماً تهرب به من الدبّ والنمل، لأنها تضعه كفيذرة من لحم، غير متميّز الجوارح، فهي تخاف عليه الدبّ، وذلك له حتفٌ، فلا تزال رافعةً له وراصدة، ومُتَفَقِّدةً ومُحَوِّلةً له من موضع إلى موضع، حتى يشتد وتنفج أعضاؤه.

شعر لبشار وقال بشّار الأعمى:

أما الحيّاة فكلُّ النَّاسِ  
يحفظُها  
وكلُّ قسَمٍ فللعقبان  
أكثرُهُ  
أمينيّة بشر أخى بشار

وفي المعيشة أبلأء  
مناكيرُ  
والحظُّ شيءٌ عليه الدهر  
مقصورُ

وقال بشر أخو بشّار - وكانوا ثلاثة، واحد حنفيّ، وواحد سدوسيّ، وبشّار عُقيليّ، وإنما نزل في بني سدوس لسبب أخيه - وقد كان قيل لأخيه: لو خيرك الله أن تكون شيئاً من الحيوان أيّ شيءٍ كنتَ تتمنى أن تكون؟ قال: عُقاب، قيل: ولمَ تميت ذلك؟ قال: لأنّها تبيت حيث لا ينالها سبُعٌ ذو أربع، وتحيّد عنها سباع الطير. وهي لا تعاني الصيد إلا في الفَرَط، ولكنها تسلب كلَّ صيود صيده، وإذا جامع صاحبُ الصقر وصاحبُ الشاهين وصاحبُ البازي صاحب

العقاب، لم يرسلوا أطيّارهم خوفاً من العُقَاب، وهي طويلة العمر،  
عاقّة بولدها، وهي لا تحمِل على نفسها في الكَسْبِ، وهي إنْ  
شاءتْ كانت فوق كلِّ شيءٍ، وإن شاءتْ كانت بقرْبِ كلِّ شيءٍ،  
وتتغذى بالعِراق وتتعضى باليمن، وربّشها الذي عليها هو قرؤها في  
الشتاء، وحيثُها في الصَّيف، وهي أبصرُ خلق اللّٰه.  
هذا قولُ صاحب المنطق في عُقوق العقاب وجفائها بأولادها، فأما  
أشعار العرب فهي تدلُّ على خلاف ذلك، قال دريد بن الصَّمّة:

وكلُّ لَجُوجٍ في العِنانِ	إذا اغتمست في الماءِ
كأنَّها	فَنَحَاءُ كاسِيرِ
لها ناهض في الوكر قد	كما مَهَدَتْ لِلْبَعْلِ حَسَاءُ
مَهَدَتْ له	عاقِرُ

## المحمق من الحيوان

والحيوان المحمّق الرّحمة والحُبّارى، قال عثمان بن عفّان رضي اللّٰه  
عنه: كلُّ شيءٍ يحبُّ ولده حتّى الحبارى.  
وأنتى الذئاب، وهي التي تسمّى جَهيزَة، والضبع، والنّعجة، والعنز،  
هذه من الموصوفات بالمُوق جَدًّا.  
قال: ومن الحيوان ما ليس عنده إلا الجمالُ والحسن كالطاوس؛ وهو  
من الطير المحمّق، وكذلك النُّدْرُجُ مع جماله وحُسنه وعجيب وشبهه،

والزرافة، وهي أيضاً موصوفة بالمُوق، وليس عندها إلا طَرَافة  
الصُّورة وغرابة التَّاج، وهي من الخَلْق العجيب مَوَاضِعِ الأَعْضاء،  
ويتنازعها أَشْهُباً كَثيرةً كثيرةً.  
والفيل عجيب ظريف، ولكنه قَبِيحٌ مَسِيخٌ، وهو في ذلك بهيُّ نَبِيْلٌ،  
والعين لا تكرهه، والخنزير قبيح مَسِيخٌ، والعين تكرهه، والقرد قَبِيحٌ  
مليح.

وعند الببغاء والمُكَّاء والعندليب وابن تَمْرَة مع صغر أَجْرامها ولطافة  
شُخصها، وصَغَفَ أَشْرَها، من المعرفة والكَيْس والفِطنة والخُبث ما  
ليسَ عند الزَّرافة والطاووس والببغاء عجيب الأمر، ويقولون:  
عندليب وعندبيل، وهو من أصغر الطير.

## ما قيل في حمق الأجناس المائية وفطنتها

فأما الأجناس المائية من أصناف السَّمك، والأجناس التي تُعايش  
السَّمك، فإنَّ جماعتها موصوفةٌ بالجهل والمُوق وقِلَّة المعرفة، وليس  
فيها خُلُقٌ مذكور، ولا خَصْلَة من خِصال الفِطَن، إلا كنعو ما يروى من  
صَيْد الجَرِّيِّ لِلجِرْدَان، وَحَمَل تلك الدابة للعرقي حتى تؤدِّيهم إلى  
الساحل.

شدة بدن السمكة والحية والسمكة شديدة البدن، وكذلك الحية، وكلُّ شيء لا يستعينُ بيدي ولا رجلٍ ولا جناحٍ، وإنما يستعمل أجزاءً بدنه معاً فإنه يكونُ شديد البدن.

## حيلة الشبوط في التخلص من الشبكة

وخبرني بعضُ الصيادين أنَّ الشبوة تنتهي في النهر إلى الشبكة فلا تستطيع النفوذ منها، فتعلم أنها لا يُنجيها إلا الوثوب فتأخر قدر قابٍ رُمح، ثم تتأخر جامعةً لجراميزها حتى تثب، فربما كان ارتفاعُ وثبتها في الهواء أكثر من عَشْرِ أذرع، وإنما اعتمدت على ما وصفنا، وهذا العملُ أكثر ما رَوَّه من معرفتها، وليس لها في المعرفة نصيبٌ مذكور.

## ما يغوص من السمك في الطين

وأنواعُ من السمك يغوص في الطين، وذلك أنها تنخر وتتفأس في جوفه، وتلزم أصول النبات إذا لم يرتفع، وتلتمس الطعم والسفاد. ونحن لم نر قطُّ في بطن دجلة والفرات وجميع الأودية والأنهار، عند نضوب الماء، وانكشاف الأرض، وظهور وجه الطين، وعند الجرر

والتَّقْصَانِ فِي الْمَاءِ فِي مَوَآخِرِ الصَّيْفِ وَأَيَّامِ مَجَاوِرَةِ الْأَهْلَةِ  
وَالْأَنْصَافِ جُحْرًا قَطُّ، فَضلاً عَلَى مَا يَقُولُونَ، أَنَّ لَهَا فِي بُطُونِ الْأَنْهَارِ  
بَيوتاً.

## جِحْرَةُ الْوَحْشِ

وَرَأَيْتُ عَجَباً آخَرَ، وَهُوَ أَنِّي فِي طَوْلِ مَا دَخَلْتُ الْبَرَارِيَّ، وَدَخَلْتُ  
الْبُلْدَانَ، فِي صَحَارَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَالشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ وَغَيْرِ  
ذَلِكَ، مَا أَعْلَمُ أَنِّي رَأَيْتُ عَلَى لَقَمِ طَرِيقٍ أَوْ جَادَةٍ، أَوْ شَرَكٍ مُصَاقِبٍ  
ذَلِكَ أَوْ إِذَا جَانِبْتُ الطُّرُقَ، وَأَمَعْنْتُ فِي الْبَرَارِيَّ، وَضَرَبْتُ إِلَى الْمَوْضِعِ  
الْوَحْشِيِّ - جُحْرًا وَاحِدًا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَهُ ضَبٌّ أَوْ تَيْسٌ ظَبَاءً، أَوْ بَعْضُ  
هَذِهِ الْأَجْنَاسِ الْوَحْشِيَّةِ، وَمَا أَكْثَرَ مَا أَرَى الْجِحْرَةَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَرِ شَيْئاً  
يَتَسَعُّ لِلتُّعَلْبِ وَابْنِ آوَى، فَضلاً عَلَى هَذِهِ الْوَحُوشِ الْكِبَارِ مِمَّا هُوَ  
مَذْكُورٌ بِاللُّؤْلُجِ وَالْوِجَارِ، وَبِالْكِنَاسِ وَالْعَرِينِ.  
وَجُحْرُ الضَّبِّ يُسَمَّى عَرِيناً، وَهُوَ غَيْرُ الْعَرِينِ الَّذِي يُضَافُ إِلَى الشَّجَرِ.

## حِيلَةُ الضَّبِّ وَالْيَرْبُوعِ

وأما حفظ الحياة والبصر بالكسب، والاحتراس من العدو والاستعداد بالحيث، فكما أعدَّ الضبُّ واليربوع.

## أوقات اختفاء الفهد والأيل

والفهد إذا سِمنَ عَرَفَ أنه مطلوب، وأنَّ حركته قد ثقلت، فهو يُخفي نفسه بجهدته حتى ينقضِي ذلك الزمان الذي تسمن فيه الفهود، ويعلم أنَّ رائحة بدنه شهيةٌ إلى الأسد والنَّمر، وهو أطفُ شماً لأرايح السباع القويَّة من شَمِّ السباع للرائحة الشهية، فهي لا تكاد تكون إلاَّ على غلاوة الريح. والأيلُ ينضُّلُ قَرَنَه في كلِّ عام، فيصير كالآجم، فإذا كان ذلك الزمانُ استخفى وهربَ وكَمَن، فإذا نبت قرْنُه عَرَّضَهُ للريح والشَّمْسِ في الموضع الممتنع، ولا يظهرُ حتى يَصْلُبَ قرنه ويصيرَ سلاحاً يمتنع به، وقرْنُه مُصَمَّتٌ، وليس في جوفه تجويفٌ، ولا هو مصمَّتُ الأعلَى أجوف الأسفل.

## معرفة الإبل بما يضرها وما ينفعها

والبعير يدخل الرّوضة و الغيضة، وفي النبات ما هو غذاء، ومنه ما هو سُمُّ عليه خاصة، ومنه ما يخرج من الحالين جميعاً، ومن الغذاء ما يريدُه في حالٍ ولا يريدُه في حالٍ أخرى، كالحَمْضِ وَ الحَلَّة، ومنه

ما يغتذيه غير جنسه فهو لا يقربُه وإن كان ليس بقاتل ولا مُعْطِب، فمن تلك الأجناس ما يَعرفه برؤية العين دون الشمِّ، ومنها ما لا يَعرفه حتَّى يَشْمَه، وقد تَغْلِطُ في اليبش فتأكلُه، كصنع الحافر في الدُّقْلَى.

معرفة الإبل بالزجر والناقة تعرفُ قولهم: حل، والجمل يعرف قولهم: جاه، قال الراجز وهو يحمق رجلاً هجاه:

يقولُ للناقة قولاً للجملُ      يقولُ جاهٍ يثنيه بحلُ

### قدرة الحيوان على رفع اللبن وإرساله

ومما فضلت به السُّباعُ على بني آدم أن الله جعلَ في طباعِ إناثِ السباعِ والبهائم، من الوحشيَّة والأهليَّة، رَفَعَ اللَّبْنَ وإرساله عند حضور الولد، والمرأة لا تقدر أن تدرَّ على ولدها وترقَّع لبنها في صدرها إذا كان ذلك المُقَرَّبُ منها غيرُ ولدها. والذي أعطى الله البهائم من ذلك مثل ما تعرف به المعنى وتتوهَّمه. اعلم أن الله تعالى قد أقدر الإنسانَ على أن يحبس بولَه وغائطه إلى مقدارٍ، وأن يخرجهما، ما لم تكن هناك عِلَّةٌ من حُضْرٍ وأُسْرٍ، وإنما يخرج منه بولُه ورَجِيعه بالإرادة والتوجيه والتهيؤ لذلك، وقد جعل الله حبسَه وإخراجه وتأخيرَه وتقديمَه على ما فسَّرنا، فعلى هذا الطريق طوَّقُ إناثِ السُّباعِ والبهائم، في رَفْعِ اللَّبَنِ. حشر الحيوان في اليوم الآخر وقد قال الله جل ثناؤه: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ

فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي  
الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"، فالكلمة في الحشر  
مطلقة عامّة، ومرسلة غير مستثنى منها، فأوجب في عموم الخبر  
على الطَّيْرِ الْحَشْرَ، والطير أكثر الخلق، والحديث: إِنَّ أَكْثَرَ الْخَلْقِ  
الجراد.

### ما يطراً عليه الطيران

ومن العقارب طيَّارة قاتلة، وزعم صاحب المنطق أَنَّ بِالْحَبَشَةِ  
حِيَاةٍ لَهَا أَجْنَحَةٌ.  
وأشياء كثيرة تطير بعد أن لم تكن طيَّارة، مثل الدعاميص، والنَّمْلِ،  
والأَرْضِ حِيَاةٍ، والجعلان.  
والجرادُ تنتقل في حالاتٍ قبلَ نبات الأجنحة.  
جعفر الطيار قالوا: وحين عَظَّمَ اللَّهُ شَأْنَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،  
خلق له جناحين يطير بهما في الجنة، كأنه تعالى ألحَّقه بشبه  
الملائكة في بعض الوجوه.  
ما يطير ولا يسمى طيراً وذكر الله الملائكة فقال: "أُولِي أَجْنِحَةٍ  
مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ". ولا يقال للملائكة طير، ولا يقال إنها من الطَّيْرِ،

رفعاً لأقذارها.

ولا يقال للنمل والدعاميص والجعلان والأرضة إذا طارت: من الطير، كذلك لا يقال للجرجس والبغوض وأجناس الهمج إنها من الطير، وضماً لأقذارها عن أقذار ما يسمّى طيراً، فالملائكة تطير ولا يسمونها طيراً لرفع أقذارها عن الطير، والهمج يطير ولا يسمّى طيراً لوضعه أقذارها عن الطير.

ملائكة العرش وفي الرواية أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أنشد قول أمية بن أبي الصلت:

والتسرُّ للأخرى وليتُّ  
مُرْصِدٌ

رَجُلٌ وثورٌ تحت رِجْلِ  
يَمِينِهِ

فقال: صدق، وقوله نسر يعني في صورة نسر، لأنّ الملك لا يقال له تسرُّ ولا صفُّ ولا عُقابٌ ولا بازٍ. ما جاء فيه الأثر من الطير وذكروا غراب نوح، وحمامة نوح، وهدهد سليمان، والنحل والدراج، وما جاء من الأثر في ذلك السديك الذي يكون في السماء.

وقال الناس: غراب نوح، وهدهد سليمان، وحمامة نوح، ورووا في الخطاف والضرد.

أشرف الخيل والطير ولا نعرف شيئاً من الحيوان أشرف اسماً من الخيل والطير، لأنهم يقولون: فرس جواد، وفرس كريم، وفرس وسيم، وفرس عتيق، وفرس رائع.

وقالوا في الطير لذوات المخالب المعقفة، والمناسر المحدّبة: أحرار، ومضرجيات، وعناق؛ وكواسب، وجوارح، وقال لبيد بن ربيعة:

كعتيق الطير يُعْضِي وَيُجَلِّ

فانتصلنا وابن سلمى  
قاعدٌ

وقال الشاعر:

عَمَلِ الرَفِيقَةِ وَاسْتِلَابِ

حُرِّ صَعْنَاهُ لِتُحْسِنَ كُفَّهُ

## الأُحْرَقُ

ولولا أنا قد ذكرنا شأن الهدُّد والغراب والنمل وما ذكرها به القرآن، والخصال التي فيها من المعارف ومن القول والعمل، لذكرناه في هذا الموضوع.

ما جاء في ذكر الطير قال الله جل ثناؤه: "وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ"، وقال الله: "وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ نُخْرِجُ الْمُوتَىٰ بِإِذْنِي"، وقال: "وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"، وقال الله: "أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ"، وقال: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ"، وقال الله: "وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ". ولم يذكر منطق البهائم والسباع والهمج والحشرات. وقال الله: "فَأَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ"؛ لأنك حينما تجد المنطق

تَجَسَّدَ الرُّوحَ وَالْعَقْلَ وَالْإِسْمَ تَطَاعَةً.  
وقالوا: الإنسان هو الحيُّ الناطقُ، وقال اللهُ: "فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا  
جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى"، وقال: "أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ  
لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا"، ثم قال: "وَخَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ" ولم يذكر شيئاً من جميع الخلق، وقد كان اللهُ سَحَّرَ  
له جميعَ ذلك، ثم قال: "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ  
كَانَ مِنَ الْعَائِبِينَ".  
ولم يتفق شيئاً ممَّا سَحَّرَ له، ولا دلَّ سليمانَ على مَلِكَةٍ سَبَأَ إِلَّا  
طَائِرٌ. وقال اللهُ: "وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ  
الطَّيْرُ"، وقال اللهُ: "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ  
تَسْبِيحَهُمْ"، فلما ذكر داود قال: "وَسَحَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ  
وَالطَّيْرَ"، وقال اللهُ: "يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَآيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ  
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، وقال: "وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا  
أَنْطَقْنَا لِلَّهِ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ".  
وقالوا: مَنْطِقُ الطير، على التشبيه بمنطق الناس، ثم قالوا بعدُ:  
الصَّامِتُ وَالنَّاطِقُ، ثم قالوا بعد للدار: تنطق.  
وقال اللهُ: "يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا

تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ".  
وقال الله: "وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ".  
وكان عبدُ الله بن عباسٍ يقول: ليس يعني بقوله: "تُكَلِّمُهُمْ" من الكلام، وإنما هو من الكَلَم والجِرَاح، وجمع الكَلَم كَلُوم، ولم يكن يجعله من المنطق، بل يجعله من الخُطوط والوسم، كالكتاب والعلامة اللذين يقومان مقام الكلام والمنطق.  
وقال الآخرون: لا ندعُ ظاهرَ اللفظ والعادة الدالة في ظاهر الكلام، إلى المجازات، قالوا: فقد ذكر الله الدابة بالمنطق، كما ذكروا في الحديث كلام الذئب لأهبان بن أوس، وقولُ الهدهد مسطورٌ في الكتاب بأطول الأفاصيص، وكذلك شأن الغراب.  
وقال الله: "وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وجعل الله مقالة النملة قرآناً، وقال: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّتَالِكُمْ مَا قَرَّرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ"، وقال في مكان آخر: "وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ"، وقال: "وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَابٌ"، وذكر الملائكة فقال: "أُولِي

أَجْنَحًا مَثْنًا مَثْنًا وَثَلَاثَ وَرَبَاعًا.

وأنشدوا النبي صلى الله عليه وسلم قول أمية بن أبي الصلت:

رَجُلٌ وَتَوَّرُ تَحْتَ رِجْلِ  
يَمِينِهِ  
وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى وَلَيْتُ  
مَرَّصَدُ

فقَالَ: صَدَقَ.

وخلق الله لجعفر جناحين في الجنة، عوضاً من يديه المقطوعتين في سبيل الله، قالوا: ولو كانت في الأرض يذُ تفضل الجناح لجعلها الله بدل الجناح، وسمّاه المسلمون الطيّار. ويقال: ما هو إلا طائر، إذا أرادوا مديح الإنسان في السرعة، وقال الفرزدق:

جَاؤُوا مَعَ الرِّيحِ أَوْ طَارُوا  
بِأَجْنَحَةٍ  
وَخَلَّفُوا فِي جُؤَاتَا سَيِّدِي  
مُصْرًا

والأمم كلها تضرب المثل بعنقاء مغرب، وقد جاء في نسر لقمان ما قد جاء من الآثار والأخبار، وقال الخزرجي:

إِنَّ مُعَاذَ بْنَ مُسْلِمٍ  
رَجُلٌ  
قَدْ شَابَ رَأْسُ الزَّمَانِ  
وَاحْتَصَبَ ال  
يَا نَسْرَ لِقْمَانَ كَمْ تَعِيشُ  
وَكَمْ  
قَدْ أَصْبَحْتَ دَارَ آدَمٍ  
خَرِبَتْ  
تَسْأَلُ غِرْبَاتَهَا إِذَا  
حَجَلَتْ  
قَدْ ضَجَّ مِنْ طُولِ عُمُرِهِ  
الْأَبْدُ  
دَهْرٌ وَأَثْوَابُ عَمْرِهِ جُدُّ  
تَسْحَبُ دَيْلَ الْحَيَاةِ يَا  
لَبْدُ  
وَأَنْتَ فِيهَا كَأَنَّكَ الْوَتْدُ  
كَيْفَ يَكُونُ الصُّدَاغُ وَ  
الرَّمْدُ

وقال النابغة:

أَصَحَّتْ خَلَاءً وَأَصْحَى أَهْلُهَا  
اجْتَمَلُوا  
أَخْتَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى  
عَلَى لَبْدٍ

وقال الله: "وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا" لأن ذلك الصنم كان على

صورة النسر.

وقالوا: أحرار فارس، وأحرار الرّياحين، وأحرار البقول، وأحرار الطير، وهي الأحرار، والعتاق، والكواسب، والجوارح، والمضرجيات. بعض ما قيل في العقل وقيل لرجل من الحكماء: متى عقلت؟ قال: ساعة وُلِدْتُ، فلما رأى إنكارهم لكلامه قال: أمّا أنا فقد بكيت حين خُفْتُ، وطلبت الأكل حين جُعْتُ، وطلبت التّدَى حين احتجّت، وسكْتُ حين أُعْطيت، يقول هذه مقادير حاجاتي، ومن عَرَفَ مقادير حاجاته إذا مُنِعَها، وإذا أُعْطِيَها، فلا حاجة به في ذلك الوقت إلى أكثر من ذلك العقل، ولذلك قال الأعرابي:

سَقَى اللّهُ أَرْضاً يَعْلَمُ  
الصَّبُّ أَنَّهَا  
بَنِي بَيْتِهِ مِنْهَا عَلَى رَأْسِ  
كُدْيَةٍ  
بَعِيدٌ مِنَ الْآفَاتِ طَيْبُهُ  
الْبَقْلُ  
وَكُلُّ أَمْرِي فِي حِرْفَةِ  
الْعَيْشِ دُونَ عَقْلِ

منطق الطير وعقله فإن قال قائل: ليس هذا بمنطق، قيل له: أما القرآن فقد نطق بأه منطوق، والأشعار قد جعلته منطوقاً، وكذلك كلام العرب، فإن كنت إنما أخرجته من حدّ البيان، وزعمت أنه ليس بمنطوق لأنك لم تفهم عنه، فأنت أيضاً لا تفهم كلام عامّة الأمم؛ وأنت إن سميت كلامهم رطانةً وطمطممةً فإنك لا تمنع من أن تزعم أن ذلك كلامهم ومنطقهم، وعامّة الأمم أيضاً لا يفهمون كلامك ومنطقك، فجائز لهم أن يُخرجوا كلامك من البيان والمنطق، وهل صار ذلك الكلام منهم بياناً ومنطقاً إلا لتفاهمهم حاجة بعضهم إلى بعض، ولأنّ ذلك كان صوتاً مؤلّفاً خرج من لسانٍ وفمٍ، فهلاً كانت أصوات أجناس الطير والوحش والبهائم بياناً ومنطقاً إذ قد علمت أنها مقطعة مصوّرة، ومؤلفة منظمة، وبها تفاهموا الحاجات، وخرجت من فمٍ ولسان، فإن كنت لا تفهم من ذلك إلا البعض، فكذلك تلك الأجناس لا تفهم من كلامك إلا البعض. وتلك الأقدار من الأصوات المؤلفة هي نهاية حاجتها والبيان عنها، وكذلك أصواتك المؤلفة هي نهاية

حاجاتك وبيانك عنها، وعلى أنك قد تعلم الطير الأصوات فتعلم، وكذلك يعلم الإنسان الكلام فيتكلم،  
 كتعليم الصبي والأعمى، والفرق بين الإنسان والطيور أن ذلك المعنى معنى يسمى منطقاً وكلاماً  
 على التشبيه بالناس، وعلى السبب الذي يجري، والناس ذلك لهم على كل حال.  
 وكذلك قال الشاعر الذي وصفها بالعقل، وإنما قال ذلك على التشبيه، فليس للشاعر إطلاق هذا  
 الكلام لها، وليس لك أن تمنعها ذلك من كل جهة وفي كل حال، فافهم فهمك الله، فإن الله قد أمرك  
 بالتفكير والاعتبار، وبالاعتراض والاعتراض. **والتعريف والاعتراض.**  
 وقد قال الله عز وجل مخيراً عن سليمان: "يا أيها الناس علمنا منطق الطير" فجعل ذلك منطقاً،  
 وخص الله سليمان بأن فهمه معاني ذلك المنطق، وأقامه فيه مقام الطير؛ وكذلك لو قال علمنا  
 منطق البهائم والسباع، لكان ذلك آية وعلامة.  
 وقد علم الله إسماعيل منطق العرب بعد أن كان ابن أربع عشرة سنة، فلما كان ذلك على غير  
 التلقين والتأديب والاعتقاد والترتيب والمنشأ، صار ذلك برهاناً ودلالةً وأجوبةً وآية.  
 وقال ابن عباس - وذكر عمر بن الخطاب فقال -: كان كالمطائر الحذر؛ فشبهه عزم عمر وتخوفه من  
 الخطأ، وحذره من الخُذوع بالطائر.  
 ما قيل في تجاوب الأصداء والديكة وقال ابن مقبل:

فلا أقوم على المولى  
 فأشتمه  
 ولا يخرقه نابي ولا ظفري  
 إذا تجاوبت الأصداء  
 بالسحر

فجعلها تتجاوب، وقال الطرمح بن حكيم - وذكر تجاوب الديكة كما ذكر ابن مقبل تجاوب الأصداء -  
 فقال:

فيا صبح كمش عبّر الليل  
 مُصعداً  
 إذا صاح لم يُخذل وجاوب  
 صوتهُ  
 بيم ونبه ذا العفاء  
 الموشح  
 جماش السوى يصدحن من  
 كل مصدح

ما قيل في ضبحة الثعلب وقبعة القنفذ والقرنبي وحدث أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال:  
 خطب ابن الزبير خطبة فاعترض له رجل فأذاه بكلمة، ثم طأطأ الرجل رأسه، فقال ابن الزبير: أين  
 المتكلم؟ فلم يجبه فقال: قاتله الله، ضبح صبحة الثعلب وقبعة القنفذ، وقال ابن مقبل:

ولا أَتْبَعُ الجاراتِ باللَّيْلِ  
قابِعاً

قُبُوعَ القَرَبِيِّ أَخْلَقْتُهُ  
مِجَاعِرُهُ

ما جاء في الشعر من إحساس الطير..

## وغير ذلك من الحيوان

قال أبو عبيدة: تسلح الحبارى على الصقر، وذلك من أحد سلاحها، وهي تعلم أنها تدبّق جناحيه وتكتفه، حتى تجتمع عليه الحباريات فينتفن ريشه طاقةً طاقةً، فيموت الصقر. والحبارى إذا تحسّرت فأبطأ نبت ريشها، وهي لا تنهض بالشكير، فربّما طار صوبحباتها إذا تقدّم نبت ريشها قيل نبت ريش تلك الحبارى، فعند ذلك تكمد حزناً حتى تموت كمداً؛ ولذلك قال أبو الأسود الدؤلي:

زَيْدٌ مَيِّتٌ كَمَدَ الحُبَّارِي إِذَا ظَعَنْتُ مَلِيحَةً أَوْ تُلْمٌ  
وليس في الطير أسرع طيراناً منها، لأنها تصاد عندنا بظهر البصرة، فيوجد في حواصلها حبة الخضراء غصّة طريّة، وبينها وبين مواضع ذلك الحب بلادٌ وبلاد، ولذلك قال بشر بن مروان، في قتل عبد الملك عمرو بن سعيد:

كأنّ بني مروان إذ يقتلونهم  
بُعْثَاتُ الطَّيْرِ ضَعافُ الطَّيْرِ وَسَفِلَتْهَا مِنَ العِظامِ الأبدانِ، والخشاش مثل ذلك إلا أنها من صغار الطير، وأنشد أبو عبيدة قول الشاعر:

بأندلسٍ وأندلسٍ بعيدُ  
أصابَ جناحَهُ عنتٌ شديدُ  
وكانت عن عقيرته تحيدُ

سألتُ النَّاسَ عن أنسٍ  
فقالوا  
كأني بعد سكن مَصرِحِي  
فقد طمعت عِناقُ الطَّيْرِ  
فيه  
وقال الذّكواني:

وكلّ مكبّدٍ منها لهيدٍ

بِقَاتِ الطَّيْرِ تعرفُ قانِصِيها

يقول: لكل جنس من الجوارح ضرب من الصيد، وضرب من الطلب، فالمصيد منها يعرف ذكر، فيجعل المهرب من الآخر، ثم ذلك أنها تعرف الصائد المعتل من الصحيح، وهو معنى الخريمي حيث يقول:

ويعلم أقدار الجوارح  
والبُعْثِ

ويعلم ما يأتي وإن كان  
طائراً

وقوله البُعْث يريد به جمع أبغث، وقال الأَوَّل:

وأمُّ البازِ مِقْلَاتٌ تَرُورُ

بُغَاثِ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فَرُوحاً

وأنشدني ابن يسير:

كذاك جميع الناس في  
الجَدِّ والطلبِ

بالجدِّ طوراً ثم بالجدِّ  
تارة

والجدُّ مفتوح الجيم، يقول: الطير كالناس، فمَرَّة تصيد بالخطِّ وبما يتفق لها، ومَرَّةً بالحيلة والطلب،

وقال بشر بن بَرْد:

وبجدِّه يتقلبُ العصفور

قال: وقال زاهر لصبيانه: يرزقكم الذي يرزق عصفير الدو، وقال صالح المُرِّي: تغدو الطيورُ خماصاً وتروخُ شباعاً، واثقة بأن لها في كل غدوة رزقاً لا يفوتها، والذي تُفسي بيده أن لو غدوتم على أسواقكم على مثل إخلاصها، لرحتم وبطونكم أبطن من بطون الحوامل. وقال أعشى همدان:

أين الدَّراهم عَنَّا والدَّنانيرُ

قالت تعاتبني عرسي

وتسألني

والدَّهر ذو مرَّةٍ عسرُ

فقلت أنفقها والله

وميسورُ

يُخْلِفُهَا

من قبلهم في مراعيتها

إن يرزق الله أعدائي فقد

الخنزيرُ

رُزِقْتُ

وما لَدَيْكَ من الخبرات

قالت: فرزقك رزق غيرُ

قِطْمِيرُ

مَنَسَع

يوماً فيوماً كما تحيا

وقد رضيت بأن تحيا على

العصافير

رَمَقِي

وإنما خصَّ العصافير بقلَّة الرِّزق، لأنها لا تتباعد في طلب الطعم؛ وإلا فإنَّ السَّبَاعَ ووحشَ الطَّير كُلَّها  
تغــدو وخباصــاً وتــروح بطانــاً.

وقال لبيد:

فإنَّ تسألينا فيم نحنُ  
فإننا  
عصافيرُ من هذا الأنامِ  
المُسحَّرِ

وقال:

عصافيرُ وذَبَّانُ ودودُ  
وأجرأُ من مجلحة الذئبِ  
ولولا أنَّ تفسير هذا قد مرَّ في باب القول في العصافير في كتاب  
الحيوان لقلنا في ذلك.

## اختلاف طبائع الحيوان وما يعترئها من الأخلاق

الذئب لا يطمع فيه صاحبه، فإذا دَمِيَ وثب عليه صاحبه فأكله، وإذا  
عضَّ الذئبُ شاةً فأفلتت منه بضرب من الضروب، فإنَّ عادة الغنم إذا  
وجدت ریحَ الدَّم أن تشمَّ موضع أنياب الذئب، وليس عندها عند ذلك  
إلا أن ينضمَّ بعضها إلى بعض؛ ولذلك قال جريرٌ لعمر بن لجا التيمي:

فلا يضغمنَّ الليثُ تيماً  
وتيمٌ يشمُّونَ القريسَ  
بغرةً  
المتيباً

فذكر أنهم كالغنم في العجز والجبن، وإذا دَمِيَ الحمارُ ألقى نفسه  
إلى الأرض وامتنع ممن يريدُه بالعضِّ وبكلِّ ما قدر عليه، غير أنه لا  
ينهض ولا يبرحُ مكاته، وإذا أصاب الأسدَ حَدْش أو شَحْطَة بعد أن  
يدمى مكاته فإنَّ ذَبَّان الأسد تلحُّ عليه، ولا تُقلع عنه أبداً حتى تقتله.  
وللأسود ذَبَّانٌ على حدة، وكذلك الكلاب، وكذلك الحمير، وكذلك  
الإبل، وكذلك النمل.

وَإِذَا دَمِيَ الْإِنْسَانُ وَشَمَّ الذُّبُّ مِنْهُ رِيحَ الدَّمِّ فَمَا أَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُ؛  
وَإِنْ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ بَدَنًا وَقَلْبًا، وَأَتَمَّهُمْ سِلَاحًا، وَأَثَقَهُمْ ثِقَافَةً.  
وَإِذَا دَمِيَ الْبَيْرُ اسْتَكَلَبَ فَخَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَسَالِمُهُ مِنْ كِبَارِ السَّبَاعِ  
كَالْأَسْوَدِ وَالنُّمُورِ، وَالْبَبْرِ عَلَى خِلَافِ جَمِيعِ مَا حَكِينَا.  
وَإِذَا أَصَابَ الْحَيَّةَ خَدَشٌ فَإِنَّ الذَّرَّ يَطَالِبُهُ أَشَدَّ الطَّلَبِ، فَلَا يَكَادُ يَنْجُو،  
وَلَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْقَرْطِ.  
وَإِذَا عَضَّ الْإِنْسَانَ الْكَلْبُ الْكَلِيبُ فَإِنَّ الْفَأْرَ يَطَالِبُهُ لِيَبُولَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ  
هَلَكَتُهُ، فَهُوَ يَحْتَمِلُ لِهَذَا بِكُلِّ حِيلَةٍ.  
وَرَبَّمَا أَعَدَّ الْبَعِيرَ فَلَا يَعْرِفُ ذَلِكَ الْجَمَّالُ حَتَّى يَرَى الْمَدْبَانَ يَطَالِبُهُ.  
وَإِذَا وَضَعَتِ الذَّبَّةُ جَرَّوَهَا فَإِنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ مَلْتَرِقَ الْأَعْضَاءِ أَمْعَطًا كَأَنَّهُ  
قِطْعَةٌ لَحْمٍ، وَتَعْلَمُ الذَّبَّةُ أَنَّ الذَّرَّ يَطَالِبُهُ، فَلَا تَزَالُ رَافِعَةً لَهُ بِيَدَيْهَا،  
وَمَحْوَلَةً لَهُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، حَتَّى تَفْرَجَ الْأَعْضَاءَ، وَيَشْتَدَّ اللَّحْمُ.  
وَإِذَا وَضَعَتِ الْهَرَّةُ جَرَّوَهَا فَإِنَّ طَرَحُوا لَهَا لَحْمًا مِنْ سَاعَتِهَا أَوْ رُوبَةً أَوْ  
بَعْضَ مَا يَشْبَهُ ذَلِكَ فَأَكَلَتْهُ، لَمْ تَكُدْ تَأْكُلُ أَجْرَاءَهَا، لِأَنَّ الْهَرَّةَ يَعْتَرِيهَا  
عِنْدَ ذَلِكَ جُوعٌ وَجُنُونٌ وَخَفَّةٌ.  
وَالْأَجْنَاسُ الَّتِي تَحْدُثُ لَهَا قُوَّةٌ عَلَى غَيْرِ سَبَبٍ يَعْرِفُ فِي تَقْدِيرِ الرَّأْيِ  
مِنْهَا الذَّبُّ الضَّعِيفُ الْمَوَاطِبُ عَلَى الذَّبِّ الْقَوِيِّ إِذَا رَأَى عَلَيْهِ دَمًا،

والهَرَّةُ إِذَا سَفِدَهَا الهَرُّ، فَإِنهَا عِنْدَ ذَلِكَ تَشُدُّ عَلَيْهِ وَهِيَ وَاثِقَةٌ  
بِاسْتِخْدَائِهِ لَهَا، وَفَضْلُ قَوَّتِهَا عَلَيْهِ، وَالجُرْدُ إِذَا خَصِيَ فَإِنَّهُ يَأْكُلُ  
الجُرْدَانَ أَكْلًا ذَرِيعًا وَلَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ مِنْهَا.  
فَأَمَّا الفِيلُ وَالكَرْكَدَنُ وَالجَمَلُ، عِنْدَ الاغْتِلَامِ وَطَلَبِ الصَّرَابِ، فَإِنهَا  
وَإِنْ تَرَكْتَ الشُّرْبَ وَالْأَكْلَ الْإِيَّامَ الْكَثِيرَةَ فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ لِشَيْءٍ مِنْهَا  
شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْجِنْسِ وَإِنْ كَانَ قَوِيًّا شَابًا أَكْلًا شَارِبًا.  
وَأَمَّا الْغَيْرَانُ وَالْعَضْبَانُ وَالسَّكْرَانُ وَالْمُعَايِنُ لِلْحَرْبِ، فَهَمَّ يَخْتَلِفُونَ  
فِي ذَلِكَ عَلَى عَلِيٍّ قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْقَوْلِ فِي فَضِيلَةِ الْمَلِكِ عَلَى  
الْإِنْسَانِ، وَالْإِنْسَانِ عَلَى الْجَانِّ، فَإِنْ أَرَدْتَهُ فَالْتَمِسْهُ هُنَاكَ، فَإِنَّ إِعَادَةَ  
الْأَحَادِيثِ الطَّوَالِ وَالْكَلَامِ الْكَثِيرِ مِمَّا يُهْجَرُ فِي السَّمَاعِ، وَيُهْجَنُ  
الْكَتَبِ.

### ما يستدل به في شأن الحيوان على حسن صنع الله

وَإِحْكَامِ تَدْبِيرِهِ، وَأَنَّ الْأُمُورَ مُوزَوْنَةً مُقَدَّرَةً، قَالُوا: الْأَشْيَاءُ الْبَيَّاضَةُ  
طَائِرٌ، وَمَشْتَرِكٌ، وَذُو أَرْبَعٍ، وَمُنْسَاحٌ، فَمِنْهَا مَا يَبْيِضُ فِي صُدُوعِ الصَّخْرِ  
وَأَعَالِي الْهَضَابِ، وَمِنْهَا مَا يَعِيشُ فِي الْجِجَرَةِ كَسَائِرِ الْحَيَاتِ.  
وَأَمَّا الدَّسَّاسُ مِنْهَا فَإِنَّهَا تَلِدُ وَلَا تَبْيِضُ، وَهِيَ لَا تُرْضِعُ وَلَا تُلْقِمُ،

والخَفَّاش تَلْد ولا تبيض وترضع، وهذا مختلف.  
والدَّجَاج والحَجَل والقَطَا وأشباه ذلك من الدَّرَاجِج وغيرها أفاحيضها  
ف\_\_\_\_\_ في الأرض.

والحمام منها طُورائِي جبَلِيّ، ومنها أَلوفُ أهليّ، فالجبليّ تبيض في  
أوكارٍ لها في عُرْض مقاطع الجبال، والأهليّ منها يبيض في البيوت،  
والعصافير بيوتها في أصول أجذاع السُّفُف، والخطاطيف تتخذ بيوتها،  
في باطن السقف في أوثق ذلك وأمنّعه، والرَّحَم لا ترصّي من الجبال  
إلا بالوحشيّ منها، ومن البعيد في أسحقها وأبعدها عن مواضع  
أعدائها، ثم من الجبال إلا في رؤوس هضابها، ثم من الهضاب إلا في  
صدوع صخورها، ولذلك يُضرب بامتناع بيضها المثل.  
وأما الرِّقّ والصفدع والسُّلْحَفَاة والتمساح، وهذه الدوابّ المائية،  
فإنها تبيض في الأرض وتحضن، وأمّا السَّرَاطِين فإنّ لها بيوتاً في  
عُرْض سُطوط الأنهار والسُّواقِي، تمتلئ مرةً ماءً وتخلو مرةً.  
ومن الحيوان ما لا يجثم، كالضبّة فإنها لا تجثم على بيضها، ولكن  
تغطّيها بالتراب وتنتظر أيام انصداعها.

## مواضع الفراخ والبيض

فإذا كان مواضع الفِراخ والبيض من القطا وأشباه القطا فهو أفحوصة، وإذا كان من الطير الذي يهیی ذلك المجتم من العیدان والریش والحشیش فهو عُشٌّ، وإذا كان من الظلیم فهو أُدجِی، ذکر ذلك أبو عبیدة والأصمعی، وكلُّها وُكور ووكون، ووُكنات ووُكرات.

## أكثر الحيوان بيضاً وأقله

فالذي يبيض الكثير من البيض الذي لا يجوزه شيء في الكثرة السمك، ثم الجراد، ثم العقارب، ثم الصبّة، لأن السمك لا تزق ولا تلقم ولا تلجم ولا تحضن ولا تُرضع، فحين كانت كذلك كثر الله تعالى ذرّتها وعددها نسليها، فكان ذلك على خلاف شأن الحمام الذي يُزاج أصناف الحمام ومثل العصافير والنّعَام، فإنها لا تزاج. فأما الحمام فلما جعله الله يزق ويحضن، ويحتاج إلى ما يغذيه ويغذو به ولده، ويحتاج إلى الرزق، وهو ضرب من القياء، وفيه عليها وهنّ وشدة، ولذلك لا يُرَجَل إذا كان زاقاً، فلما أن كان كذلك لم يحمل عليها أكثر من فرخين وبيضتين. ولما كانت الدجاجة تحضن ولا تزق، وهي تأكل الحبّ وكلّ ما دبّ ودرج، زاد الله في بيضها، وعدد فراريها، ولم يجعل ذلك في عدد أولاد السمك والعقارب والصباب التي لا تحضن البتة ولا تزق ولا تُلقم. ولما جعل الله أولاد الصب لها معاشاً، زاد في عدد بيضها وفراخها، وصار ما يسلم كثيراً غير متجاوز للحد. وكذلك الظلیم، لما كان لا يزق ولا يحضن اتسع عليه مطلب الرزق من الحبوب وأصول الشجر. وجعلها تبيض ثلاثين بيضة وأكثر، وقال ذو الرمة:

أبو ثلاثين أمسى فهو  
منقلب

أذاك أم خاضب بالسبي  
مرتعته

وبيضها كباراً، وليس في طاقتها أن تشتمل وتجتثم إلا على القليل منها، وكذلك الحيّة تضع ثلاثين بيضةً، ولها ثلاثون ضِلْعاً، وبيضها وأضلاعها عدد أيام الشَّهر، ولذلك قويت أصلابها لكثرة عدد الأضلاع، وحمل عليها في الحضان بعض الحمل إذ كانت لا ترضع.

### أثر الإلقام والزق في الحيوان

والطائر الذي يُلقم فرخه يكون أقوى من الطائر الزاق، وكذلك من البهائم المرضية. ولما كانت العصافير تصيد الجراد والنمل والأرصة إذا طارت، وتأكل الحَبَّ واللَّحْمَ، وكانت مع هذا تُلقم، لم تكثر من البيض كتكثير الدجاج ولم تقلل كتقليل الحمام.

### ما يزواج من الحيوان

وللعصافير فيها زِوَاجٌ، وكذلك النِّعَامُ، وليس في شيء من ذوات الأربع زِوَاجٌ، وإنما الزِّوَاجُ في اللاتي تمشي على رِجْلين، كالإنسان والطَّيْرُ والنِّعَامُ، وليس هو في الطير بالعام، وهو في الحمام وأصناف الحمام من هذه المغنيات والنوائح عامٌّ، وسبيل الحجل والقَبَجُ سبيلٌ

الدَّيْكُ وَالسَّيْبَةُ وَالسَّجَّاجُ.

والدَّجاجة تمكّن كلَّ ديكٍ، والدَّيْكُ يثبُّ على كلِّ دجاجة، وربّما غير الحمام الذَّكَرَ حيّاته كلّها لا يقمط غير أنثاه، وكذلك الأنثى لا تدعو إلا زوجها، وربّما أمكنت غيره، وفي الحمام في هذا الباب من الاختلاف ما في النسساء والرجال. فأما الشُّفنين فإنّه لا يقمط غير أنثاه، وإن هلكت الأنثى لم يزاوج أبداً، وكذلك الأنثى للذكر.

## عجائب البيض

فأمّا العلة في وضع القطا بيضها أفراداً، وخروج البضة من جهة أوسع الرّأسين، واستدارة بيض الرّوق، واستطالة بيض الحيات، وما يكون منها أرقطاً وأخضر وأصفر وأبيض وأكدر وأسود، فإنّي لم أرى لهم في ذلك جواباً فأحكيه لكم. معارف في البيض قالوا: وإنما يعظم البيض على قدر جنة البياضة، وبيض الأبقار أصغر، فأما كثرة العدد فقالوا إنه كلما كان أكثر سفاداً كان أكثر عدداً، وليس الأمر كذلك، لأنّ العصفور أكثر سفاداً من أجناس كثيرة هي أقل بيضاً منه. والجراد والسّمك لا حضن ولا روق ولا رضاع ولا تلقيم عليهن، فحين جعل الفراخ كثيرة العدد، وكانت الأمّهات والآباء عاجزة عنها، لم يجعلها محتاجة إلى الأمّهات والآباء. فتفهّم هذا التديب اللطيف، والحكمة البالغة. أقل الحيوان نسلاً وأكثره قالوا: والأقل في ذلك البازي، والأكثر في ذلك الدّر والسّمك. قال الشاعر:

وأمُّ البازِ مِفْلَاطٌ تَزُورُ

بِغَاثِ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فُرُوحاً

وقال صاحب المنطق: نسل الأسد أقلُّ لأنه يَجْرَحُ الرحم فيُعْقَم.  
قالوا: والفيلة تضعُ في سبع سنين، وأقلُّ الخلق عدداً ودزءاً  
الكركدن، لأنَّ الأنثى تكون تَرْوراً، وأيامُ حملها كثيرة جدًّا، وهي من  
الحيوان الذي لا يلد إلاً واحداً، وكذلك عظامُ الحيوان، وهي مع ذلك  
تأكل أولادها، ولا يكاد يسلم منها إلاً القليل، لأنَّ الولد يخرجُ سويًّا  
نابت الأسنانِ والقرنِ، شديد الحافر.

### ما جاء في الفيلة

من عجب التركيب، وغريب التأليف، والمعارف الصحيحة،  
والأحاسيس اللطيفة، وفي قبولها الثقيف والتأديب، وسرعتها إلى  
التلقين والتقويم، وما في أبدانها من أعضاء الكريمة، والأجزاء  
الشريفة.

### بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد  
خاصّة وعلى أنبيائه عامّة، ونسأله التأييد والعصمة، ونعوذ به من كلِّ  
سبب جانتب الطاعة، ودعا إلى المعصية، إنه قريبٌ مجيب، فعّالٌ لما

يريد

قد قلنا في أول هذا الجزء، وهو الجزء السابع، من القول في الحيوان في إحساس أجناسها المَجْعولة فيها، وفي معارفها المطبوعة عليها، وفي أعاجيب ما رُكِّبَتْ عليه من الدَّفْع عن أنفُسها، والتقدُّم فيما يُحييها وفي تحسُّسها عواقبَ أمورها وكلِّ ما خوّفت من حوادث المكروه عليها بقدر ما ينوبها من الآفات، ويعتريها من الحادِثات وأنها تدرك ذلك بالطَّبع من غير رَوِيَّة، وبحسِّ النَّفس من غير فكرة، ليعتبر مُعْتَبِرٌ، ويفكرُ مفكِّرٌ، ولينفي عن نفسه العُجب، ويعرف مقداره من العجز، ونهاية قوّته، ومبلغ نفاذِ بصره، وأنه مخلوق مدبّر ومصرّف وميسّر، وأنَّ الأعجمَ من أجناس الحيوان، والأخرسَ من تلك الأشكال، يبلغ في تدبير معيشتها، ومصلحة شأنه، وفي كلِّ ما هو بسبيله، ما لا يبلغه ذو الرَوِيَّة التامَّة، والمنطقِ البليغِ، وأنَّ منها ما يكون ألطفَ مدخلاً، وأدقَّ مسلكاً، وأصنَعَ كفاً، وأجودَ حنجره، وأطبعَ على الأصوات الموزونة، وأقومَ في حفظ ما يُعيشه طريقةً، إلَّا أنَّ ذلك منها مفرَّق غيرُ مجموع، ومنقطٌ — غيٌّ — ر — منظر — وم.

والإنسان ذو العقل والاستطاعة، والتصرُّف والروِيَّة، إذا علم علماً

غامضاً، وأدركَ معنَى خفياً، لم يَكْدُ يمتنع عليه ما دونه إذا قاس  
بعض أُمُـرِهِ عَلَى بعض. بعض  
وأجناس الحيوانِ قد يَعْلَمُ بعضُها علماً، ويصنع بكفِّه صنعةً يفوقُ بها  
الناس، ولا يهتدي إلى ما هو دون ذلك بطبيعٍ ولا رويّة، وعلى أن  
الذي عجز عنه في تقدير العقول دون الذي قَدَرَ عليه.  
وأنا ذاكرٌ إن شاء الله، ما جاء في الفيلة من عجيب التركيب،  
وغريب التأليف، والمعارف الصّحيحة، والأحاسيس اللطيفة، وفي  
قبولها التثقيف والتأديب، وسرعتها إلى التلقين والتّقويم، وما في  
أبدانها من الأعضاء الكريمة، والأجزاء الشريفة، وكم مقدارُ منافعها،  
ومبلغُ مضارّها، وبكم فضلتُ أجناسَ الحيوان، وفاقتُ تلكَ الأجناسَ.  
وما جعل الله تعالى فيها من الآيات والبرهانات، والعلامات النيرّات،  
التي جلاها لُعيون خلقه وعرّف بينها وبين عُقول عباده، وقيدّها  
عليهم، وحفظّها لهم ليكثر لهم من الأدلة، ويزيدهم في وضوح  
الحُجّة، ويسخرهم لتمام النعمة، والذي ذكرها الله به في الكتاب  
الناطق، والخبر الصادق، وما في الآثار المعروفة، والأمثال  
المضروبة، والتجارب الصّحيحة.  
وما قالت فيها الشعراء، ونطقَتْ به الخطباء، وميَّزته العلماء،

وعجبت منه الحكماء، وحالها عند الملوك وموضع نفعها في الحروب، ومهابتها في العيون، وجلالتها في الصدور، وفي طول أعمارها، وقوة أبدانها، وفي اعتزامها وتصميمها، وأخقادها، وشدة اكتراثها، وطلبها بطوائفها، وارتفاعها عن ملك السُّقَّاط والحشوة، وعن اقتناء الأندال والسِّفلة، وعن ارتخاسها في الثمن وارتباطها على الحسْف، وابتذالها وإذالتها، وعن امتناع طبائعها، وتمنُّع غرائزها أن تَصْلَحَ أبدانها، وتَنْبُتَ أنيابها، وتعظَّم جوارحها، وتتسافد وتتلاقح إلا في معادنها وبلادها، وفي منابتها ومغارس أعراقها، مع التماس الملوك ذلك منها، حتى أعجزت الجبل، وخرجت من حدِّ الطَّمَعِ، وعن الإخبار عن حملها ووضعها، ومواضع أعضائها، والذي خالفت فيه الأشكال الأربعة التي تُحيط بالجميع مما ينساح أو يعوم، أو يمشي أو يطير، وجميع ما ينتقل عن أولية خلقه، وما يبقى على الطبائع الأول من صورته وعمَّا يتنازعه من شبه الحيوان، أو ما يخالف فيه جميع الحيوان، وعن القول في شدة قلبه وأسره، وفي جراته، على ما هو أعظم بدناً وأشدُّ كلباً، وأحدُّ أظفاراً، وأدربُ أنياباً، وهربه ممَّا هو أصغرُّ منه جِزْماً وأكلُّ حدًّا، وأضعفُ أسراً، وأخملُ ذكراً.

وعن الإخبار عن خصاله المذمومة، وأموره المحموده وعن القول في لونه وجِلده وشعره، ولحمه وشحمه وعظمه، وبؤله وتَجْوِه، وعن لسانه وفمه، وعن أذنه وعينه، وعن خرطومه وعُرموله، وعن مَقَاتِلِه وموضع سلاحه، وعن أدوائه ودوائه، وعن القول في أنيابه وسائر أسنانه، وسائر عظامه، وفرق ما بين عظامه وعظام غيره، وعن مَوَاضِع عجزه وقوِّته، والقَوْل في ألبانها وضروعها، وعدد أخلافها وأماكن ذلك منها، وعن سياحتها ومشئها وحُضْرها وسرعتها، وخِفَّة وطئها ولين ظهورها، وإلذاذ راكبها، وعن ثبات حُفَّها في الوَحْل والرَّمْل، وفي الحَدْر والصَّعْداء، وعن أَمْن راكبها من العِثَار. وكيف حالها عند احتياجها واغْتلامِها، وعن سكونها وانقضاء هَيْجَانِها عند حملها، وعن طَرَبِها وطاعتها لسوَّاسِها، وفهْمِها لما يُراد منها، وكيف حِدَّة نَظَرِها والقَهْمُ الذي يُرى في طَرَفِها، مع الوقار والتُّبَل، والإطراق والسُّكُون، وَلِمَ اجتمعت الملوِكُ عَرَبُها وعجمُها وأحمرُها وأسودُّها على اقتنائها والتزِينِ بها، والفخر بكثرة ما تهيَّأ لهم منها، حتى صارت عندهم من أكرم الهدايا، وأشرف الألفاف، وحتى صار اتخاذها مُرْوِءَةً وَعَتَاداً وَعُدَّةً، ودليلاً على أن مُقْتَنِيَهَا صاحبُ حرب. وفي تفضيل خصال الفيل على خصال البعير، وفي أيِّ مكان يكون

أنفع في الحرب من الفرس، وأصبر عند القتال من النمر، وأقتل  
للأسد من الجاموس، وأكلب من الببر إذا تعرّم، وأشدّ من الكركدن  
إذا اغتلم، حتى لا يبلغه مقدار ما يكون من تماسيح الخُلجان، وخيل  
التَّيْل، وَعِقبان الهِواء، وأشدّ الغياض.  
قصيدة هاورن مولى الأزدي في الفيل وقد جمع هاورن مولى الأزدي  
الذي كان يرُدُّ على الكميت ويفخر بقحطان، وكان شاعر أهل  
المؤلتان، ولا أعرف من شأنه أكثر من اسمه وصناعته، وقد قال  
في صفات الفيل أشعاراً كثيرة، ذكر فيها كثيراً ممّا قدّمنا ذكره،  
فمن ذلك قوله:

أليس عجيباً بأن خلقه      له فطن الإنسان في جزم  
فيل

وأنشدني هذا البيت صفوان بن صفوان الأنصاري، وكان من رواة داود بن مزيد:

أليس عجيباً بأن خلقه	له فطن الإنسان في جزم
وأظرف من قشة زولة	فيل
وأوقص مختلف خلقه	بحلم يجلُّ عن الخنثليل
ويلقى العدو بناب عظيم	طويل الثيوب قصير
وأشبه شيء إذا قسته	النصيل
تنارعه كلُّ ذي أربع	وجوف رحيب وصوت
ويخضع لليث ليث العرين	صئيل
	بخنزير برّ وجاموس غيل
	فما في الأنام له من
	عديل
	بأن ناسب الهَر من رأس

مِيلِ  
كما تعصف الرِّيحُ  
بالعندبيلِ  
فإن وصلوه بسيفِ صَقِيلِ  
يهوُلُ شديدِ أَمَامَ الرَّعِيلِ  
بخطوٍ خفيفِ وجِزْمِ ثَقِيلِ  
شِنَاعَةُ أَدَّتَيْنِ فِي رَأْسِ  
غَوْلِ  
قَلِيلِ التَّهْيِيبِ لِلرَّزْدَبِيلِ  
أَتَانَا إِلَهُ بَفْتِحِ جَمِيلِ  
بقلبِ نجيبِ وجسمِ نبيلِ  
إِلَهُ الْأَنَامِ وَرَبُّ  
الْفُيُولِ

ويعصفُ بالبَّبرِ بعد التُّمُورِ  
وشخصٌ تُرِّي يَدُهُ أَنفَهُ  
وأقبلَ كالطَّوْدِ هَادِي  
الخميسِ  
ومرَّ يسيلُ كَسَيْلِ الْأَتِيِّ  
فإن شِمَّتَهُ زَادَ فِي هَوْلِهِ  
وقد كُنْتُ أَعَدَدْتُ هَرًّا لَهُ  
فلما أَحَسَّ بِهِ فِي  
العَجَاجِ  
فطَارَ وَرَاعَمَ فَيَّالَهُ  
فسبحانَ خَالِقِهِ  
وَحَدَّهُ

## احتيال هارون بالهر لهزيمة الفيل

وذكر صفوان بن صفوان أنَّ هارون هذا خبأ معه هراً تحت حصنه، ومشى بسيفه إلى الفيل، وفي خرطومه السيف، والفيالون يذمُّونه، فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه، فأدبَّ هارباً، وتساقط كلُّ من كان فوقه، وكبَّر المسلمون، وكان ذلك سبب الهزيمة. وسنذكر الهر في هذا الشُّعر كما كتبتُه لك. استطراد لغوي وأمَّا قوله:

بِجِلْمِ بَجِلُّ عَنِ الْخَنْشَلِيلِ  
فقد قال الأنصاريُّ في صفة النَّخْلِ:

وفي مَدَرِ الْأَرْضِ عَنْهَا  
فُضُولُ  
إِذَا جَاعَتِ الشَّاةُ  
وَالْخَنْشَلِيلُ

تُلِيصُ الْعِشَاءَ بِأَذْنَابِهَا  
وَيَشْبَعُهَا الْمَصُّ مَصُّ  
التَّرَى

وهذا غير قوله:

قد علمتُ جاريةً عُطْبُولُ      أتِي بَتَّصِلُ السيفِ خُنْشِيلُ  
العندييل وأما العندييل فهو طائرٌ صغيرٌ جدًّا، ولذلك قال الشاعر:

وما كان يَوْمَ الرِّيحِ أَوَّلَ      يَزُوحُ كَرَّوْحِ العَندِيلِ إلي  
طَائِرٍ      الوَكْرِ

لأنَّ الرِّيحَ تعصفُ به من صِغَرِه، فهو يعرفُ ذلك من نفسه، فإذا قويت الرِّيحُ دخلَ جُحْرُه، ويقولون  
عندليب وعندييل وكلُّ صواب، ولذلك قال هارون:

ويعصفُ بالبَّبرِ بَعْدَ النُّمُورِ      كما تعصفُ الرِّيحُ بالعندييلِ  
وسنخبر عن تقرير ما في هذه القصيدة مفرِّقاً، إذ لم نُقدِرْ عليه  
مجموعاً متَّصلاً، ولو أمكن ذلك لكان أحسن للكتاب، وأصحَّ لمعناه،  
وأفهم لمن قرأه.

## ما يدخل في ذكر الفيل..

### وفيه أخلاط من شعر وحديث وغير ذلك

قال رؤبة في صفة الفيل:

مُشَرَّفُ اللَّحْيِ صَغِيرُ  
الْفَقْمَيْنِ

أَجْرُدُ كَالْحِصْنِ طَوِيلُ  
النَّابَيْنِ  
عليه أَدَّتَانِ كَفَضْلِ التُّؤَبَيْنِ  
وأنشد ابن الأعرابي:

والفيل في كلِّ أمرٍ أصلُهُ  
لُومٌ

هو اليعوضُ إن كلفته  
كَرَمًا  
وقال أعرابيٌّ ووصف امرأة له:

لو أكلتُ فيلين لم تَحْشَ البَشَمُ  
وقال أعرابيٌّ يصف الأكرباء:

أو تركبُ الفيلَ بها الفيلُ

لو تركبُ البُخْتِيَّ ميلاً

لَا تَحْطَمُ

رَزَمَ

وحمل ناسٌ أبا الحلال الهَدَّادِي على الفيلِ أَمَامَ الحَجَّاجِ، فتمنَّعَ وأنشأ يقول:

أَزْكَبُ شَيْطَانًا وَمِسْخَاً

إِلَّا إِنَّ رَأْيِي قَبْلَ ذَلِكَ

وَهَضْبَةً

مُضَلَّلٌ

فقالوا له: لو علوته ما كان عندك إلا كالبغل فلما علاه صاح: الأرضَ الأرضَ فلما خافوا أن يرمي

بنفسه وهو شيخٌ كبير، أنزلوه، فقال بعد ذلك في كلمة له:

وَمَا كَانَ تَحْتِي يَوْمَ ذَلِكَ

وَلَكِنَّ جُلْبًا مِنْ رَفِيعِ

بَعْلَةٍ

السَّحَائِبِ

وقال بعض المتحدِّثين والمملِّحين في بعض النساء:

أَرَادَتْ مَرَّةً بَيْتًا

لَهَا فِيهِ تَمَائِيلُ

فَلَمَّا أَبْصَرَتْ سِتْرًا

لَوْجَهَيْهِ تَهَاوَيْلُ

وَفِيهِ الْفَيْلُ مَنْقُوشًا

وَفِي مِشْقَرِهِ طُولُ

قَالَتْ: اِنزَعُوا السِّتْرَ

فَلَا يَأْكُلُنِي الْفَيْلُ

وقال خلف بن خليفة الأقطع، حين ذكر الأشراف الذين يدخلون على ابن هُبيرة:

وَقَامَتْ قَرِيشٌ قَرِيشُ

مَعَ الْعُصْبِ الْأَوَّلِ الدَّاخِلَةِ

الْبِطَاحِ

يَقُودُهُمُ الْفَيْلُ وَالزَّنْدَبِيلُ

وَذُو الصُّرْسِ وَالشَّفَّةِ

الْمَائِلَةِ

الفيل والزَّنْدَبِيلُ: أبان والحكم، ابنا عبد الملك بن بشر بن مروان،

وَذُو الصُّرْسِ: خالد بن سلَّمة المخزومي الخطيب، وهو ذُو الشَّفَّةِ،

قتل مع يزيد بن عُمر ابن هُبيرة فيمن قتل.

وقد فصل خلف بن خليفة الفيلَ من الزَّنْدَبِيلِ، ولم يفسِّر، وقد

اختلفوا في ذلك، وسنذكره إذا جرَّ سببه إن شاء الله تعالى.

**طرائف من اللغات والأخبار في الفيل**

الفيلُ، المعروف بهذا الاسم، ويقال رجلٌ فيلٌ إذا كان في رأيه فيالة، والفيالة: الخطأ والفساد، ويسمُّون أيضاً الرَّجُلَ بفيل، منهم فيلٌ مولى زياد وحاجبُه، وفي أنهار الفرات بالبصرة نهر يقال له فيل بانان وموضِعُ آخر يقال له فيلان. وقد يعرض بقدم الإنسان ورم جاسٍ حتَّى تعظم له قدمُه وساقُه، وصاحبُه لا يبرأ منه، ويسمِّي ذلك الورمُ داءَ الفيل. ويسمِّي الرَّجُلَ بدَعْقَلٍ، وهو ولد الفيل، ولا يسْمُون بَزُنْدِيلٍ، وبعض العرب يقول للدَّكر من الفيلة فيل وللأنثى فيلة، كما يقولون أسد وأسدة، وذئب وذئبة، ولا يقولون مثل ذلك في ثعلب وضبع، وأمورٍ غير ذلك، إلا أن يكُون اسماً لإنسان. وبعث رجلٌ من العرب بديلاً مكانه في بعض البعوث، وأنشأ يقول:

فهانَ عَلَيَّ ما لقيَ البَدِيلُ  
قليلٌ علمه بالخيل فيلٌ

إذا ما اختبَّت الشَّفراءُ ميلاً  
يشنُّفها ويحسبُها بعيراً

وأنشدنا الأصمعي:

يفرُّون والفيل الجبان كأنه      أربُّ حصيٍّ نقرته القعاقعُ

قال سَلَمَةُ بن عِيَّاش: قال لي رؤية: ما كنت أحب أن أرى في رأيك فيالة. وبالكوفة باب الفيل، وبواسط باب الفيال. ومنهم فيلويه، وهو أبو حاتم بن فيلويه، وكان أبو مسلم ربِّي أبا حاتمٍ حتَّى اكتهل، وهما سقيا أبا مسلم السمِّ حتَّى عُولج بالترياق فأفاق، فقتلها أبو مسلم بعد ذلك، وكانا على شبيهِ بدين الخرمية.

ويقولون عنبسة الفيل، وهو النحوي، وهو أحد قدماء النحويين الحدائق، وهو عنبسة بن معدان، وكان معدان يروض فيلاً لزياد، فلما أنشد عنبسة بن معدان هجاء جرير للفرزدق قال الفرزدق:

لقد كان في معدان والفيل  
زاجر  
لعنبة الراوي علي  
القصائد

فلما تناشد الناس بعد ذلك هذا الشعر قال عنبسة: إنما قال الفرزدق:

لقد كان في معدان واللوم زاجر  
فقالوا: إن شيئاً فررت منه إلى اللوم لتأهيك به فبحاً فعند ذلك سمي عنبسة الفيل.  
وعيلان الراجز كان يقال له غيلان ركب الفيل كان الحجاج بن يوسف ربما حمله على الفيل،  
وسعدويه الطنبوري، وكان يقال له: سعدويه عين الفيل.  
قال أبو عبيدة: حدثني يونس قال: لما بنى فيل مولى زياد داره وحمّاه بالسباجة، عمل طعاماً  
لأصحاب زياد، ودعاهم إلى داره، وأدخلهم حمّاه، فلما خرجوا منه غدّاهم، ثم ركب وعبر في  
وجوههم، فقال أبو الأسود الدؤلي:

لعمر أبيك ما حمّام كسرى  
وقال الجارود بن أبي سبرة:  
على الثلثين من حمّام فيل

وما إرقاصنا خلف الموالي  
وأنشد الأصمعي وغيره:  
كسبتنا على عهد الرسول

خلفاً علينا من قiale  
رأيه  
كما قيل قبل اليوم خالف  
فقدكرا  
ويقال للرجل إذا عُف عند الرأي يراه: لم تفيّل رأيك؟ وقد قال رأي فلان.  
وحدثنا عبد الله بن بكر، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما انتهيت  
إلى السدرة إذا ورقتها أمثال آذان الفيلة، وإذا ثمرها أمثال القلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها  
تحت ياقوت

وقال صاحب الكيمياء في جرير بن يزيد:

مهلاً أبا العباس رفقا ولا  
هيئات هيئات لما رمته  
تكن خصيم المعشر الخون  
أو يولد الفيل من النون  
والجلم كالأحنف في سين  
أنت إذا ما عدّ أهل الججا

الفرخ والفروج وكلُّ طائرٍ يخرج من البيض وكلُّ ولدٍ يخرج من البيض وإن لم يكن طائراً، وإنما يسمّى فرخاً، كفرخ الحمام والوزغة والعظاءة والرقُّ والشُّلحفاء والحُكَّاء، وبنات الثَّقَا، وشحمة الأرض، والضب، والجِزْدون، والورل، والحرباء، إلا ما يخرج من بيض المدجاج فإنه يقال له فرّوج ولا يقال له فرخ، إلا أنّ الشعراء يتوسَّعون في ذلك، قال سُمّاح بن أبي شداد:

ألا من مبلغُ خاقان عَنَّا      تأملُ حين يضرُّك الشِّتَاءُ  
أجعلُ في عيالك من      ومن شيخٍ أصرَّ به الفَنَاءُ  
صغيرٍ      يلدنَّ به إذا حمسَ الوغَاءُ  
فراخٍ دجاجةٍ يتبعن ديكاً

وقال الآخر:

أحبُّ إلينا من فراخ دجاجة      ومن ديك أنباط تنوسُ  
عَبَاغِبُهُ

وإذا سمّي أهل البصرة إنساناً بغيل فأرادوا تصغيره قالوا فيلويه، كما يجعلون عمراً عمرويه، ومحمداً حمدويه. وكان محمد بن إبراهيم الرّافقي الفارسُ النّجيد قتيلاً نصر بن شَبث، مولى بني نصر بن معاوية، له كنيّتان: أبو الفيل وأبو جعفر، ولم يكن بالجزيرة أفرسُ من داود بن عيسى، وأبي الفيل وعيسى بن منصور من ساكني الرافقة.

## حمل الفيل وعمره

وذكر بعضُ الفَيّالين أنّ الفيلة تضعُ لسبع سنين ولداً مستوي الأسنان، وأنهم يرصدون ذلك الوقت من الوحشية منها، ويحتالون في أخذ الولد، وأن ذلك الولد يعيش في أيديهم ما بين الثمانين سنة إلى

المائسة، وأنَّ عُمَرَ الوَحْشِيَّةَ أَطْوَلُ.  
وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا الْيَوْمَ بِالْعَسْكَرِ إِنَاثٌ، وَأَنَّ الْمَوْتَ بِالْعِرَاقِ إِلَى  
الذُّكُورَةِ أَسْرَعُ، وَأَنَّ نَابَهُ لَا يَطُولُ عِنْدَنَا، وَأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ مِنْ جُلُودِهَا  
التَّرْسَةَ أَجْوَدَ مِنْ جُلُودِ الْجَوَامِيسِ، وَمِنْ الْخَيْزُرَانِ، وَمِنْ الْمَدْرَقِ  
وَالْحَجَفِ الَّتِي تَتَّخِذُ مِنْ جُلُودِ الْإِبِلِ، وَمِنْ هَذِهِ الْمَعْقِبَةُ الْمَطْلِيَّةُ، وَمِنْ  
جَمِيعِ مَا يُؤَلَّفُ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَشَبِ وَالْجُلُودِ الَّتِي قَدْ أُطِيلَ إِنْقَاعُهَا فِي  
اللَّبَنِ، وَمِنْ كُلِّ تَبْتِيٍّ وَصِينِيٍّ.

### مروج الفيلة

وذكر أن لها مُرُوجاً، وأن المروج أصلح لها من القرى، ومواضعها من  
الوحش أصلح لها من المروج.

### فهم الفيلة

وذكر رسولُ لي إلى سائسها أنه قد اتبعتها إلى دجلة، وأنَّ بعض  
العَوَّاءِ صَاحَ بِهَا: يَا حَجَّامُ بَابُكَ وَهَذَا الْكَلَامُ الْيَوْمَ ظَاهِرٌ عَلَى أَلْسِنَةِ  
الْجَهَّالِ، وَأَنَّ فَيْلًا مِنْهَا رَكَهَ بِرِجْلِهِ رَكْلَةً صَكَ بِهَا الْحَائِطَ حَتَّى خِيفَ  
عَلَيْهِ مِنْهَا، وَأَنَّهُ رَأَى مِنْهَا الْإِنْكَارَ لِذَلِكَ الْقَوْلِ، وَأَنَّ الْفَيْئَالَ كَانَ يَحْتَبُهَا

على الانتقام لَمَّا صَاحَ بِهَا.  
وإذا عرفَ الكلبُ اسمه، وكذلك السنور، وكذلك الشاة والفرس،  
والطفل والمجنون المصمت الجنون، وعرفت الناقة فضل ما بين حلِّ  
وجاه، وعرفَ الحمائر الصَّوت الذي يُلْتَمَسُ به وقوفه، والذي يلتمس  
به سيره، وعرف الكلبُ مخاطبةَ الكلاب، والببغاءِ مناغاةَ المُكَلِّم له،  
فجائزٌ أن يكون الفيلُ بفضلِ فِطنته أن يفهم أضعافَ ذلك، فإذا أمره  
بضرب إنسانٍ عند ضربٍ من الكلام استعاد ذلك وأدامه، لم ينكر أن  
يعرفه على طول الترداد.

### فائدة نجو الفيل

قالوا: وإذا احتملت المرأة شيئاً من نجو الفيل بعد أن يُخَلَطَ به شيءٌ  
من عسل فإنها لا تحبُّه أبداً.  
قالوا: ومما يؤكد ذلك أنك لو علقت على شجرةٍ من نجوه شيئاً، إنَّ  
تلك الشجرة لا تحمِلُ في تلك السنة.  
قالوا: وزواني الهند يفعلن ذلك استبقاءً للطِّراء وللشباب، ولأنها إذا  
كانت موقوفةً على جميع الأجناس من الرجال كانت أسرع إلى الحبَل  
لأنها لا تعدم موافقاً لطبعها، وإذا حملت ووضعت مراراً بطلت.

ضروب من الدواء وليس هذا بعجيب، لأنهم يزعمون أنّ صاحب الحصة إذا أخذ روث الحمار حين يروثه حارّاً فعصره وشرب ماءه أنه كثيراً ما يبول تلك الحصة، وفي ماء روث الحمار أيضاً دواءٌ للصرس الم\_\_\_\_\_أكول.

وقال الأصمعيّ: سألتُ بعضَ الأكلة ممن كان يقدّم على ميسرة التّراس: كيف تصنعُ إذا جهدتك الكِظّة؟ والعرب تقول: إذا كنت بطيناً فعدّل نفسك زَمناً، فقال: آخذ روث حمار حارّاً فأعصره وأشرب ماءه فأختلف عنه مراراً، فلا أثبت أن يُلحق بطني بضلبي، فأشتهي الطّع\_\_\_\_\_ام.

والمرأة من نسانا اليوم إذا استُحيضت استفتت مثقالاً من الإثمد، لأنها عندهن إذا فعلت ذلك لم تلد. وأنا رأيتُ امرأة قد فعلت ذلك ثم ولدت. وخرء الكلب إذا كان الجعز أبيض اللون، وكان غذاء الكلب العظام دون اللحم، فهو عجيبٌ لصاحب الدُّبحة، وكذلك رَجيع الإنسان. وخرء الفار يكون شيفاً للصبيان، يحملونه إذا استوكى بطن أحدهم وإن كان من خرد الجرذان وكان عظيماً كان الواحد منه هو الشيف. ويصلح أيضاً خُرد الفار لداء الثعلب، وهو القرع الذي يعرض لشعر

الرأس.

وخرء الحمام الأحمر يصلح، من المَبُولات للزَّمْل والحصى، يُقَمَحُ منه وزن درهم مع مثله من الدَّارصيني.

## شعر في الفيل

وقال بعض المُخَدِّثين:

يا لحيَّة طالت على توكها  
لو كان ما ينصبُّ من مائها  
أو كان ما يقطر من دهنها  
كأنها لحيَّة جبريل  
تَهْرَأ إذا طمَّ على النَّيلِ  
كَيْلاً لَوْفَى أَلْفَ قِنْدِيلِ

فلو تَرَاهَا وهي قد سُرِّحَتْ  
وَأَنشَدَ أَبُو عَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ لِبَعْضِ المَوْلَدِينَ:

فكيفَ حالُ البَعُوضِ في  
الوَسَطِ

إذا تَلَاقَى الفُيُولُ  
وَأَزْدَحَمَتْ

وَأَنشَدَ عَلِيٌّ بِنُ مُحَمَّدٍ:

رِصَاصاً بَأَثَقَلَ مِنْ مَعْبَدِ  
يَنُوءُ بِعِدْلَيْنِ مِنْ إِثْمِدِ  
بَأَثَقَلَ مِنْهُ وَلَا أَنْكَدِ

وما الفِيلُ أَحْمِلُهُ مُوقِراً  
ولا قِرْمَلِيٌّ عَلَيْهِ العَبِيْطُ  
وَجَامُوسَةٌ أَوْقِرَتْ زَبَقاً

وقال آخر:

إلَّا خِرّاً جُمِعَ في الزَّاويَةِ  
ومثله نَيْطاً بأوصالِيهِ

بابُ يَرى لَيْسَ لَهُ داخِلُ  
إِنْ جِئْتَ فَالفِيلُ عَلِيٌّ  
هَامَتِي

ووصف مَرَّةً بِنِ مَحْكَانٍ قِدراً فقال:

وَفُوقاً إِذَا آنَسَتْ مِنْ تَحْتِهَا  
لَهَا

تَرْمِي الصُّلَاةَ بِنَبْلِ غَيْرِ  
طَائِشَةٍ

لو يُقَدِّف الرَّأُلُ فِي  
حِزْوِمَهَا دَهْبًا

زِيَّافَةٌ مِثْلُ جَوْفِ الْفَيْلِ  
مُجْفَرَةٌ

وقال بعض الأكرباء في امرأة كان حملها:

لَا تَعْلُ فِي سِنِّهَا وَلَا قَصَمُ

بِيضَاءٍ مِنْ رُفْقَةِ عِمْرَانَ  
الْأَصَمِّ

كَأَنَّهَا يَوْمَ تُوَافِي بِالْحَرَمِ

بَهَكَّةً لَوْ تَرَكَبَ الْفَيْلَ  
رَزَمُ

غَمَامَةٌ غَرَّاءُ عَنِ غِبِّ رِهَمِ

وقال رؤبة بن العجاج:

يَكْفِيكَ دَرْءَ الْفَيْلِ حَتَّى  
تَرْكَبَا

إِنَّ الرِّدَافِيَّ وَالْكَرِيَّ الْأَرْقَبَا

ثم قال:

سَيِّدًا مُغَيَّرًا أَوْ لِيَاحًا مُعْرَبًا

يَشْقَى بِي الْغَيْرَانُ حَتَّى  
أَحْسَبَا

## ما ورد في شأن الفيل من الأمثال في كليله ودمنه

ومما قرأه الناس من الأمثال في شأن الفيل التي وجدوها في كتاب كليله ودمنه، فمن ذلك قوله: أَقْلًا تَرَى أَنَّ الْكَلْبَ يُبْصِصُ بِذَنْبِهِ مِرَارًا حَتَّى تُلْقَى لَهُ الْكِسْرَةُ، وَإِنَّ الْفَيْلَ الْمَغْتَلِمَ لَيَعْرِفُ قَوِّتَهُ وَفَضْلَهُ، فَإِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ عَلْفُهُ مُكْرَمًا لَمْ يَأْكُلْ حَتَّى يُمَسَّحَ وَيُتَمَلَّقَ. قال: وقيل في أعماله ثلاثة لا يستطيعها أحدٌ إلا بمعونةٍ من ارتفاع همة، وعظيم خطر، منها عملُ السلطان، وتجارة البحر، ومناجزة العدو، وقالت العلماء في الرَّجُلِ الْفَاضِلِ الرَّشِيدِ: إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ

يُرى إلا في مكائين، ولا يليق به غيرهما إمّا مع الملوك مُكرّماً، وإمّا مع النُّسّاك متبشّراً، كالفيل إنما بهاؤه وجماله في مكائين: إمّا في بريّة وحشياً، وإمّا مَرْكَباً للملوك.

قال: وقد قيل في أشياء ثلاثةٍ فضُّ ما بينها متفاوت: فضل المقاتل على المُقاتل، وفضل الفيلِ على الفيلِ، وفضل العالم على العالم.

وقال في كلامٍ آخر: فإن لم تنجع الحيلة فهو إذاً القَدْرُ الذي لا يُدفع، فإنَّ القدرَ هو الذي يسلب الأسدَ قوّته حتى يُدخِله التَّابوت، وهو الذي يَحْمِلُ الرَّجُلَ الضَّعيفَ على ظهر الفيل المغتلم، وهو الذي يسلِّط الحوَّاء على الحَيَّة ذات الحُمة فينزِعُ حمّتها ويلعبُ بها.

قال: ومَن لم يرضَ من الدُّنيا بالكفّاف الذي يُغنيه، وطمحت عيناه إلى ما فوق ذلك، ولم ينظر إلى ما يتخوَّفُ أمامه، كان مثله مثل الذباب الذي ليس يرضى بالشجر والرياحين حتى يطلب الماء الذي يسيل من أذن الفيل المغتلم، فيضربه بأذنه فيهلك.

وقال: فأقام الجملُ مع الأسد حتى إذا كان ذات يوم توجّه الأسد نحو الصيد، فلقية فيلٌ فقاتله قتالاً شديداً، وأفلت الأسد مُثَقَّلاً يسيل دماً، قد جرحه الفيل بأنياه، فكان لا يستطيع أن يطلّبَ صيداً، فلبث الذئبُ والغرابُ وابن آوى أياماً لا يجدون ما يعيشون به من فضول

الأَسَدُ \_\_\_\_\_ د.

وقال: وكيف يرجو إخوانك عندك وفاءً وكرماً وأنت قد صنعت بملكك الذي كَرَّمك وشَرَّفك ما صنعت، بل مثلك في ذلك كما قال التاجر: إِنَّ أَرْضاً يَأْكُلُ جُرْدَانُهَا مائة مَنٍّ من حديد، غيرُ مستنكر أن تخطِف بُزاتها \_\_\_\_\_ الفِيلُ \_\_\_\_\_.

قال: وقال الجرذ للغراب: أشد العداوة عداوة الجوهر، وعداوة الجوهر عداوتان، منها عداوة متجازية كعداوة الفيل والأسد، فإنه ربَّما قتل الفيلُ الأسد، وربَّما قتل الأسدُ الفيل، ومنها عداوة إنما ضرَّها من أحد الجانبين على الآخر كعداوة ما بيني وبين السنور، فإنَّ العداوة بيننا ليست لضرِّ مَنِّي عليه، ولكن لضرِّ منه عليّ. وقال: إنَّ الكريم إذا عَثِر لم يستعنْ إلا بالكريم، كالفيل إذا وَجِل لم يسر \_\_\_\_\_ إلا الفيل \_\_\_\_\_.

ضروب العداوات وسنذكرُ عداوة الشيطان للإنسان، والإنسان للشَّيطان، وهما عداوتان مختلفتان وعداوة الله للكافر، وعداوة الكافر لله، وهاتان العداوتان غير تينك، وهما في أنفسهما مختلفتان، وهما والتي قبلها مخالفة لعداوة العقرب للإنسان، وعداوة العقرب مخالفة لعداوة الحيَّة، وعداوة الإنسان لهما مخالفة

لعداوة كلِّ منهما للإنسان، وعداوة الذئب والأسد، والأسد والإنسان  
خلاف عداوة العقرب والحية، وعداوة النمر للأسد والأسد للنمر  
مخالفةً لجميع ما وصفنا، ومسالمة البَبر للأسد غير مسالمة  
الخنفساء والعقرب، وشأن الحيات والوزغِ خلافُ شأنِ الخنافس  
والعقارب، وعداوة الإنسان خلافُ عداوة ذلك كَلِّهِ، وابن عَرَسٍ أَشَدُّ  
عداوةً للجُرذَانِ مِنَ السَّنَّورِ، وعداوةُ البعير للبعير، والبرذون  
للبرذون، والحمار للحمار شكل واحد، وعداوة الذئب خلاف ذلك،  
والشَّاهُ أَشَدُّ فَرَقاً مِنْهَا مِنَ الأَسَدِ والنمر والببر، وهي أقوى  
عليها من الذئب، وفَرَقِ الدَّجَاجِ مِنْ ابْنِ آوَى أَشَدُّ مِنْ فَرَقِهَا مِنْ  
التَّعْلَبِ، والحمام أَشَدُّ فَرَقاً مِنَ الشَّاهِينَ مِنْهُ مِنَ الصَّقْرِ والبازي.  
عداوات الناس وأسباب عداوات النَّاسِ ضَرْبٌ: مِنْهَا المَشَاكِلَةُ فِي  
الصَّنَاعَةِ، وَمِنْهَا التَّقَارُبُ فِي الجِوَارِ، وَمِنْهَا التَّقَارُبُ فِي النَّسَبِ،  
وَالكثْرَةُ مِنْ أسبابِ التَّقَاعِ فِي العَشِيرَةِ وَالقَبِيلَةِ، وَالسَّاكِنُ عَدُوٌّ  
لِلْمُسْكِنِ، وَالفَقِيرُ عَدُوٌّ لِلغَنِيِّ وَكَذَلِكَ المَاشِي وَالرَّاكِبِ، وَكَذَلِكَ  
الفحل والخصي، وَبَعْضُ السُّوقِ مَوْصُولَةٌ بِالمَلُوكِ، وَكَذَلِكَ المَعْتَقُ  
عَنْ دُبُرٍ، وَالْمَوْصَى لَهُ بِالمَالِ الرَغِيبِ، وَكَذَلِكَ المَوَارِثُ وَالْمَوْرُوثُ،  
وَلجَمِيعٍ هَذَا تَفْسِيرٌ وَلكِنَّهُ يَطْوُلُ.

عداوات الحيوان وذكر صاحب المنطق عداوة الغراب للحمار،  
والنحويون ينشدون في ذلك قول الشاعر:

عَادِيْتَنَا لَا زِلْتِ فِي تَبَابِ عَدَاوَةِ الْحِمَارِ لِلْغُرَابِ  
وَلَا أُدْرِي مَنْ أَيْسَنَ وَقَعَهُ هَذَا إِلَيْهِمْ.  
وذكر أيضاً عداوة البوم للغراب، وكذلك عصفور الشوك للحمار، وفي  
هذا كلامٌ كثيرٌ قد ذكرنا بعضه في أوّل كتابنا هذا من الحيوان.  
رجع إلى الأمثال في كليلة ودمنة ثم رجعنا إلى الإخبار عن الأمثال.  
قال: وأكيس الأقوام مَنْ لَا يَلْتَمِسُ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ مَا وَجَدَ عَنِ الْقِتَالِ  
مَذْهَبًا؛ فَإِنَّ الْقِتَالَ إِنَّمَا النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ، وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا  
التَّفَقُّةُ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ، فَلَا يَكُونَنَّ قِتَالُ الْبُومِ مِنْ رَأْيِكَ، فَإِنَّ مَنْ  
يُرَاكِلُ الْفَيْلَ يُرَاكِلُ الْحَيْنَ.  
قال: فأجابه الجرذ فقال: إِنَّهُ رَبُّ عَدَاوَةٍ بَاطِنَةٍ ظَاهِرُهَا صِدَاقَةٌ، وَهِيَ  
أَشَدُّ صَرَرًا مِنَ الْعَدَاوَةِ الظَّاهِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَحْتَرَسْ مِنْهَا وَقَعَ مَوْعِةَ  
الرَّجُلِ الْمَذِي يَرْكَبُ نَابَ الْفَيْلِ الْمُعْتَلِمِ ثُمَّ يَغْلِبُهُ التُّعَاسُ.  
قال: واعلم أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَدُوِّ لَا يَسْتَطَاعُ بِالشَّدَّةِ وَالْمَكَابِرَةِ حَتَّى  
يُصَادَ بِالرَّفِقِ وَالْمَلَايِنَةِ، كَمَا يَصَادُ الْفَيْلُ الْوَحْشِيُّ بِالْفَيْلِ الْأَهْلِيِّ.  
وقال: إِنَّ الْعُشْبَ كَمَا رَأَيْتَ فِي اللَّيْنِ وَالصَّعْفِ، وَقَدْ يُجْمَعُ مِنْهُ الْكَثِيرُ

فيصنع منه الحبلُ القويُّ الذي يوثق به الفيل المغتلم.  
قال: وقالوا: نريد أحبَّ بنيك إليك، وأكرمهم عليك، ونريد كالَ الكاتبِ  
صاحبَ سرِّك، والسيف الذي لا يوجد مثله، والفيلَ الأبيضَ الذي لا  
تلحقه الخيلُ الذي هو مَرَكَبُكَ في القتال، ونريد الفيلين العظيمين  
اللذين يكونان مع الفيلِ الذَّكَرِ.

### الفيلة في الحروب

وقد سمعنا في هذا الحديثِ والإخبارِ عن أيام القادسيَّةِ ويوم جسر  
مَهْرَانَ، وقُسِّ النَّاطِفِ، وجَلَوْلَاءِ، ويوم تَهَاوَدَ، بالفيلِ الأبقع، والفيلِ  
الأسود، والفيلِ الأبيض، والناس لم يَرَوْا بالعراقِ فيلاً أَوْبَرَ، ولا فيلاً  
أشْعَرَ.

### الفيلة المستأنسة

والفيلة التي كانت مع الفرس، حُكْمُهَا حَكْمُ الفِيلَةِ التي كانت عند  
أمير المؤمنين المنصور، وعند سائر الخلفاءِ من بَعْدِهِ، وكلها جُرْدُ  
مُعَصَّبَةٌ، ولم نلقَ أحداً رآها وحشيَّةً قبل أن تصير في القُرَى  
والمواضع التي يذكرونها.

تبدل حال الحيوان إذا أخرج من موطنه وقد علمنا أنّ الطائر الصَّيود من الجوارح، لو أقام في بلاده مائة عام لم يحدثْ لمنسره زوائد، وعَيَّر العانة إذا أقام في غيرِ بلاده احتاجَ إلى الأخذ من حافره، وإلى أن يُحْتَلَفَ به إلى البيطار، والطائر الوحشيّ من هذه المغنَّيات والنوائح، لو أقام عندنا دهرًا طويلًا لم يُصَوِّثْ إذا أخذناه وقد كُرِّز، وكذلك المزوجة والتعشيش والتفريخ.

## التكاثر بالفيلة

قال: وكلُّ مَلِكٍ كان يصلُ إلى أن تكون عنده فِيلة فإنَّه كان لا يدَعُ الاستكثار منها والتجمل بها، والتَّهويل بمكانها عنده، ولا يدَعُ ركوبها في الحروب، وفي الأعياد، وفي يوم الرِّينة.

## الفيل في الشعر

وقد كانت عند جَمير والتبابعة والمقاول والعباهلة من ملوكهم، وأبي اليكسوم من ملوك الحبشة، وعند ملوك سبأ، مقرَّبة مكرَّمة، يدلُّ على ذلك الأشعارُ المعروفة، والأخبار الصحيحة، ألا ترى أن الأعرشى ذكر مأرب وملوك سبأ وسبيل العرم، فقال:

ومأربُ عَفَى عليها العَرمُ  
إذا جاء ماؤُهُم لم يَرمُ  
على ساعة ماؤُهُم قد  
فُسيمُ

ففي ذاك للمؤتسي أسوهُ  
رَحَامُ بنته له جَميرُ  
فأروى الحروتَ وأعناها

وطار الفيولُ وقيالها

بتيهاً فيها سرابٌ يطمم

وكان الأقبيل القيني مع الحجاج يقاتل ابن الزبير، فلما رأى البيت يُرمى بالمنجنيق أنشأ يقول:

ولم أرَ جيشاً عُزَّ بالحجِّ

ولم أرَ جيشاً مثلنا كلهم

قبلنا

خرسٌ

دلّفتنا لبيتِ الله ترمي

بأحجارنا تهبّ الولايد

سُتوره

للعرسِ

دلّفتنا لهم يومَ الثلاثاءِ من

بجيش كصدّر الفيل ليس

له رأسٌ

مئى

فلما فرغ وعاد بقبر مروان، وكتب له عبد الملك كتاباً إلى الحجاج يخبره فيه، وفوض الأمر إليه،

قال:

وقد علمتُ لو أنّ العلمَ

أنّ انطلاقي إلى الحجاج

ينفعني

تغيري

مستخيباً ضحفاً تدمى

وفي الصحايفِ حياثٌ

طوابعها

مناكيرٌ

لئن رَجَلْتُ إلى الحجاج

إني لأحمقٌ من تحدي به

معتذراً

العيرُ

## لسان الفيل

وكلُّ حيوانٍ في الأرض ذو لسانٍ فأصلُّ لسانه إلى داخل، وطرفه إلى خارج؛ إلا الفيل، فإنَّ طَرَفَ

لسانه إلى داخل، وأصلُّه إلى خارج.

بعض خصائص الحيوان وتقول الهند: إنّ لسان الفيل مقلوب، ولولا أنّه مقلوب ثمّ لقن الكلام لتكلم.

وكلُّ سمكٍ يكون في الماء العذب فإنّ له لساناً ودماعاً، إلا ما كان منها في الماء الملح، فإنّه ليس

لسانك البحر لسانك ولا دماغك.

وكلُّ شيءٍ يأكل بالمضغ دون الابتلاع فإنّه إنما يحرك فكه الأسفل، إلا التمساح فإنّه إنما يحرك فكه

الأعلى.

وكلُّ ذي عينٍ من ذوات الأربع من السباع والبهائم الوحشية والأهلية، فإنما الأشفار لجفونها الأعالي

إلا الإنسان، فإنّ الأشفار للأعالي والأسافل.

وكلُّ حيوانٍ ذي صَدْرٍ فَإِنَّهُ ضَيْقُ الصَّدْرِ، إِلَّا الْإِنْسَانَ فَإِنَّهُ وَاسِعُ الصَّدْرِ وليس لشيءٍ من ذكورة جميع  
الحيوان وإنائها ثدي في صدره إلا الإنسان والفيل، وقال ابن مُقبل:

طَلَسُ النُّجُومِ إِذَا اغْبَرَّ  
الدياميمُ

وليلةٍ مثلَ ظَهْرِ الفِيلِ  
عَيَّرَهَا

## ضخم الفيل وظرفه

والفيل أضخم الحيوان وهو مع ضِخْمه أَمْلَحُ وَأظْرَفُ وَأَحْكَى وهو  
يفوق في ذلك كلَّ خفيفِ الجسم، رشيق الطبيعة.  
وإنما الحكاية من جميع الحيوان في الكلب والقرد والمدب والشاة  
المكيّة، وليس عند البغاء إلا حكاية صور الأصوات، فصار مع غلظه  
وضِخْمه وفخامته أرشق مذهباً، وأدقّ ظرفاً، وأظهرَ طرباً، وهذا من  
أعجب العجَب، وما ظنُّكم بعِظَمِ خَلْقِ رَبِّمَا كَانَ فِي تَابِيهِ أَكْثَرُ مِنْ  
ثلاثمائة مَنْ،

## أعظم الحيوان في قول المتعصبين على الفيل

فقال من يعارضهم: قد أجمعوا على أن أعظم الحيوان  
خُلُقاً السمكة والسرطان، وحكوا عن عِظَمِ بعض الحيات،  
حتى ألقوه بهما، وأكثروا في تعظيم شأن التين؛ فليس

## لكم أن تدعوا للفيل ما ادعيتم. رد صاحب الفيل على

### خصمه

قال صاحبُ الهند والمعبّرُ عن خصال الفيل: أمّا الفيل وعلوّ سَمَكه، وعِظْم جُفْرته، واتّساع صَهْوَتِه، وطولُ خُرطومه، وسعَةُ أذنه، وكِبر عُرموله، مع خِفّة وطئه، وطول عُمره، وثقل حمّله، وقلة اِكترائه لِما وُضع على ظهره، فقد عايَنَ ذلكَ من الجماعاتِ مَنْ لا يستطيعُ الرَدَّ عليها إلّا جاهلٌ أو مُعانِد، وأمّا ما ادّعيتم من عِظْم الحيّة وأنا متي مسخّنا طولها وثخنها، وأخذنا وزّتها كانت أكثرَ من الفيل، فإنّا لم نَسْمَعْ هذا إلا في أحاديث الرُقّائين، وأكاذيب الحوّائين، وتزيّد البحرِيّين.

وأما التّنين فإنّما سبيلُ الإيمان به سبيلُ الإيمان بِعَنْقَاءِ مُغْرِب، وما رأيتُ مجلساً قطُّ جَرى فيه ذكر التّنين إلّا وهم ينكرونه ويكذّبون المُخبر عنه، إلّا أنا في الفَرْط ربّما رأينا بعضَ الشاميّين يزعمُ أنّ التّنين إِعصارٌ فيه نار يخرج من قِبَل البحر في بعض الرّمان، فلا يمرُّ بشيءٍ إلّا أحرقه، فسَمّى ذلكَ ناسُ التّنين، ثمّ جعلوه في صورة حيّة. وأمّا السّرطان فلم نرَ أحداً قط ذكر أنّه عايّنه، فإنّ كُنّا إلى قول بعض

البحريين نرجع، فقد زعم هؤلاء أنهم ربما قُربوا إلى بعض جزائر البحر، وفيها الغياض والأودية واللحافيق، وأنهم في بعض ذلك أوقدوا ناراً عظيمة، فلما وصلت إلى ظهر السرطان هاج بهم وبكل ما عليه من النباتات، حتى لم ينج منهم إلا الشريد. وهذا الحديث قد طم على الخرافات والترهات وحديث الخلوّة. وأما السمك فلعمري إن السمكة التي يقال لها البال لفاحشة العظم، وقد عاينوا ذلك عياناً، وقتلوه يقيناً، ولكن أحسبوا أن الشأن في البال على ما ذكرتم، فهل علمتم أن فيه من الحسن والمعرفة، واللحن والحكاية، والطرب وحسن المواتاة وشدة القتال، والتمهّد تحت الملوك، وغير ذلك من الخصال، كما وجدنا ذلك وأكثر منه في الفيل. وهل رغبت في صيده الملوك واحتالت له التجار، أو تمنى الظفر بأجزائه بعض الأطباء، وهل يصلح لدواء أو غذاء أو لبس، إنما غاية البحريين أن يسلموا من عبثه إن هجموا عليه نائماً أو غافلاً، حتى ينفر ويفزع وينبّه بقزع العصا، واصطكاك الخشب. وإنما قدّمنا خصال الفيل على خصال الحيوان الذي في كفه ومنقاره الصنعة العجيبة، أو يكون فيه من طريف المعرفة، وغريب الحسن، وثقوب البصر، أو بعض ما فيه من الجمال والحسن، ومن التفاريح

ومن التّحاسين، والوشى والتلاوين، بالتأليف العجيب، والتّنّضيد الغريب، أو بعض ما في حنجرته من الأصوات الملحّنة، والمخارج الموزونة، والأغاني الدّاخلة في الإيقاع، الخارجة من سبيل الخطأ، ممّا يجمع الطّرب والشّجا، ومما يفوق النّوائج ويروق كلّ مغنٍّ، حتى يُضرب بحسن تخريجه وصفاء صوته وشجّا مخرجه المثلّ، حتى يشبّه به صوْتُ المزمّـار والـوْتـر.

وأما بعض ما يُعرف بالمكر والحيل، والكَيْس والرّوغان، وبالـفِـطـنة وبالخدِعة، والرّفق والتكسّب، والعلم بما يُعِيشُه والحدّر ممّا يُعْطِبه، وتأثّيه لذلك وجذقه به؛ وأمّا بعض ما يكون في طريق التّـقـاـفة يوم التّـقـاـفة والبصر بالمشاولة، والصّبر على المطاولة، والعزم والرّوغان، والكرّ والجّولان، ووضّع تلك التدابير في مواضعها حتى لا تردّ له طعنة ولا تخطئ له وثبة، وأمّا بعض ما يُعرّف بالنّظر في العاقبة وبإحكام شأن المعيشة والأخذ لنفسه بالثقة، وبالتقدّم في حال المُهلة والادّخار ليوم الحاجة، والأجناسُ التي تدّخر لأنفسها ليوم العجز عن الطلب والتكسّب - فَمِثْلُ الدّرة، والنملة، والجُرذ والفأرة، وكنحو العنكبوت والنّحل. فإذا كان ليس للفيل إلا عِظمه وإن كان العِظَم قد يدخل في باب من أبواب المفاخرة، فلا ينبغي لأحد أن يُتَاهد به

الأبدانَ التي لها الخصال الشريفة، ويناضلَ به ذواتِ المفاخر العظيمة، فما ظنُّكَ ببدنٍ قد جمع مع العِظَم من الخصال الشريفة ما يُفني الطَّواميرَ الكثيرة، ويستغرق الأجلاد الواسعة، وقد علمت أنَّ مِنْ جَهْلِ هذه السمكة بما يُعِيشُها ويُضَلِّحُها أنَّها شديدةُ الطَّلَب والشَّهوة لأكل العنبر، والعنبرُ أَقْتَلُ للبال من الدَّفلى للدوابِّ، فإذا أصابوه مَيِّتاً استخرجوا من جَوْفه عنبراً كثيراً فاسداً. وما فيه من النِّع إلاَّ أنَّ دهنه يصلح لتمرينِ سُفن البحريين.

### تعصب غانم الهندي على الفيل

فسمِعني غانمُ العبد يوماً وأنا أحكي هذا الكلامَ، وكان منْ أَمْوَقِ الناس وأزَقَهم رَقاعةً، مع تيهٍ شديدٍ وعُجْبٍ وِرِضاً عن نفسه، وسُخْطٍ على النَّاسِ، فمِن حُمِّقه أنه هنديٌّ وهو يتعصَّب على الفيل، فقال لي: ما تقول الهند في الحوت الذي يحمل الأرض، أليس أعمَّ نفعاً وأَعْلَى أمراً؟ قلت له: يا هالكُ، إنَّ مدارَ هذا الكلام إنما يقع على الأقسام الأربعة من بين جميع الحيوان المذكورة في الماء وفي الأرض وفي الهواء، كالذي ينساح من أجناس الحيات والذِّيدان، وكالذي يمشي من الدوابِّ والنَّاسِ، وكالذي يطير من أحرار الطير

وبغائها وخصاشها وهمجها، وكالذي يعوم كالسمك وكل ما يعايش  
الس\_\_\_\_\_مك.

فأما الحوت الذي تكون الأرض على ظهره فقد علمنا أنّ في الملائكة  
من هو أعظم من هذا الحوت مراراً، ولولا مكان من قد خصّرنا لكان  
ممن لا يستأهل الجواب، وهذا مقدار معرفته.

### قوة الفيل

قالوا: والفيل أقوى من جميع الحيوان إن حُمّل الأثقال، ومن قوة  
عظمه وعصيه أنه يمرّ خلف القاعد مع عظم بدنه، فلا يشعر بوطئه،  
ولا يحسُّ بممرّه لاحتمال بعض بدنه لبعض، وهذه أعجوبة أخرى.

### طول مدة حمل الفيلة

وليس في حوامل إناث الحيوان أطول مدّة حمل من الفيل،  
والكركدن، فإنه مذكور في هذا الباب، والفيل يزيد عليه في قول  
بعض\_\_\_\_\_هم.

فأما الهند ففتنّهم بالكركدن أشدّ من فتنتهم بالفيل.  
فأما ما كان دون ذلك من أجناس الحيوان فأطولها حملاً الحافر

والخفّ، ولا يزيدان على السنّة إلا أن تُسحب الأنثى وتُجرّ أياماً، فأما الظّف فعلى ضريين، فما كان منها من البقر فإنّ مدّة حملها وحمل النساء تسعة أشهر، وما كان من الغنم فإنّ حملها خمسة أشهر. وقد ذكرنا حال أجناس الحيوان في ذلك فيما سلف من كتابنا هذا.

## صولة الفيل

قالوا: والفيلة هؤلها في العين، فاحذر أن تتخذ ظهورها كالمناظر والمسالح والأرصاد. وللفيل قتالٌ وضربٌ بخرطومه، وخبطٌ بقوائمه، وكانت الأكاسرة ربما قتلت الرّجل بوطء الفيلة، وكانت قد درّبت على ذلك وعُلمته، فإذا ألقوا إليها الرّجل تركت العلف وقصدت نحوه فداسته، ولذلك أنشد العباس بن يعقوب العامريّ، لناهض بن ثومة العامريّ قوله:

وذو الصّغم إذ بعض  
المحامين ناهش  
أميماً به مُستدّميّات  
مقارش

أنا الشّاعرُ الخطّارُ من  
دون عامرٍ  
بخبطٍ كخبطِ الفيلِ حتى  
تركته

وأنشد الأصمعي وأبو عمرو لتميم بن مقبل:

تخيّر آيات الكتاب هجائياً  
أرى الشّعب فيما بيننا  
متدانياً  
بجرّدٍ فلا أبقى من الرّأس  
باقياً

بني عامرٍ ما تأمّرون  
بشاعرٍ  
أأعفو كما يعفو الكريمُ  
فإنني  
أمّ أخبطُ خبطاً الفيل هامة  
رأسه

بعض من رمي تحت أرجل الفيلة وكانت الأكاسرة - وهي الكسور - تؤدّبها وتعوّدها وطء الناس وخبطهم إذا ألقِيَ تحت قوائمها بعض أهل الجنايات، فكان ممن رُمي به تحت أرجل الفيلة النّعمان بن

المنذر، وقال في ذلك الشاعر:

إِنَّ ذَا التَّاجِ لَا أَبَا لَكَ  
أَصْحَى

وَذَرَى بَيْتَهُ بِجَوْرِ الْفُيُولِ

إِنَّ كِسْرَى عَدَا عَلَى الْمَلِكِ  
النَّعْ

مَا نِ حَتَّى سَقَاهُ أُمَّ  
الْبَلِيلِ

كتاب ملك الصين وذكر الهيثم بن عدي، عن أبي يعقوب الثقفي،  
عن عبد الملك بن عمير قال: رأيت في ديوان معاوية بعد موته كتاباً  
من ملك الصين فيه: من ملك الصين الذي على مَرِبَطِهِ أَلْفُ فِيلٍ،  
وَبُنِيَتْ دَائِرُهُ بِلَيْنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالَّذِي تَخْدُمُهُ بِنَاتُ أَلْفِ مَلِكٍ، وَالَّذِي  
لَهُ نَهْرَانِ يَسْقِيَانِ الْأَلْبُورَةَ، إِلَى مَعَاوِيَةَ.  
قالوا: ولَمَّا أَرَادَ كِسْرَى قَتْلَ زِيوَشْتِ الْمَغْنِيِّ، لَقَتْلَهُ فَهَلْبِذَ الْمَغْنِيِّ،  
وَأَمْرَ أَنْ يَرْمِيَ بِهِ تَحْتَ الْفِيلَةِ وَقَالَ: قَتَلْتُ أَحْسَنَ النَّاسِ غِنَاءً،  
وَأَجْوَدَهُمْ إِمْتَاعاً لِلْمَلِكِ؛ حَسِداً لَهُ، فَلَمَّا سَحَبُوهُ نَحْوَ الْفِيلَةِ التَفَتْ إِلَى  
كِسْرَى وَقَالَ: إِذَا قَتَلْتُ زِيوَشْتِ الْمَغْنِيِّ، وَقَدْ قَتَلْتُ زِيوَشْتِ فَهَلْبِذَ فَمَنْ  
يُطْرَبُكَ؟ فَقَالَ كِسْرَى: الْمُدَّةُ الَّتِي بَقِيَتْ لَكَ هِيَ الَّتِي أَنْطَقْتُكَ، خُلُّوا  
سَبِيلَهُ.

## تأديب الهند الفيلة

وقال صفوان بن صفوان الأنصاري، وكان عند داود بن يزيد  
بالمولتان: الهند تؤدّب الفيلة بأنواع من التّأديب، وبضروب من

التقويم، فمنها آدابُ الحروب، حتى ربَّما رَبَطُوا السَّيْفَ الهُدَامَ  
الرَّغِيبَ، الشَّدِيدَ المَتَنَ، الحَدِيدَ العَرَبَ، التَّامَ الطَّوِيلَ، الطَّوِيلَ  
السَّيْلَانَ، في طَرَفِ حُرطومِ الفيلِ، وعلموه كيف يضرب به قُدْمًا،  
يَمِينًا وشَمَالًا، وكيف يرفُعه بخرطومه حتى يكونَ فوقَ رؤوسِ  
الغَيَّالينِ القعودِ على ظهره.

## شعر هارون في الفيل

قال: وأنشدني هارون بن فلان المولى، مولى الأزدي، قصيدته التي ذكر فيها خروجه في الحرب إلى  
فيلٍ في هذه الصفة، فمَسَى إليه، فلما كان حيثُ ينالُه السَّيْفُ وَتَبَّ وَتُبَّهَ أَعْجَلَهُ بها عن الصَّربةِ،  
ولصق بصدر الفيل، وتعلَّق بأصول ناييه - وهما عندهم قرناه - فجال به الفيلُ جَوْلَةً كاد يحطِّمه مِن  
شِدَّةِ ما جال به، وكان رجلاً شديداً الخَلْقِ، رابط الجأش، قال: فاعتمدتُ وأنا في تلك الحال - وأصولُ  
الأيابِ جُوفٍ - فانقلعا من أصلهما، وأدبَرَ الفيلُ، وصار القرنان في يَدَيَّ، وكانت الهزيمة وعَنِمَ  
المسلمون غنائمَ كثيرة، وقلت في ذلك:

وقد وصلوا حُرطومَه  
بِحُسامِ  
بأبيضَ من ماءِ الحديدِ  
هُدَامِ  
لَدَى كُلِّ مَنْحُوبِ الفُؤَادِ  
عَبَامِ  
كظلمة لَيْلٍ جُلَّتْ  
بِقَتَامِ  
كما لاحَ برقٌ من خلالِ  
غمامِ  
فلما هوى لارمَتْ أَيَّ

مشيتُ إليه وادعاً  
متمهلاً  
فقلتُ لِنفسي: إِنَّه الفيلُ  
ضاربُ  
فإن تَنكلي عنه فعدُّرِكِ  
واضحُ  
وعندَ شُجاعِ القومِ أكلفُ  
فاحمُ  
ولما رأيتُ السيفَ في  
رأسِ هضبةٍ  
فناهشْتُهُ حَتَّى لَصِقْتُ

لِزَامِ  
وَذَلِكَ مِنْ عَادَاتِ كُلِّ  
مَحَامِي  
وَأُبْتُ بِقَرْتِي يَذُبُّ  
وَسَمَامِ

بِصَدْرِهِ  
وَعَدْتُ بِقَرْتِيهِ أُرِيدُ  
لِبَانَهُ  
فَجَالَ وَهَجَّيرَاهُ صَوْتُ  
مُحَضَّرَمِ

وقال هارون:

بِقَائِمِ سَيْفٍ فَاضِلِ الطُّولِ  
وَالْعَرْضِ  
إِذَا كَانَ أَنْفُ الْفِيلِ فِي  
عَقْرِ الْأَرْضِ  
وَيَلْمَعُ لَمَعَ الصُّبْحِ بِالْبَلَدِ  
الْمُقْضِي  
يُصْرِّفُهُ فِي الرَّفْعِ طَوْرًا  
وَفِي الْخَفْضِ  
وَصَرْتُ كَأَنِّي فَوْقَ مَزْلَقَةٍ  
دَخَضِ  
فَلَاذَ بَقَرْنِيهِ أَخُو ثِقَةٍ  
مَحْضِ  
كَثِيرِ مِرَاسِ الْحَرْبِ  
مَجْتَنِبِ الْخَفْضِ  
رَطَانُهُ هِنْدِيٌّ بَرْفَعٌ وَلَا  
خَفْضِ

وَلَمَّا أَتَانِي أَنَّهُمْ  
يَعْقِدُونَهُ  
مَرَرْتُ وَلَمْ أَحْفِلْ بِذَلِكَ  
مِنْهُمْ  
وَحِينَ رَأَيْتُ السَّيْفَ يَهْتَرُ  
قَائِمًا  
وَصَارَ كِمِخْرَاقٍ بِكَفِّ  
حَزَّوْرٍ  
فَأَقْبَلَ يَقْرِي كُلَّ شَيْءٍ  
سَمَاءَهُ  
وَأَهْوَى لِجَارِي فَاعْتَمَمْتُ  
دُهُولَهُ  
فَجَالَ وَجَالَ الْقَرْنَ فِي كَفِّ  
مَاجِدِ  
فَطَاحَ وَوَلَّى هَارِبًا لَا  
يَهِيدُهُ

## نابا الفيل

والهندُ تزعمُ أنَّ نابي الفيل يخرجان مستبطين حتى يخرقا الحنك  
ويخرجا أعقفين، وإنما يجعلهما نابين من لا يفهمُ الأمور، قالوا:  
والدليل على ذلك أنَّ لهما أصلين في موضع مخارج القرون، يُوجد

ذلك عند سَلْخِ جلده، ولأنَّ القرن لا يكون إلاَّ مضمّت الأعلى مجوّف  
الأسفل وكذلك صفةُ هذا الذي يسمّيه مَنْ لا علم له ناباً، ومع ذلك إنّنا  
لا نجد الفيل يعضُّ بعضُ الأسد للأكل، ولا كعضُّ الجمل الصَّوُول  
للقتل، ولا كعضُّ الأفعى لإخراج السمِّ، ولا تراه يصنع به ويستعمله إلاَّ  
على شبيهه بما تستعمله ذوات القرن عند القتال والغضب.  
فقال لهم بعضُ من يردُّ عليهم: أمّا قولكم إنّ القرن لا يكون إلاَّ  
مجوّف الأصل، فهذا قرنُ الأيّل مُصمّت من أوّله إلى آخره، وهو ينصل  
في كلّ سنة، فإذا نبت حديثاً لم يظهر حتى يستحكم في يُبسه  
وصلابته، وإذا علم أنه قد بلغ ذلك ظهر، وأكثرُ القُرُونِ الجُوفِ يكون  
في أجوافها قرونٌ، وليس ذلك لقرن الفيل.  
قالوا: ولم نجد هذا القرن في لون القُرُونِ، ووجدناه بسائر أسنانه  
وأضراسه أشبه، للبياض واليبس، وليس كذلك صفةُ القرون.  
وتقول الهند: فم الأيّل صغير، وهو أفقم، ولا يجوز أن يكون مثل ذلك  
اللّحي والفكُّ ينبُث فيه ومنه نابان يكون فيهما ثلاثمائة مَنْ، وقد رأيتُ  
قروناً كثيرة الأجناس، بيضاً، وبُرْشاً، وضحياً، وهذه أيضاً من أعاجيب  
الفيل.

وقرن الكركدّان أغلظُ من مقدار ذراع، وليس طوله على قدر غلظه،

وهو أصلب وأكرم من قرني الفيل.  
أعضاء التناسل لدى الحيوان ويقال: إنَّ أكبر أيور الحيوان أير الفيل،  
وأصغرها قضيبُ الظبي، وقضيب البط لا يذكر مع هذه الأشكال،  
وليس شيءٌ على قدره ومقدار جسمه أعظمُ أيراً من البغل.  
وقد علمنا أنَّ للضب أيرين، وكذلك الجرذون والسَّقَنُفُور، وعرفنا  
مقدار ذلك، ولكنَّه لا يدخل في هذا الباب لضعفٍ لا يخفى.

### خرطوم الفيل

ولو لم يكن من أعاجيب الفيل إلاَّ خرطومُه الذي هو أنفه وهو يده،  
وبه يوصل الطعامَ والشَّرَابَ إلى جوفه، وهو شيءٌ بينَ العُضروفِ  
واللحمِ والعصبِ، وبه يقاتل ويضرب، ومنه يصيح، وليس صياحه في  
مقدارِ جُرمِ بدنه، ويضربُ به الأرضَ ويرفعه في السَّماءِ ويصرِّفه  
كيف شاء، وهو مَقْتَلٌ من مقاتله، والهند تربط في طرفه سيفاً شديداً  
المثن فيقاتلُ به، مع ما في ذلك من التهويل على من عاينه.

### سباحة الفيل والجاموس والبعير

وهو مع عِظَمِ بَدَنِهِ جَيِّدُ السَّبَّاحَةِ إِلَّا أَنَّهُ يَخْرُجُ خَرَطُومَهُ وَيَرْفَعُهُ فِي  
الهِوَاءِ صُعْدًا لِأَنَّهُ أَنْفَهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْجَامُوسَ يَغِيبُ جَمِيعُ بَدَنِهِ فِي  
الماءِ إِلَّا مَنْخَرِيهِ. \_\_\_\_\_  
والبعير قبيح السَّبَّاحَةِ: لِأَنَّهُ لَا يَسْبِحُ إِلَّا عَلَى جَنْبِهِ فَهُوَ فِي ذَلِكَ  
بَطِيءٌ ثَقِيلٌ، وَالبعيرُ مِمَّا يُخَايَرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الفِيلِ، فَلِذَلِكَ ذَكَرْنَا.  
مَا يَغْرُقُ مِنَ الحَيَوَانِ وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الإنسانَ يَغْرُقُ فِي المَاءِ مَا لَمْ  
يَتَعَلَّمِ السَّبَّاحَةَ، فَأَمَّا الفَرَسُ الأَعْسَرُ والقِرْدُ فَإِنَّهُمَا يَغْرُقَانِ البَتَّةَ،  
وَالعقربُ تَقُومُ وَسَطَ المَاءِ لَا طَافِيَةً وَلَا لَازِقَةً بِالأَرْضِ.  
أَشْرَافُ السَّبَّاحِ وَسَادَاتُهَا وَأَشْرَافُ السَّبَّاحِ وَسَادَاتُهَا وَكِبَارُهَا  
وَرُؤُوسَاؤُهَا ثَلَاثَةٌ: الكَرْكَدَنَّ والفِيلُ وَالجَامُوسُ، قَالَ: وَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ  
اعْتَادَ الِاعْتِرَاضَ عَلَى الكِتَابِ يَقُولُ: وَأَيْنَ الخَيْلِ وَالِإِبِلِ، وَفِيهَا مِنْ  
خِصَالِ الشَّرَفِ وَالْمَنَافِعِ وَالْعَنَاءِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَفِي الحَرْبِ  
وَالسَّلْمِ، وَفِي الزَّيْنَةِ وَالبِهَاءِ، وَفِي العُدَّةِ وَالْعِتَادِ، مَا لَيْسَ عِنْدَ  
الكَرْكَدَنَّ وَلَا عِنْدَ الفِيلِ وَلَا عِنْدَ الجَامُوسِ.  
قَالَ القَوْمُ: لَيْسَ إِلَى هَذَا البَابِ دَهْنًا، وَلَا إِلَيْهِ قِصْدَتًا، وَلَا ذَلِكَ البَابُ  
مِمَّا يَجُوزُ أَنْ تُدْخِلَهُ فِي هَذَا البَابِ، وَلَكِنَّا دَهَبْنَا إِلَى المَحَامَاةِ وَالدَّفْعِ  
عَنِ الأنْفُسِ وَالقِتَالِ دُونَ الأَوْلَادِ، وَإِلَى الامْتِنَاعِ مِنَ الأَضْدَادِ بِالحِيلَةِ

اللطفة، وبالبطش الشديد، وليس عند الخيل والإبل إذا صافت  
الأسد والثُّمور والبُّور، ما عند الجاموس والفيل، فأما الكركدَّان فإن  
كلَّ شيء من الحيوان يقصَّر عن غايته التقصيرَ الفاحش.  
إنكار الكركدن والعنقاء وما أكثر مَنْ ينكر أن يكون في الدنيا  
حيوانٌ يسمَّى الكركدَّان، ويزعمون أنَّ هذا وعنقاء مُعْرِبٍ سواء، وإنَّ  
كانوا يرون صورة العنقاء مصوَّرةً في بُسْط الملوك، واسمها عندهم  
بالفارسيَّة سيمزكُ كأنه قال: هو وحده ثلاثون طائراً، لأنَّ قولهم  
بالفارسية سي هو ثلاثون بالعربية، ومرغ بالفارسيَّة هو الطائر  
بالعربية، والعرب إذا أخبرت عن هلاك شيءٍ وبطلانه قالت: حلقت  
به في الجوّ عنقاء مغرب، وفي بعض الحديث: أنَّ بعضَ الأمم سألوا  
نبيهم وقالوا: لن نُؤمن لك حتى تفعل كذا وتفعل كذا، أو تلقي في  
فم العنقاء اللجام، وتردَّ اليومَ أمسٍ.  
شعر في العنقاء قال أبو السريِّ الشُّميطي، وهو مَعْدان المكفوف  
المديبري:

دِ وَجَدَّ الصَّبِيِّ ذِي الْخَلْخَالِ

بَعْدَ حَرْسِ مَثاقِبِ اللَّالِ

رُبَّ مَهْدٍ يَكُونُ فَوْقَ الْهَلالِ

يَا سَمِيَّ النَّبِيِّ وَالصَّادِقِ  
الْوَع

صاحبِ التُّومَةِ التي لم  
يَشْنُها

مَهْدُته العنقاءُ وهي عقيمٌ

## يَوْمَ تُصِغِي لَهُ النَّعَامَةَ وَالْأَخْنَا

## شِئْ طُرّاً لِشِدَّةِ الزَّلْزَالِ

فأهل هذه التَّحْلُةُ يثبتون العنقاء، ويزعمون أنها عقيم.  
وقال زُرارة بن أَعْيَن، مولى بني أسعد بن همام، وهو رئيس الشميطية وذكر هذا الصبي الذي تكفله  
العنقاء، فقال:

ولو شاءَ أحياءُ ربها وهو  
مذنبُ  
وقال سيكفيني الشقيقُ  
المقربُ  
وإجامه العنقاء في العين  
أعجبُ  
وذلك سرُّ لو علمناه  
معجبُ  
وملكه الأبراج والشَّمْسُ  
تُجَنَّبُ  
وقام عسيب القفر يُثني  
ويخطبُ  
عليهم بأصناف اللسائين  
مُعربُ

وأولُّ ما يحيَا نَعَاجُ  
وأكبشُ  
ولكنه ساعى بأمٍّ وجَدَّةٍ  
وأخز برهاناته قلبُ  
يومكم  
يَصيفُ بساباطٍ ويشئو  
بأمد  
أماع له الكبريت والبحرُ  
جامدُ  
فيومئذٍ قامت شماط  
بقدرها  
وقام صبيٌّ دَرَدَقُ في  
قِمَاطِهِ

فثبت زُرارة بنُ أَعْيَن قولَ أبي السَّرِيِّ في العنقاء، وزادنا تثبيت  
الكبريت الأحمر ولا أعلم في الأرض قوماً يثبتون العنقاء على  
الحقيقة غيرهم.

الكركدن قال: والذي يثبت الكركدَن أن داود النبي صلى الله عليه  
وسلم ذكره في الزُّبور حَتَّى سَمَّاهُ.  
وقد ذكره صاحب المنطق في كتاب الحيوان إلا أنه سمَّاه بِالْحِمَارِ

الهنديّ، وجعل له قرناً واحداً في وسط جبهته، وكذلك أجمع عليه  
أهل الهند كـ\_\_\_\_\_بيزهم وصـ\_\_\_\_\_غيرهم.  
وإنما صار الشكُّ يعرضُ في أمره من قبل أن الأثى منها تكون تزوراً،  
وأيام حملها ليست بأقل من أيام حمل الفيلة فلذلك قلَّ عددُ هذا  
الجنس\_\_\_\_\_س.

وتزعم الهند أن الكركدن إذا كانت ببلاذ، لم يزع شيء من الحيوان  
شيئاً من أكناف تلك البلاد، حتى يكون بينه وبينها مائة فرسخ من  
جميع جهات الأرض؛ هيبَةً له، وخضوعاً له، وهرباً منه.  
وقد قالوا في ولدها وهو في بطنها قولاً لولا أنه ظاهر على ألسنة  
الهند لكان أكثر الناس، بل كثير من العلماء، يُدخلونه في باب الخرافة  
وذلك أنهم يزعمون أن أيام حملها إذا كادت أن تتم، وإذا نضجت  
وسُجبتُ وجرت وجرى وقت الولادة، فربما أخرج الولد رأسه من  
ظببتها فأكل من أطراف الشجر، فإذا شبع أدخل رأسه، حتى إذا تمت  
أيامُه وضاق به مكائه وأنكرته الرّجِم، وضَعَّه مُطيقاً قوياً على  
الكسب والحُصر والدفع عن نفسه، بل لا يعرضُ له شيء من الحيوان  
والسباع.

## ولد الفيل

وقد زعم صاحبُ المنطق أنّ ولد الفيل يخرج من بطن أمّه نابت الأسنان، لطلول لبثه فيه في بطنها. وهذا جائز في ولد الفيل غير مُنكر، لأن جماعة نساءٍ معروفاتِ الآباء والأبناء، قد ولدن أولادهنّ ولهم أسنانٌ نابتة، كالذي رووا في شأن مالك بن أنس، ومحمد بن عجلان وغيرهما، أعاجيب الولادة وقد زعم ناسٌ من أهل البصرة أنّ خاقان بن عبد الله بن الأهم استوفى في بطن أمّه ثلاثة عشر شهراً، وقد مُدح بذلك وهجياً، وليس هذا بالمستنكر، وإن كنت لم أر قطُّ قابلاً تُقرّ بشيء من هذا الباب وكذلك الأطباء، وقد رووه كما علمت، ولكنّ العجب كلّ العجب ما ذكروا من إخراج ولد الكركدنٍ رأسه واعتلاقه، ثم إدخاله رأسه بعد الشُّبع والبطنة، ولا بدّ - أكرمك الله - لِمَا أَكَل مِنْ تَجْوٍ فَإِنْ كَانَ بَقِيَ ذَلِكَ الْوَلَدُ يَأْكُلُ وَلَا يَزُوثُ فَهَذَا عَجَبٌ، وَإِنْ كَانَ يَزُوثُ فِي جَوْفِهَا فَهَذَا أَعْجَبٌ.

وإنما جعلناه يروث حيث سمّوه حماراً، وهذا ممّا ينبغي لنا أن نذكره في خصال الحمير إذا بلغنا ذلك الباب.

ولا أُقِرُّ أَنَّ الْوَلَدَ يُخْرَجُ رَأْسَهُ مِنْ فَرْجِ أُمِّهِ حَتَّى يَأْكُلَ شَبْعَهُ، ثُمَّ يَدْخُلُ  
رَأْسَهُ مِنْ فَرْجِ أُمِّهِ، وَلَسْتُ أَرَاهُ مُحَالًا وَلَا مَمْتَنَعًا فِي الْقُدْرَةِ، وَلَا  
مَمْتَنَعًا فِي الطَّبِيعَةِ، وَأَرَى جَوَازَهُ مَوْهُومًا غَيْرَ مُسْتَحِيلٍ، إِلَّا أَنَّ قَلْبِي  
لَيْسَ يَقْبَلُهُ، وَلَيْسَ فِي كَوْنِهِ ظُلْمٌ وَلَا عَبَثٌ وَلَا خَطَأٌ وَلَا تَقْصِيرٌ فِي  
شَيْءٍ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ، وَلَمْ نَجِدِ الْقُرْآنَ يُنْكِرُهُ، وَلَا الْإِجْمَاعَ  
يُدْفَعُهُ، وَاللَّهُ هُوَ الْقَادِرُ دُونَ خَلْقِهِ، وَلَسْتُ أَبْتُ بِإِنْكَارِهِ وَإِنْ كَانَ قَلْبِي  
شَدِيدَ الْمِيلِ إِلَى رَدِّهِ، وَهَذَا مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِالْقِيَاسِ، وَلَا يَعْرِفُونَهُ  
إِلَّا بِالْعِيَانِ الظَّاهِرِ، وَالخَبْرُ الْمَتَظَاهِرِ.  
عَجِيبَةُ الدَّسَّاسِ وَلَيْسَ الْخَبْرُ عَنْهُ مِثْلَ الْخَبْرِ عَنِ الدَّسَّاسِ الَّتِي تَلِدُ  
وَلَا تَبْيِضُ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ ذَلِكَ نَاسٌ لِأَنَّ الدَّسَّاسَ لَيْسَ بِأَشْرَفِ كَالْحُفَّاشِ،  
بَلْ هُوَ مِنَ الْمَمْسُوحِ كَسَائِرِ الطَّيْرِ، وَكَاللَّوَاتِي يَبْضُنُ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ  
مِنَ الْمَائِيَّاتِ وَالْأَرْضِيَّاتِ.  
عَجَائِبُ الدُّلْفِينِ وَاللُّحْمِ وَالْكُوسِجِ وَلَيْسَ الْخَبْرُ عَنِ الْكُرْكَدَّانِ أَيْضًا  
كَالْخَبْرِ عَنِ الدُّلْفِينِ أَنَّهَا تَلِدُ وَعَنِ اللَّحْمِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْكُوسِجَ يَتَوْلَدُ  
مِنْ بَيْنِ اللَّحْمِ وَسَمَكَةٍ أُخْرَى، وَهَذَا كُلُّهُ غَيْرٌ مُسْتَحِيلٌ، إِلَّا أَنِّي لَا أَجْعَلُ  
الشَّيْءَ الْجَائِزَ كَوْنَهُ كَالشَّيْءِ الَّذِي تَثَبَّتْهُ الْأَدَلَّةُ وَيُخْرِجُهُ الْبِرْهَانُ مِنْ  
بَابِ الْإِنْكَارِ، وَالْوَاجِبُ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْفِ، وَإِنْ كَانَ الْقَلْبُ إِلَى نَقْضِ

ذَلِكَ أُمِّيَ ل\_\_\_\_\_.

والمَيْلُ أيضاً يكون في طبقات، وكذلك الظن قد يكون داخلاً في باب الإيجاب، وربَّما قَصَّرَ عن ذلك شيئاً. زعم ولادة السمك وقد زعم ناسٌ من أهل العلم أَنَّ السَّمَكَ كُلَّهُ يَلِدُ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَمَّوْا ذَلِكَ الْحَبَّ بِيضاً عَلَى التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ، لِأَنَّهُ لَا قَشْرَ لَهُ هُنَاكَ وَلَا مُحٌّ وَلَا بَيَاضَ، وَلَا غِرْقِيَّ؛ وَأَنَّ السَّمَكَةَ لَا تَخْرُجُ أَبَداً إِلَّا فَارِغَةً الْبَطْنِ أَوْ مَحْشُوءَةً، وَلَمْ نَرِ الْحَبَّ الَّذِي يَقْرُبُ مَبَالِهَا أَعْظَمَ، وَلَمْ تَرَهَا أَلْقَتْ إِحْدَى تِلْكَ الطَّوَامِيرِ وَبَقَّتِ الْآخَرَى، وَإِنَّمَا غَلَطَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ قَبْلِ ضَيْقِ السَّبِيلِ وَالْمَسَلَكِ، فَظَنُّوا أَنَّ خَرَقَ الْمَبَالِ يَضِيقُ عَنِ عِظَمِ ذَلِكَ الْجِسْمِ الْعَظِيمِ الْمَجْتَمِعِ مِنَ الْحَبِّ الصَّغَارِ، قَالُوا: فَإِنَّمَا تُخْرَجُ تِلْكَ الطَّوَامِيرَ وَاحِدًا وَوَاحِدًا، وَأَوَّلًا فَأَوَّلًا. عَجَائِبُ الْوَلَادَةِ وَمَا ذَلِكَ بِأَعْجَبَ وَلَا أَضْيَقَ مِنْ حَيَاءِ النَّاقَةِ وَالسَّقْبُ وَالْحَائِلُ يَخْرُجَانِ مِنْهُ خُرُوجًا سَلِيسًا إِذَا أَدْنَى اللَّهُ بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ وَوَلَدُهَا، وَالْفَيْلَةُ، وَالْجَامُوسَةُ، وَالرَّمَكَةُ، وَالْحِجْرُ وَالْأَتَانُ، وَالشَّاةُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِثْلُ السَّمَكَةِ. وَقَالُوا: لَا بُدَّ لِلْبَيْضِ مِنْ حَصْنٍ، وَمَتَى حَصَّنَتِ السَّمَكَةُ بَيْضَهَا لَا تَلْتَفِتُ إِلَيْهِ بِيضًا وَفِرَاحًا.

زعم العوام في الكركدن والعوامُّ تضربُ المثلَ في الشدَّة والقوَّة  
بالكركدَّن، وتزعم أنه ربما شطَّحَ الفيلُ فرفعه بقرنه الواتِد في وسط  
جَبْهته، فلا يشعُرُ بمكانه ولا يحسُّ به حتَّى ينقطع على الأيام.  
وهذا القولُ بالخرافَة أشبهه.  
مزاعم في ضروب من الحيوان وأعجبُ من القول في ولد الكركدَّن  
ما يخبرنا به ناسٌ من أهل النظر والطبِّ وقراءة الكتب، وذلك أنَّهم  
يزعمون أنَّ النمرة لا تصعُّ ولدَها أبداً إلاَّ وهو متطوِّق بأفعى، وأنها  
تعيش وتنهش، إلاَّ أنها لا تقتل، ولو كنتُ أجسُرُ في كتبي على تكذيب  
العلماء ودَرَاسِي الكتب، لبدأت بصاحب هذا الخبر.  
وليس هذا عندي كزعمهم أنَّ الأفعى تلد وتبيض، لأنَّ تأويل ذلك أنَّ  
الأفعى تتعصَّلُ ببيضها، فإذا طرَّقَتْ بالبيض تلوّت فحطمتُه في جوفها،  
ثم ترمي بتلك القشور والخرَاشِيَّ أُولاً فأولاً، كما لا بدُّ لكلِّ ذات حملٍ  
أن تُلقِي مشيِّمَتها.  
ويزعم كثيرٌ من الأعراب أنَّ الكمأة تتعفن، ويتخلَّق منها أفاعي، فهذا  
الخبرُ وإن كنت لا أتسرَّعُ إلى ردِّه فإنِّي على أصحابه ألين كنفاً.  
قرن الكركدن وأما قرن الكركدَّن فخبَّرني من رآه ممَّن أثقُ بعقله،  
وأسكن إلى خبِّره، أنَّ غلظَ أصله وسعة جسمه يكونُ نحواً من



وصنجى، وكذلك أهل البحر إذا عايثوا نباتاً أو طيراً، أيقنوا بقرب الأرض إلا أن ذلك القريب قد سمّي بعيداً، فلذلك سَلِمَ ذلك الغريقُ بمعونة ذلك الحيوانِ وان.

مسالمة الأسد للبير ومعاداته للنمر فأما الأسد والبيّر فمُتسالمان، وأما الأسد والنمر فمُتَعاديان والظفر بينهما سِجال، والنمر وإن كان ينتصف من الأسد فإن قُوته على سائر الحيوان دون قُوته على الأسد، وبدنه في ذلك أحمَلُ لَوْعِ السِّلاح، ولا يعرضُ له البيّر، وقد أيقنا أنّهما ليسا من بابتة، فلا يعرض لهما، لسلامة ناحيته وقلّة شرّه، وهما لا يعرضان له لما يعرفان من أنفسهما من العجز عنه، وأما البهائم الثلاث اللواتي ذكّرناها فإنّها فوق الأسد والنمر.

والبيّر هنديٌّ أيضاً مثل الفيل، وأما الكركدن فلا يقوم له سبعٌ ولا بهيمة، ولا يطمع فيه، ولا يروم ذلك منه.

مبارزة الجاموس للأسد وأما الجاموس والأسد فخبّرني محمد بن عبد الملك أن أمير المؤمنين المعتصم بالله، أبرز للأسد جاموسين فغلباه، ثم أبرز له جاموساً ومعها ولدها فغلبته وحمّت ولدها منه، وحصنته، ثم أبرز له جاموساً وخذّه فوآبته ثم أدبر عنه.

هذا وفي طبع الأسد الجرأة عليه، لأنّه يعدّ الجاموسَ من طعامه،

والجاموسُ يعرف نفسه بذلك، فمع الأسد من الجرأة عليه على حسب ذلك ومع الجاموس من الخوف على قدر ذلك، وفي معرفة الأسد أنّ له في فمه من السلاح ما ليس لشيء سواه، وفي معرفة الجاموس بعدم ذلك السلاح منه، فمعه من الجرأة عليه بمقدار ما مع الجاموس من التهيب له، فيعلم أنّه قد أعطي في كفه ومخالبه من السلاح ما ليس لشيء سواه، ويعلم الأسد والجاموس جميعاً أنّه ليس في فم الجاموس وبده وظلّفه من السلاح قليل ولا كثير، فمع الأسد من الجرأة عليه، ومع الجاموس من الخوف منه، على حسب ذلك، ويعلم الأسد أنّ بدنه يموج في إهابه، وأنّ له من القوة على الوثوب والصبر والحضر، والطلب والهرب، ما ليس في الجاموس، بل ليس ذلك عند الفهد في وثوبه، ولا عند السمّع في سرعة مرّه، ولا عند الأرنب في صعّداء ولا هبوط، ولا يبلغه تقزان الظبي إذا جمّع جراميزه، ولا ركض الخيل العتاق إذا أجيد إضمارها، والجاموس يعرف كل ذلك منك منه.

ومع الجاموس من التّكوص عنه بقدر ما مع الأسد من الإقدام عليه، ويعلم أنّه ليس له إلا قرنه وأنّ قرنه ليس في حدّة قرون بقر الوحش، فضلاً عن حدّة أطراف مخالب الأسد وأنيابه وأن قرنه

مُبْتَدَلٌ، لا يَصَانُ عَنْ شَيْءٍ، وَمَخَالِبُ الْأَسَدِ فِي أَكْمَامٍ وَصِوَانٍ.  
وَإِذَا قَوِيَ الْجَامُوسُ مَعَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْمَجْبُتَةِ عَلَى الْأَسَدِ مَعَ تِلْكَ  
الْأَسْبَابِ الْمَشْجَعَةِ حَتَّى يَقْتُلَهُ أَوْ يَعْرِدَ عَنْهُ، كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ تَقَدُّمًا  
فَاحْشًا، وَقَدْ عَلَاهُ عُلوًّا ظَاهِرًا، فَلِذَلِكَ قَدَّمْنَا الْجَامُوسَ وَهُوَ بِهَيْمَةٍ،  
وَقَدَّمْنَا رُؤْسَاءَ الْبَهَائِمِ عَلَى رُؤْسَاءِ السَّبَاعِ، هَذَا سِوَى مَا فِيهَا مِنْ  
الْمَرَاغِقِ وَالْمَنْفَاعِ وَالْمَعَاوِنِ.  
وَالْجَامُوسُ أَجْزَعُ خَلَقَ اللَّهُ مِنْ عَضِّ جَرَجَسَةٍ وَبِعَوْضَةٍ، وَأَشَدُّهُ هَرَبًا  
مِنْهُمَا إِلَى الْمَاءِ، وَهُوَ يَمْشِي إِلَى الْأَسَدِ رَخِيَّ الْبَالِ، رَابِطَ الْجَاشِ،  
ثَابِتَ الْجَنَانِ، فَأَمَّا الْفَيْلُ فَلَمْ يُولَدْ النَّاسُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْكِرْكَدَانِ مَا  
وَلَّدُوا مِنْ إِفْرَاطِ الْقُوَّةِ وَالنَّجْدَةِ وَالشَّهَامَةِ، إِلَّا وَالْأَمْرُ بَيْنَهُمَا مِتْقَارِبٌ  
عِنْدَهُمْ.

### مغالبة الفيل للأسد

وَالْهِنْدُ أَصْحَابُ الْبُورِ وَالْقُيُولِ، كَمَا أَنَّ الثُّوبَةَ أَصْحَابُ الزَّرَافَاتِ دُونَ  
غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَأَهْلُ غَانَةَ إِنَّمَا صَارَ لِبَاسُهُمْ جِلْوَدَ النَّمُورِ لِكَثْرَةِ  
النَّمُورِ بِهَا، إِلَّا أَنَّهَا عَلَى حَالٍ مَوْجُودَةٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ.  
وَقَدْ ذَكَرُوا بِأَجْمَعِهِمْ قُوَّةَ الْفَيْلِ الْوَحْشِيِّ عَلَى الْأَسَدِ، وَقَالُوا فِي

الفيلة الأهلية إذا لقيت عندنا بالعراق الأسد وجمعنا بينهما، قالوا: أما واحدة فإن ذكور الفيلة لا تكاد تعيش عندكم، وأنيابها التي هي أكبر سلاحها لا تنبت في بلادكم، ولا تعظم ولا تزيد على ما كانت عليه ما أقامت في أرضكم، وهي أيضاً لا تتناج عندكم، وذلك من شدة مخالفة البلدة لطبائعها ونقضها لقواها، وإنما أسرع إليها الموت عندكم للذي يعترها من الآفات والأعراض في دوركم، فاجتمعت عليها خصال، أول ذلك أنها مع الوحش وفي صميم بلادها أجراً وأقوى، وأشهم نفساً وأمضى، فلما اصطدناها بالجيل، وصيرناها مقصورة أهلية بعد أن كانت وحشية وفي غير غذائها، لأنها كانت تشرب إذا احتاجت، وتأكل إذا احتاجت وتأخذ من ذلك على مقادير ما تعرف من موقع الحاجة، فلما صارت إلى قيام العبيد عليها، والأجراء بشأنها، والوكلاء بما يصلحها دخل ذلك من النقض والخور، والخطأ والتقصير، على حسب ما تجد في سائر الأشياء، ثم لم نرض بذلك حتى نقلناها من تلك البلدة على إنكارها لتلك اللدة، فصيرناها إلى الضدِّ بعد أن كانت في الخلاف.

وقد علمنا أن سبيلها سبيل سائر الحيوان، فإن الإبل تموت ببلاد الروم وتهلك وتسوء حالها، والعقارب تموت في مدينة حمص،

والتماسيح تموت إن نُقلت إلى رِجْلة والفرات، والنَّاس يصيبهم الجَلَاءُ  
فيموتون ويتهافتون، وقد علمنا أَنَّ الرِّجْج إذا أُخرجوا من بلادهم فما  
يحصل بالبصرة عندنا منهم إِلَّا اليسير، وكذلك لو نقلوا إليكم بزر  
الْفُلْفُل والسَّاج والصَّنْدل والعُود، وجميع تلك الأَهْضام، فما امتناعُ  
نباتِ العاج ببلادكم إِلَّا كما امتناع نباتِ الآبنوس، وإن كان ينبت في  
حِـوان والآخـر فـي أرضـه.  
فلا يفتخرَنَّ مفتخر في الأسد في هذه البلدة إذا قاوم الفيل، والأسد  
ها هنا في بلاده وفي الموضع الذي تتوقَّر أموره عليه، لأنَّ أَسَدَ العراق  
هي الغاية، وأقواها أَسَدُ السَّوَادِ ثم أَسَدُ الكوفة، ولأنَّ الفَيْلَةَ عندكم  
أيضاً تَرَى عندكم السَّنَانِيرَ، وقد جَعَلَ اللهُ في طَبَعِ الفيل الهَرَبَ من  
السُّور والوَحْشَةَ منه، كما أَنَّ بعضَ شجعانِكُم يمشي إلى الأسد،  
ويقبض على التُّعْبَانِ، ولا يستطيع النَّظَرَ إلى الفأر والجرذان، حتى  
يهزَّب منها كلَّ الهرب، ويعتريه من النَّفْضَةِ واصفرار اللُّون ما لا  
يعتري المصبور على السَّيْفِ وهو يلاحظُ بريقه عند قفاه.  
خوف عبد الله بن خازم من الجرذ وذكر علي بن محمد السميري  
قال: بينما عبد الله بن خازم السُّلَمِيُّ عند عبيد الله بن زياد، إذ أُدْخِلَ  
على عبد الله جرذ أبيض لِيُعْجَبَ منه، فأقبل عبيدُ الله على عبد الله

فقال: هل رأيت يا أبا صالحٍ أعجب من هذا الجردِ قط؟ وإذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه فرخ، واصفَرَ حتى صار كأنه جرادَةٌ ذَكَرٌ، فقال عبيد الله: أبو صالحٍ يَعِصِي الرَّحْمَنَ، ويتهاوَن بالشیطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي إلى الأسد، ويلقَى الرِّمَاحَ بوجهه، وقد اعتراه من جُرَد ما ترون؟ أشهدُ أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

### خوف الفيل من السنور

وإذا عاين الفيلُ الأسدَ رأى فيه شَبَهَ السُّنُورِ، فيظنُّ أنه سنورٌ عظيمٌ فلا يبلغ منه مقدارَ تلك المناسبة، وذلك الشَّبه، ومقدارَ ذلك الظنِّ ما يبلغ رؤيةَ السُّنُورِ نفسه، وليس هربُه منه من جهةِ أنَّه طعامٌ له، وأنَّه إن ساوَرَه خافه على نفسه، وإن كان في المعنى يرجع إلى أنَّه طعامٌ لصغار السُّباع وكبارها، وهَلْ قتلَ أسدٌ قطُّ فيلاً، ومتى أكله؟ وإنَّه مع ذلك لربَّما رَكَلَه الرَّكْلَةَ، فإمَّا أنْ يَقْتُلَه، وإمَّا أنْ يذهبَ عنه هارباً في الأرض، وإمَّا أنْ يُجَلِّيَهُ.

وأية حُجَّة على الفيل في أن يرى سنوراً فينفر منه؟ فالأسدُ يُشار إليه بِشُعْلَةٍ من نار، أو يُضْرَب له بالطَّسِّتِ فيهربُ منه، فإنما هذا كنعو تفرُّع الفرس من كلِّ شيءٍ يراه في الماء وهو عطشانٌ فيأباه.

ويزعم ناسٌ من أصحاب الخيل أنّ الفرس ليس يضرب بيديه في الماء الصافي ليثورّه، لأنّ الماء الكدر أحبُّ إليه، وما هو إلا كالتور الذي يحبُّ الصافي ويختاره، ولكنه إذا وقف على الماء الصافي رأى فيه ظلّه وظلّ غيره من الأشخاص، فيفرعه ذلك، فلمعرفته بأنّ الماء الكدر لا تتصوّر فيه الصوّر يضرب بيديه، هذا قول هؤلاء، وأمّا صاحب المنطق وغيره ممّن يدّعي معرفة شأن الحيوان فإِنَّه يزعم أنّ الفرسَ بالماء الكدر أشدُّ عُجباً منه بالماء الصافي، كما أنّ الإبل لا يُعجبها الماءُ إلاّ أنّ يكون غليظاً، وذلك هو الماءُ التّمير عندهم، وإنّما تصلح الإبل عندهم على الماء الذي تصلح عليه الخيل. تداوي الحبشة والنوبة بأضراس خيل الماء وأعفاجها ويزعم من أقام ببلاد السودان أنّ الذين يسكنون شاطئ النيل من الحبشة والنوبة، أنهم يشربون الماء الكدر، ويأكلون السمك التّيء فيعتريهم طحالٌ شديد، فإذا شدّوا على بطونهم ضرّساً من أضراس خيل الماء وجدّوه صالحاً لبعض ما يعرض من ذلك، ويزعمون أنّ أعفاج هذا الفرس تُبرئ من الصّرع الذي يكون في الأهلية. دفاع صاحب الأسد وقال بعض من ينصّر الأسد: إنّ الأسد في الهند أضعف، بل هي ضعيفة جدّاً، والفيل في بلادهم أقوى، والوحشي منها

أجراً، والمغتم لا يقوم له إلا الكركدّان؛ وإنه ليهجم عليه فيحجم عنه حتى تذهب عنه سكرة العُلْمَة، فيرجع إلى معرفة حال الكركدّان فلا يَطُور طَوارَه، ولا يحلُّ بأَدانِي أرضه. وأما الفيل فإذا كان غير هائج والأسد في غير أَيّام هِياجِه ثم يكون الأسد عِراقِيّاً ويكون سَوايِياً ويكون من أَجمَة أُبزيقيا فإنَّ الفيل لا يقوم له.

### قول صاحب الفيل

وقال صاحب الفيل: الفيل لا يُعاینُ أسداً أُبزيقياً حتى تفسخه البلدة، وتهدمه الوحشة، ويُمرضه الغداء، ويُفسده الماء، وهو لا يصل إلى ذلك المكان حتى يجمع بينه وبين ذلك الأسد، وحتى يسمع تجاؤب السنانير وتَصاغِياها - وهو أسمعُ من قُراد - فيغيب ذلك في صدره، وتتزايد تلك الوحشة في نفسه، فمتى رأى أسداً قائماً فرَبَّما دَعته الوحشة منه، والبغض المجعول فيه، إلى الصُّدود والذَّهاب عنه، فيظنُّ كثيرٌ من الناس أنَّ ذهابه هَرَب، وأنَّ صدوده جُبْن، وإنَّما هو من الوحشة منه، والكراهة لمنظرته، وربَّما اضطرَّه الأسدُ بحُرِّقه حتى يُنقِصَ حِلْمه، ويُغلب وقاره، فيخبطه حَبطةً لا يُفلح

بعدها أبدأ.

فخر صاحب فرس الماء قال صاحبُ الفَرسِ: زعمتم أنَّ الأسدَ في الأرض كالعقاب في الهواء، وكالتمساح في الماء، وأنَّ تمساحاً وأسداً اعتلجا على شريعةٍ فقتلَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، وكانَ التمساح ضرب الأسد بذنبه في الشريعة، وضغَمَ الأسدُ رأسَه فماتا جميعاً.

قال: والفرسُ المائيُّ بالتَّيْلِ يَقْتُلُ التَّماسيحَ ويقهَرُها ويأكلها ولا يُساجلُها الحرب، ولا تَقَعُ بينهما مغالَبَةٌ ومجادَبَةٌ، وتكون الأيام بينهما دُولاً، فهذه فضيلةٌ ظاهرة على الأسد، وشرفُ فرس الماء راجعٌ إلى فرس الأرض، فإنَّ كان فرسُ الأرض لا يقوى على الأسد ولا على النمر ولا على الببْر، فإنَّ ابنَ عمِّه وشكله في الجنسِ قد قويَ على التَّمساح وهو رئيسُ سُكَّانِ الماء. قالوا: أمَّا واحدة فإن التمساح ليس برئيسِ سُكَّانِ الماء إلا أن تَرِيدَ بعضَ سكانِ الأودية والأنهار والخُلجان والبُحَيْرَاتِ في بعض المياهِ العذبة، والكوسج واللُّحْمَ والسَّرَطَانَ والدُّلْفِينَ وصَرُوبٌ من السباع مما يعايشُ السَّمَكَ ليس التمساح من بابه، وعلى أن التمساح إنما يأكله ذلك الفرسُ وهو في الماء، وليس للتمساح في جوف الماء

كبير عملٍ إلا أن يحتمل شيئاً بذنبه ويحتجته إليه، ويدخله الماء، وربّما خرج إلى الأرض للسّفاد ولحصن البيض، فلا يكونُ على ظهر الأرض شيءٌ أذلُّ منه، وذلك على ظهر الأرض شبيهٌ بذلِّ الأسد في وسط الماء العَمْر، ولعمري أنّ لو عَرَضَ له هذا الفرسُ في الشرائع فغلبه لقد كان ذلك من مفاخره، فلذلك لم تُذكر الخيل في باب الغلبة، والقتال والمساجلة، والانتصاف من الأعداء. والفرس قد يُقاتل الفرسَ في المُرُوج إذا أراد أن يحميَ الحُجُور، كما يحمي العيرُ العانة ويقاقل دونها كلَّ عيرٍ يريد مشاركتَه فيها، وهذا شيءٌ يعرض لجميع الفُحولة في زمن الهيج. وقد يصولُ الجملُ الجملَ فرّبما قتلَ أحدهما صاحبه، ولكنَّ هذه الفُحولة لا تعرضُ لشيءٍ من الحيوان في غير هذا الباب. وإن أرادَ الفرسَ أسدً، فليس عنده من إحراز نفسه وقَتْلِ عدوّه ما عند الجاموس، فإنَّ فضله الجاموسُ بقَرنيه، فإن السِّلَاح الذي في قَمِ القَرس لو استعمله لكان سِلاحاً، ولو استدبَّرَ الأسدَ فركله ورَمَحَه وعَصَّه بفيه، لكان ذلك ممّا يدفع عنه ويحمي لحمه. وليس للجاموس في أظلافه وفي يديه ورجليه وفي فمه سلاح، فقد دلت الحالُ على أنّ مدارَّ الأمرِ إنّما هو في شجاعة القلب.

وفي هذا القياس أَنَّ الصَّقْرَ إِنَّمَا يُوَاثِبُ الكُرْكِيَّ لِمَكَانِ سِلَاحِهِ دُونَ شِجَاعَةِ القَلْبِ الَّتِي يَقْوَى بِهَا الضَّعِيفُ، وَبِخِلَافِهَا يَضْعُفُ القَوِيُّ. وَسَاقَرَّبَ ذَلِكَ عِنْدَكَ بَعْضَ مَا تَعْرِفُهُ، لَا تَشْكُ أَنَّ الهَرَّ أَقْوَى مِنَ الهَرَّةِ فِي كُلِّ الحَالَاتِ، حَتَّى إِذَا سَفِدَهَا فَحَدَّثَتْ بَيْنَهُمَا بَغْضَاءً وَمُطَالَبَةً حَدِثَتْ لِلهَرَّةِ شِجَاعَةٌ وَلِلهَرِّ ضَعْفٌ، فَصَارَتِ الهَرَّةُ فِي هَذِهِ الحَالِ أَقْوَى مِنْهُ، وَصَارَ الهَرُّ أضعفَ، وَلَوْ لَا أَنَّهُ يُمَعِنُ فِي الهَرَبِ غَايَةَ الإِمْعَانِ ثُمَّ لِحَقَّتْهُ، لِقَطَعْتَهُ وَهُوَ مُسْتَحْذٍ. وَمِثْلَ ذَلِكَ أَنَّ الجُرْدَ يُحْصَى وَيُرْمَى بِهِ فِي أَنَابِيرِ التَّجَارِ وَفِي الأَقْرِحَةِ وَالبِيَادِرِ، فَلَا يَدْعُ جُرْدًا ضَحْمًا قَدِ أَعْيَا الهَرَّ وَابْنَ عِرْسٍ إِلَّا قَتَلَهُ، وَإِنْ كَانَ أعْظَمَ مِنْهُ وَأَشَدَّ. وَالحَصِيُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أضعفُ قُوَّةً مِنَ الفَحْلِ إِلَّا الجُرْدَ، فَإِنَّهُ إِذَا حُصِيَ أَحْدَثَ لَهُ الخِصَاءَ شِجَاعَةً وَجَرَاءَةً، وَأَحْدَثَتْ لَهُ الشَّجَاعَةَ قُوَّةً وَأَحْدَثَ عِلْمَ الجُرْدَانِ بِحَالِ الخِصَاءِ لَهَا جُبْنًا، وَأَحْدَثَ الجُبْنَ لَهَا ضَعْفًا.

وَالرَّجُلُ الشَّدِيدُ الأَسْرُ قَدْ يَفْرَعُ فَتَنْحَلُّ قُوَاهُ، وَيَسْتَرُخِي عَصْبُهُ حَتَّى يَضْرِبَهُ الصَّبِيُّ، وَالدَّئِبُ القَوِيُّ مِنْ ذَنَابِ الخَمْرِ يَكُونُ مَعَهُ المَذئِبُ الضَّعِيفُ مِنْ ذَنَابِ البَرَارِيِّ، فَيَصِيبُ القَوِيَّ خَدَشٌ يَسِيرٌ، فَحِينَ يَشْمُ



جميع أقسام الخير في شخصٍ واحد، ولكن لما أن كان الفرس عليه  
تقاتل الأنبياءُ وأتباع الأنبياء، ملوك الكفار وأتباع ملوك الكفار حتى  
يقمع الله الباطلَ ويظهر الحقَّ؛ فلذلك قدّمناه على جميع البهائم  
والسباع، وإنما نُقدّمه على الوجه الذي قدّمه الله فيه.  
الرد على صاحب فرس الماء واعترض على أصحاب فرس الماء  
معترضون فقالوا: الفرس لا يكون إلاً بهيمة، والبهائم لا تصيد وتأكل  
صيدها، وإنما طعامُ الفرسِ النَّباتُ وليس اللحمُ لها بطعام، وقال  
النمر بن تولب:

تُطعمُها اللحمَ إذا عَزَّ  
الشَّجَرُ

والخيلُ في إطعامها اللحمَ  
صَرَرُ

في كلمته التي يقول فيها:

اللَّهُ من آياته هذا القمرُ

وقد تُعلف في تلك الحالات اللحمَ اليابس وهسيس السمك، فأما الهسيس فلخول أهل الأسياف  
خاصة.

الرد على صاحب فرس الماء قيل لهؤلاء المعترضين على فرس الماء: وقد يكون في الخلق  
المشترك وغير المشترك ما يأكل اللحمَ والحَبَّ، فالمشترك مثلُ الإنسانِ الذي يأكل الحيوان والنبات،  
وهذا العصفور من الخلق المشترك لأنه يأكل الحَبَّ، وبصطاد النمل الطيار والأرضة فيأكلها، ويأكل  
اللحم، والدجاجُ تأكل اللحمَ والدَّيدان، وتحسُّو الدَّمَّ وتلقط الحَبَّ، والغراب لا يدعُ شيئاً إلاً أكله.  
وما خرج من حدِّ المشترك وهو كنعو الدُّبِّ والصَّيغ، وكنحو الشَّاهين والصَّقر، فإنَّ هذه وأشباهها لا  
تعرفُ إلاً اللحمَ، والحمامُ وضروبُ من الطيرِ لا تعرفُ إلاً الحَبَّ والنَّبات، والمشتركُ أجمَعُ مما هو غير  
مشترك.

والسمكة تأكل الطين والنَّبات، وتأكل الجيف التي تصيب في الماء، وتُصاد بضروبٍ من الحيوان تُجعل

لها في الشُّصوص، ثم ينصبون لكلِّ ضربٍ من السَّمكِ بضربٍ من الطُّعم.  
والجِرِّيُّ يأكل الجردانَ ويصيدها، وهو آكلٌ لها من السنابير والحيات والكلابِ السَّلوقية، وبأكلِ الجِرِّيِّ  
جميعَ جيفِ الموتى، والسَّمكُ يأكل السَّمكَ وبأكلٍ من كلِّ حَبِّ ونبات يسقط في الماء.  
وإن استفهمَ مستفهمٌ، أو اعترض معترضٌ فقال: وكيف يأكل الجِرِّيُّ الجردان، والجردانُ أرضيَّة  
بيوتية، والجِرِّيُّ مائي؟ قيل له: يخبرنا جميعٌ من يبيث في السُّفن وفي المشارع، في فيض البصرة  
عندنا، أن جردان الأنابير تخرُجُ أرسالاً بالليل كأنها بناث عرس، والجِرِّيُّ قد كَمَنَ لهنَّ وهو فاتحُ فاه،  
فإذا دنا الجردُ من الماء فعَبَّ فيه التهمه ليس دون ذلك شيء، بشجرٍ فَمٍ واسعٍ يدخُلُ في مثله الضبُّ  
الهرم، وإنما يصَّاع بخطمه على السُّريرة.  
وسنذكر شيئاً من الطُّرف والحكم والأشعار، إذ كُنَّا قد ذكرنا من الكلام في الحيوان صدراً صالحاً،  
وأبواباً جامعةً، ثم نعود في ذكر الفيل إن شاء الله، والله الموقِّق.  
شيء من الطُّرف والحكم والأشعار قال الشاعر:

مَعَ الْغَيْثِ مَا تُلْقَى وَمَنْ هُوَ  
غَالِبُ  
حُطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا  
فَنَضَارِبُ  
وَتَقْصُرُ عَمَّا يَبْلِغُونَ  
الدَّوَابُّ

وَنَحْنُ أَنْاسُ لَا حِجَارَ  
بِأَرْضِنَا  
وَأِنْ قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ  
وَصَلُّهَا  
تَرَى كُلَّ قَوْمٍ يَنْظُرُونَ  
إِلَيْهِمْ

مثل قول الآخر:

وَلَيْسَ إِلَيْنَا فِي السَّلَامِ  
مَطْلَعُ  
وَكُلُّ حِجَارٍ إِنْ هَبَطْنَاهُ  
بَلَقَعُ  
إِلَى وَحْشِنَا وَحْشُ الْبِلَادِ  
فَيَرْبِعُ

لِكُلِّ أَنْاسٍ سُلْمٌ يُرْتَقَى  
بِهِ  
وَمَنْزِلُنَا الْأَعْلَى حِجَارٌ لِمَنْ  
بِهِ  
وَيَنْفِرُ مِنْ كُلِّ وَحْشٍ  
وَيَنْتَمِي

وقال حسان بن ثابت:

إِذَا رَاحَ فَصْفَاضَ الْعَشِيَّاتِ  
خِصْرُمَا  
وَلَمْ أَلِكْ عِصًّا فِي النِّدَامِي

وَتِدْمَانِ صِدْقٍ تَقَطَّرَ الْخَيْرَ  
كَفَّهُ  
وَصَلْتُ بِهِ كَفِّي وَخَالَطَ

مُلُومًا  
شماريخُ رَضُوى عِزَّةً  
وتكْرَمًا

شِيمَتِي  
لنا حاضِرُ فَعْمٌ وبارٍ  
كأنه

فأكْرِمُ بنا خالاً وأكْرَم بنا  
ابنما  
وأسيافُنا يقطِرَن من نَجْدَةٍ  
دَمًا

ولَدنا بني العَنْقاءِ وابْنِي  
محرِّقٍ  
لنا الجَفَناتُ العُرُّ يَلْمَعَن  
في الصُّحَى  
وقال أعرابيُّ غزليُّ:

يَبْعَضُ الأَدَى لم يَدْرِ كيف  
يُجِيبُ  
به سَكْتُهُ حَتَّى يُقالُ  
مُرِيبُ

بنفسي وأهلي مَن إذا  
عَرَضُوا له  
ولم يعتدِرْ عُذْرَ البريء ولم  
تَرَلْ  
وقال أعرابيُّ من هذيل:

وللَّهِ أن يَسْقِيكَ أَوْلَى  
وأوسَعُ  
أخافُ وأرجو والذي أتوَفَعُ

رَعاكِ ضمانُ اللهِ يا أمَّ  
مالكِ  
يُذَكِّرُنيكَ الخَيْرُ والشَّرُّ  
والذي  
قطعة من أشعار الاتعاض  
قال الشاعر:

وما ليس يُعْنيكَ عنه فَدَرُ  
مِنَ القَوْلِ في حَظَلٍ أوْ  
هَدَرُ  
فَعادَ وأودَى الذي في  
الحَصْرُ  
نَ مالٍ إلى عِطْفِهِ فانقَعَرُ  
فإنَّ القَناءَ شائُهُ وَالكِبَرُ  
تعلَّقَهُ الدَّهْرُ حتى عَتَّرُ

عليكَ مَنَ امْرِكَ ما  
تستطيع  
وللصَّمْتِ أجْمَلُ في حِينِهِ  
وكم غائبٍ كانَ يَخشى  
الرَّدى  
وبينا الفتى يُعْجَبُ  
النَّاظري  
وبعضُ الحوادثِ إن يُبْقِه  
وكم من أخي نَجْدَةٍ ماهِرٍ

وكم من أخي عشرة مُقْتِرٍ  
وقال علقمة بن عبدة:

تَأْتِي لَهُ الدَّهْرُ حَتَّى انْجَبَزَ

وَكُلُّ قَوْمٍ وَإِنْ عَزُّوا وَإِنْ  
كُتُّوا  
وَالْحَمْدُ لَا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ  
ثَمْنٌ  
وَالْجَهْلُ مَنْقَصَةٌ شَيْنٌ  
لِصَاحِبِهِ  
وَكُلُّ حِصْنٍ وَإِنْ طَالَتْ  
سَلَامَتُهُ  
وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْغُرَبَانِ  
يَرْجُرُهَا  
وَمُطْعَمُ الْعُنْمِ يَوْمَ الْعُنْمِ  
مُطْعَمُهُ

عَرِيفُهُمْ بِأَثَافِي الشَّرِّ  
مَرْجُومٌ  
مِمَّا يَصْنُ بِه الْأَقْوَامُ  
مَعْلُومٌ  
وَالْجِلْمُ آوِنَةٌ فِي النَّاسِ  
مَعْدُومٌ  
عَلَى دَعَائِمِهِ لَا بَدَّ مَهْدُومٌ  
عَلَى سَلَامَتِهِ لَا بُدَّ  
مَشْوُومٌ  
أَنْتَى تَوَجَّهَ وَالْمَحْرُومُ  
مَحْرُومٌ

وقال عديُّ بن زيد العبادي، وهو أحدٌ من قد حُمِلَ عَلَى شعره الحَمْلُ الكثير، ولأهل الجيرة بشعره

عناية، وقال أبو زيد النحوي: لَوْ تَمَيَّتْ أَنْ أَقُولَ الشُّعْرَ مَا قَلْتُ إِلَّا شِعْرَ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ:

كَفَى زَاجِرًا لِلْمَرْءِ أَيَّامُ  
عَمْرِهِ  
فَنَفْسِكَ فَاحْقَظْهَا مِنَ الْغِيِّ  
وَالرَّذَى  
فَإِنْ كَانَتِ النَّعْمَاءُ عِنْدَكَ  
لَا مَرِيئَ  
عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَأَبْصِرْ  
قَرِيبَهُ  
سُدْرِكَ مِنْ ذِي الْجَهْلِ  
حَقِّكَ كُلَّهُ  
وِظْلَمِ ذَوِي الْقَرَبَى أَشَدَّ  
عِدَاوَةً  
وَفِي كَثْرَةِ الْأَيْدِي عَنِ  
الظَّلْمِ زَاجِرٌ

تَرُوحُ لَهُ بِالْوَاعِظَاتِ  
وَتَغْتَدِي  
مَتَى تُغْوِهَا تُغْوِ الَّذِي بَكَ  
يَقْتَدِي  
فَمَثَلًا بِهَا فَاجِزِ الْمُطَالِبِ  
أَوْ زِدِ  
فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالْمَقَارِنِ  
مُقْتَدِي  
بِحَلْمِكَ فِي رِفْقٍ وَلَمَّا  
تَشَدَّدِ  
عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ  
الْحُسَامِ الْمَهْدِ  
إِذَا خَطَرَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ  
بِمَشْهَدِ

قال المهلب بن أبي صفرة: عَجِبْتُ لِمَنْ يَشْتَرِي المَمَالِيكَ بِمَالِهِ كَيْفَ لَا يَشْتَرِي الأَحْرَارَ بِمَعْرُوفِهِ.  
 وقال عبد الله بن جعفرٍ لرجلٍ يُوصِيهِ: عَلَيْكَ بِصُحْبَةِ مَنْ إِنْ صَحِبْتَهُ رَأَيْتَكَ، وَإِنْ تَرَكَتَهُ شَأْتَكَ؛ إِنْ سَأَلْتَهُ  
 أَعْطَاكَ، وَإِنْ تَرَكَتَهُ ابْتَدَاكَ؛ إِنْ رَأَى مِنْكَ سَيِّئَةً سَدَّهَا، وَإِنْ رَأَى حَسَنَةً عَدَّهَا؛ وَإِنْ وَعَدَكَ لَمْ يُجْرِضْكَ  
 وَإِنْ أَلْجَأَكَ إِلَيْهِ لَمْ يَرْفُضْكَ.  
 وسأل يزيد بن المهلب رجلٌ من أصحابه حاجةً ودَكَرَ لَهُ حَلَّةً، فَقَالَ: أَوْجَّهْ بِهَا إِلَيْكَ، ثُمَّ حَمَلَ إِلَيْهِ  
 خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ: قَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْكَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، لَمْ أَذْكَرْهَا تَمْتُّنًا، وَلَمْ أَذْغُ  
 ذِكْرَهَا تَجْبُرًا، وَلَمْ أَقْطَعْ بِهَا لَكَ رَجَاءً، وَلَمْ أُرِدْ بِهَا مِنْكَ جَزَاءً.  
 وقيل ليزيد: مَا أَحْسَنُ مَا مُدِحْتَ بِهِ؟ قَالَ: قَوْلُ زِيَادِ الأَعْجَمِ:

فَتَى زَادَهُ السُّلْطَانُ فِي  
 الحَمْدِ رَغْبَةً  
 شَبِيهٌ بِقَوْلِ الأَخْرَى:  
 فَتَى زَادَهُ عِزُّ المَهَابَةِ ذِلَّةً  
 وَقَالَ الأَخْرَى، وَهُوَ يَدْخُلُ فِي بَابِ الشُّكْرِ:  
 إِذَا غَيَّرَ السُّلْطَانُ كُلَّ  
 خَلِيلٍ  
 وَكُلَّ عَزِيزٍ عِنْدَهُ مَتَوَاضِعُ

شَوْقِي إِلَيْكَ يَا أبا العَبَّاسِ  
 إِنِّي لِمَعْرُوفِكَ غَيْرُ نَاسِ  
 طَيَّرَ مَا أُبَلَيْتَنِي نُعَاسِي  
 وَالشُّكْرُ قَدِمًا فِي خِيَارِ  
 النَّاسِ  
 أبيات لبعض الشعراء العميان أنشدني ابن الأعرابي لرجلٍ من بني فُريعٍ يَرْتِي عَيْنَهُ وَيَذْكَرُ طَيِّبًا:

لَقَدْ طُفْتُ شَرْقِيَّ البِلَادِ  
 وَعَزَبْتُهَا  
 يَقُولُونَ إِسْمَاعِيلُ نَقَابُ  
 أَعْيُنِ  
 يَقُولُونَ مَاءُ طَيِّبِ خَانَ  
 عَيْنَهُ  
 وَلَكِنَّهُ أَيَّامَ أَنْظُرُ طَيِّبُ  
 كَأَنَّ ابْنَ حَجَلٍ مَدَّ فَضْلُ  
 جَنَاحِهِ  
 فَأَعْيَا عَلَيَّ الطَّبُّ  
 وَالمَتَطَيَّبُ  
 وَمَا خَيْرَ عَيْنٍ بَعْدَ تَقَبِّ  
 بِمَثَقَبِ  
 وَمَا مَاءُ عَيْنِ خَانَ عَيْنًا  
 بِطَيِّبِ  
 بَعِيَّتِي قُطَامِيَّ عَلَا فَوْقَ  
 مَرْقَبِ  
 عَلَى مَاءِ إِنْسَانِيهِمَا مَاءُ  
 طَحْلَبِ

وقال الخُرَيْمِيُّ:

من القرب إلا بالتكفُّ  
والجهدِ  
ليعدلني قبل الإجابة في  
الردِّ  
بي النفس حتى ما أجير  
وما أبدي  
فإن لم يحولوا عن وفاءٍ ولا  
عهدِ  
من الناس إلا كلُّ ذي مِرَّةٍ  
جلدِ

كفى حزناً أن لا أزورَ  
أحبتي  
وأتي إذا حُييت ناجيئُ  
قائدي  
إذا ما أفاضوا في الحديث  
تقاصرتُ  
كأنني غريبٌ بينهم لستُ  
منهمُ  
أقاسي خطوباً لا يقوم  
بثقلها

باب في الحاجة قال ابن الأعرابي: قيل للأحنف: أتيك في حاجة، لا تترزوك ولا تنكوك، فقال: ليس  
مثلي يُؤتى في حاجتي لا ترزأ ولا تنكأ.  
وقال أعرابي لرجل: إني لم أضن وجهي عن الطلب إليك، فصن وجهك عن ردي، وأنزلي من كرمك  
بحيئت وجهي من رجائك.  
وقال أبو عقيل بن دُرست: لم يقض زمام التأميل، ولم يقم بحرمة الرجاء إلا من أعطاها حقها،  
ووقاها حطها، وعرف قدرها، وكيف يستبقي النعمة فيها، وكيف الشكر على أداء حقها، بالبشر عند  
المسألة، وقلة التضجر عند المعاودة، وتوكيد الصمان عند العدة، وانتهاز الفرصة عند القدرة، ويكون  
الشج المعجل أحب إليه من عذر المصدق، وحتى يرى أن حقك عليه في بذل وجهك إليه أكثر من  
حقه عليك في تحقيق أملك فيه، ثم إيجاب سترها، فإن سترها هو المخبر عنها، والدال عليها، والزائد  
في قدرها، والمتولي لسترها.

وقال الشاعر:

وإن مناً بها يكدرها

فإن إحياءها إماتتها

باب في الوعد والوفاء به والخلف له قال عمرو بن الحارث: كنت متى شئت أن أجد صفة من يعد  
ويُنجز وجده، فقد أعيناني من يعد ولا ينجز.  
وقال أبو إسحاق النظام: كئنا نلهو بالأمني، وتطيب أنفساً بالمواعيد، فذهب من يعد، وقطعنا الهوم  
عن فضول الأماني.

وقال الشاعر:

قد بلوناك بحمد الله إن  
أغنى البلاء

فإذا جُلُّ مواعيدك والجحدُ  
سواءً

وقال أعرابي: وعُدُّ الكريم نقدٌ وتعجيل، ووعد اللئيم مَطْلٌ وتعطيل.  
وذمَّ أعرابيُّ رجلاً فقال: إذا أُوْعِدَ صدق، وإذا وُعِدَ كذب، وبغضبٍ قبل أن يُشتم، وبجزمٍ قبل أن يَعْلَم.  
وقال عبدُ الله بنُ قيس الرقيّات:

اِحْتَرْتُ عَبْدَ الْعَزِيزِ مَرْتَبَا  
مِنَ الْبِهَالِيلِ مِنْ أَمِيَّةٍ يَزُ  
جَاءَتْ بِهِ حُرَّةٌ مَهْدَبَةٌ  
هُنَّ الْعَرَائِينُ مِنْ قِضَاعَةٍ

وَاللَّهُ لِلْمَرْءِ خَيْرٌ مَنْ قَسَمَا  
دَادُ إِذَا مَا مَدَحْتَهُ كَرَمَا  
كَلْبِيَّةٌ كَانَ بَيْتُهَا رِعْمَا  
ثَالُ بَنِيهِنَّ تَمْنَعُ الدَّمَمَا

تُكِنُّهُ خِرْقَةُ الدَّرْفَسِ مِنْ  
الشَّم

سِ كَلَيْثٍ يُفَرِّجُ الْأَجْمَا

يُقَوُّ شِبْلَيْنِ فِي مَغَارِهِمَا  
لَمْ يَأْتِ يَوْمٌ إِلَّا وَعِنْدَهُمَا  
فَذَاكَ أَشْبَهْتُهُ ابْنَ لَيْلَى وَلِ  
مَنْ يَهَبُ الْبُحْتِ  
وَالْوَلَائِدُ كَالِ  
يُنْكَرُ لَا إِنْ لَا  
لَمَنْكَرَةٌ

قَدْ نَاهَرَا لِلْفِطَامِ أَوْ قُطِمَا  
لَحْمُ رِجَالٍ أَوْ يَوْلَغَانِ دَمَا  
كَنَّ ابْنُ لَيْلَى يَفُوقُهُ شِيْمَا  
غِرْلَانٍ وَالْخَيْلَ تَعْلِكُ  
اللُّجْمَا  
مِنْ فِيهِ إِلَّا مُخَالِفَا  
نَعْمَا

وقال زيادة بن زيد:

إِذَا فُرْجَةٌ سَدَّتْ عَلَيْكَ  
فَرُوجَهَا

فَأَنْتَ مُلَاقٍ لَا مَحَالَةَ  
مَذْهَبَا

فَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ الْأُمُورَ إِذَا  
اِغْتَدتْ

عَلَيْكَ رِتَاجًا لَا يُرَامُ مُضَبَّبَا

كَفَاكَ الْغِنَى يَوْمًا إِذَا مَا  
تَقَلَّبْتُ

بِهِ صَيْرَفِيَّاتُ الْأُمُورِ تَقَلَّبَا

وَإِنِّي لَمَرْوُورٌ قَلِيلٌ تَقَلُّبِي

لَوْجِهِ امْرِيٌّ يَوْمًا إِذَا مَا  
تَجَنَّبَا

قَلِيلٌ لِيَوْمِ الشَّرِّ وَوَيْكَ  
تَعَرُّضِي

فَإِنْ حَلَّ يَوْمًا قَلْتُ لِلشَّرِّ  
مَرْحَبَا

مَلَكْنَا وَلَمْ نُمَلِّكَ وَقُدْنَا وَلَمْ  
نُقَدِّ

وقال هُدْبَةُ الْعُدْرِيَّةُ:

وَكَانَ لَنَا حَقًّا عَلَى النَّاسِ  
نُرْتَبًا

فَأَبَّ بِي إِلَى خَيْرٍ فَقَدِ  
فَاتَنِي الصَّبَا  
أُمُورٌ وَأَلْوَانٌ وَحَالٌ  
تَقْلِبْتُ  
أَصَبْنَا بِمَا لَوْ أَنَّ سَلَمَى  
أَصَابَهُ  
فَإِنْ نَنُجُّ مِنْ أَهْوَالٍ مَا خَافِ  
قَوْمُنَا  
وَإِنْ غَالْنَا دَهْرٌ فَقَدْ غَالِ  
قَبْلَنَا  
وَذِي تَيْرٍ قَدْ عَابَنِي  
لِيْنَآلِنِي  
فَإِنْ يَكُ دَهْرٌ نَالِنِي  
فَأَصَابَنِي  
فَلَسْتُ إِذَا الصَّرَاءُ نَابَتْ  
بِحُبَّآ

وَصِيحَ بَرِيْعَانَ الشَّبَابِ  
فَنُقِرَّا  
بِنَا وَزَمَانٌ عُرْفُهُ قَدْ  
تَنَكَّرَا  
لَسَهَّلَ مِنْ أَرْكَانِهِ مَا  
تَوَعَّرَا  
عَلَيْنَا فَإِنَّ اللَّهَ مَا شَاءَ  
يَسَّرَا  
مَلُوكَ بَنِي نَضْرٍ وَكِيسَرِي  
وَقَيْصَرَا  
فَأَعْيَا مَدَاهُ عَنْ مَدَائِي  
فَقَصَّرَا  
بَرِيْبٍ فَإِنْ تُشْوِي الْحَوَادِثُ  
مَعَشَّرَا  
وَلَا جَزِعِ إِنْ كَانَ دَهْرٌ  
تَغَيَّرَا

وكان هُدْبَةُ هذا من شياطين عُذْرَةَ، وهذا شعره كما ترى، وقد أُمِرَ بضرب عنقه وشدَّ خنَاقه، وقليلًا ما ترى مثلَ هذا الشَّعر عند مثل هذه الحال؛ وإنَّ امرأً مجتمَعَ القلب، صحيحَ الفكر، كثيرَ الرين، عَصَبَ اللِّسان في مثل هذه الحال، لَتَاهِيكَ به مطلقاً غير موثق، وإدعاً غير خائف، ونعوذ بالله من امتحان الأخيار.

وهو القائلُ في تلك الحال:

إِذَا مَا مَضَى يَوْمٌ وَلَا اللُّومُ  
مَرَجَعَا  
وَلَا قِي الْمَنَايَا مَصْعَدَا  
وَمَفْرَعَا  
نَصِيبَ الْفَتَى مِنْ مَالِهِ مَا  
تَمْتَعَا

فَلَا تَعْذِلْنِي لَا أَرَى الدَّهْرَ  
مَعْتَبَاً  
وَلَكِنْ أَرَى أَنَّ الْفَتَى عَرْضَةُ  
الرَّدَى  
وَإِنَّ التَّقَى خَيْرُ الْمَتَاعِ  
وَإِنَّمَا

أغم القفا والوجه ليس  
بأنزعا  
إذا القوم هشوا للفعال  
تقنعا  
زيالك يوماً كان كالدهر  
أجمعا  
ومجداً قديماً طالما قد  
ترفعا  
ولا قاطعاً عرقاً سنونا  
وأخدعا  
ولا حين جد الشر ممن  
تخشعا  
إذا ما رأني فاتر الطرف  
أخشعا

فلا تنكحي إن فرق الدهر  
بيننا  
ضروبا للحيه على عظم  
زوره  
وأخرى إذا ما زار بيتك  
زائر  
سأذكر من نفسي خلائق  
جمّة  
فلم أر مثلي كماوياً  
لدوائه  
وما كنت ممن أرث الشر  
بينهم  
وكنت أرى ذا الضغن ممن  
يكيدني

وما قرأت في الشعر كشعر عبد يغوث بن صلاءة الحارثي، وطرفة بن العبد، وهديبة هذا، فإن  
شعرهم في الخوف لا يقصّر عن شعرهم في الأمن، وهذا قليل جداً.  
من أشعار الأعراب أنشدني ابن الأعرابي في معنى قوله:

كمخض الماء ليس له  
إناء  
ولكن أساءت همة من  
فتى مخض  
لكالمرتجي زبداً من  
الماء بالمخض

وما كان مثلي يعتريك  
رجاؤه  
وإني وإشرافي إليك  
بهمتي

وقال الآخر في مثل قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة:

تسير مع الركبان أبردها  
يغلي  
كمثلك إني مبتغ صاحباً  
مثلي  
إذا لم يؤلف روح شكل  
إلى شكل

فلولا اتقاء الله قلت  
مقالة  
ابن لي فكن مثلي أو ابتغ  
صاحباً  
ولا يلبث الأصحاب أن  
يتفرقوا

فقال:

وَقَرَّةُ عَيْنِ الْقَسَلِ أَنْ يَتَّبِعَ  
الْقَسَلَا  
وَيَنْدُلُّ أَنْ تَلْقَى أَخَا أُمَّهِ  
تَدْلَا

لكلِّ امرئٍ شكلٌ يقرُّ  
بعينه  
وتعرف في جودِ امرئٍ  
جودَ خاله

وفي غير هذا الباب يقول الجرنفس اللص:

فقد أتى لك من نبيءٍ  
بأنصاجٍ  
والليل في جوفٍ منحوتٍ  
من السجاج

أبلغ بني ثعلٍ عني  
مغلغلةً  
أما النهار ففي قيدٍ  
وسلسلةٍ

وقال بعض اللصوص:

وهجر حبيبٍ إنَّ دَا لعظيمُ  
على عشرٍ ما بي إنَّه لكريمُ

أقيدُ وحبسُ واعترابُ  
وفرقةُ  
وإن امرأً دامت مَواثيقُ  
ودَّه

ومن المرثي المستحسنة قولُ حارثة بن بدر الغداني، يرثي زياداً ابن أبيه:

وإنَّ من عَرَّتِ الدُّنْيَا  
لمغرورُ  
وكان عندك للتكراء  
تنكيرُ  
إن كان قبرك أمسى وهو  
مهجورُ  
دونَ الثَّويَّةِ يسفي فوقه  
المورُ

أبا المغيرة والدُّنيا  
مغيره  
قد كان عندك للمعروف  
معرفةُ  
وكنت تُؤتى فتؤتي الخير  
من سعةٍ  
صلى الإله على قبرٍ  
بمخنيةٍ

وأنشد ابن الأعرابي:

وربَّ حسيب الأصلِ غيرُ  
حسيبٍ

وما حسبُ الأقوامِ إلا  
فعالهم

وقال الآخر في مثله:

ويرى مُروءته تكون بمن  
مضى  
ويزين صالح ما أتوه بما

ليس الكريم بمن يدسُّ  
عرضه  
حتى يثبید بناءهم

## بينائه

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

أتى

يوماً على الأحساب تَنَكَّلُ  
تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

لَسْنَا وَإِنْ كُرِمَتْ أَوَائِلُنَا  
تَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا

وقال عُمر بن الخطاب: كفى بالمرء عيباً أن تكون فيه حَلَةٌ من ثلاث: أن يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه، أو يعيب شيئاً ثم يأتي مثله، أو يؤذي جليسه فيما لا يعنيه. ووصف أعرابي رجلاً فقال: آخَذُ النَّاسِ بِمَا بِهِ أَمْرًا، وَأَتْرَكُهُمْ لِمَا عَنْهُ رَجْرًا. من هجا امرأته قدم أعرابي فحلف بطلاق امرأته على شيء فحنث ثم هرب فقال:

ما خوَّفوني بالطلاق  
العاجل  
عجفاءً مرصعةً وأخري  
حاملُ

لو يعلم الغرماء  
منزلتيهما  
قد ملتا ومليت من  
وجهيهما

وقال الأقرع بن مُعاذ القُشيري:

إليَّ وإن ضاجعتها لبغيضُ  
على الثوب نملٌ عاذمٌ  
وبعوضُ

لعمرك إنَّ المسَّ من أمِّ  
خالدٍ

إذا بزَّ عنها ثوبها فكأنما

وقال أعرابي يتأله، لامرأته، وما الأعرابُ وهذا المذهبُ، ولكن كذا وقع، والله أعلم بكثيرٍ من الرواية:

وأنتها عدَّةٌ تُقصي وأوتارُ  
وئبث بعدُ فإنَّ الله غفارُ

لولا مخافة ربي أن  
يعاقبني  
لقد جعلتُ مكان الطوقِ ذا  
شطب

وقال بعض المولدين:

ذاك جِراءُ الجوامحِ  
الشَّمسِ  
أدُّ عِندي من ليلة العُرسِ

تجهزي للطلاق وانصرفي

للليتي حين بتُّ طالقةً

وأنشدني ابن الأعرابي لأعرابي:

ناتية الناب كزوم  
قنفرش

قد قرنوني بعجوز  
جحمرش

من آخر الليل كلاب  
تهترش  
كأن طي بطنها كرش  
تخشخش الضب دنا  
للمحترش

كأنما دلاها على الفرش  
وجلدها من حكها القمل  
برش  
فقماء في حذن الضجيع  
تهتمش  
وقال رجلٌ من بني ثُميرٍ لامرأته، وكانت حَصْرِيَّةً:

تظللُ بِرَوْقِي بَيْتَهَا الرِّيحُ  
تخفقُ  
إِذَا رُفَعَتْ عَنْهَا المِراوِيحُ  
تعرقُ  
صحيحٌ ويبدو داؤها حين  
تُفْتَقُ

لَعَمْرِي لِأَعْرَابِيَّةٍ بَدْوِيَّةٍ  
أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صِنَاكِ  
صِفْنِيَّةٍ  
كَيْطِيخَةِ البُسْتَانِ ظَاهِرُ  
جِلْدِهَا

وأنشدني محمد بن يسير في امرأته أو في غيرها:

عُرْقوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ  
فِي الطَّوْلِ  
كَأَنَّهَا حِينَ يَبْدُو وَجْهُهَا  
غَوْلُ

أُبَيِّنْتُ أَنَّ فَتَاهَ كُنْتُ  
أَخْطَبُهَا  
أَسْنَانُهَا مَائَةٌ أَوْ زِدْنَ  
وَاحِدَةً

وإنما أكتب لك من كلِّ باءٍ طَرْفًا، لأنَّ إخراجَكَ مِنْ باءٍ إِلَى باءٍ  
أَبْقَى لِنَشَاطِكَ، وَلَوْ كَتَبْتُهُ بِكَمَالِهِ لَكَانَ أَكْمَلَ وَأَنْبَلَ، وَلَكِنْ أَخَافُ  
التَّطْوِيلَ، وَأَنْتَ جَدِيدٌ أَنْ تَعْرِفَ بِالْجُمْلَةِ التَّفْصِيلَ، وَالْآخِرُ بِالْأَوَّلِ.

مَنْ هَجَّتْهُ زَوْجَتُهُ قَالَتْ عَصِيمَةَ الحَنْظَلِيَّةِ:

عَلَيْنَا حُفْرَةٌ مُلِئَتْ دُخَانًا  
فَتَصْبِحُ لَا تَرَاكَ وَلَا تَرَانَا  
لَقَدْ أَعْطَيْتُهَا مَائَةً هِجَانًا

كَأَنَّ الدَّارَ حِينَ تَكُونُ فِيهَا  
فَلَيْتَكَ فِي سَفِينِ بَنِي عِبَادٍ  
فَلَوْ أَنَّ البُدُورَ قِيلْنَ يَوْمًا

وقالت امرأةٌ من بني ضبة لزوجها:

يمشي على مثل معوجِّ

تراه أهوجَّ ملعوناً

العراجين  
إِلَّا وَآخِرُ يَنْلُوهُ بِآمِينَ  
وَأَنْتِي قَبْلَهُ صُيِّرْتُ  
بِالصَّيْنِ

إِذَا ذُكِرَ الْقَوْمُ بِالطَّائِلِ  
وَعُوجِلْتُ بِالْحَدَثِ الْعَاجِلِ

أُرِيدُ كِرَامَ النَّاسِ أَوْ أَتَبَّئْتُ  
يُرِيحُ عَلَيْهِ حِلْمُهُ حِينَ  
يَجْهَلُ  
كِعَالِيَةِ الرُّمَحِ الطَّوِيلِ أَوْ  
اطْوَلُ

كَأَنَّ بِهِ كُلُّ فَاحِشَةٍ وَقُرَا  
وَلَا مَانِعَ خَيْرًا وَلَا قَائِلُ  
هُجْرًا  
إِذَا مَا بَدَأَ فِي ظَلْمَةٍ طَالَعًا  
بَدْرًا

وَاللَّهُ يَسْتَقِرُّ الْقَرَارُ  
اللَّهُ وَرَدُّ الْأُمُورِ وَالْإِصْدَارُ  
ظِرْتُ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ  
الْإِنْظَارُ  
إِلَّا يَرْمَرُمُ وَتَعَارُ

خَلِيقَتُهُ  
وَمَا دَعَوْتُ عَلَيْهِ قَطُّ  
أَلَعْنُهُ  
فَلَيْتَهُ كَانَ أَرْضُ الرُّومِ  
مَنْزَلَهُ

وقالت جمرة الأزديّة لزوجها أبي وائل:

لِعَمْرِكَ مَا إِنَّ أَبُو وَائِلٍ  
فِيَا لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ عِرْسَهُ  
وقالت امرأة من بني زياد الحارثي:

فَلَا تَأْمُرُونِي بِالتَّرْجُوجِ  
إِنِّي  
أُرِيدُ فَتَى لَا يَمَلَأُ الْهَوْلُ  
صَدْرَهُ  
كَمَثَلِ الْفَتَى الْجَعْدِ الطَّوِيلِ  
إِذَا عَدَا

وقالت امرأة من باهلة:

أَحَبُّ الْفَتَى يَنْفِي  
الْفَوَاحِشَ سَمْعُهُ  
سَلِيمٌ دَوَاعِي الصَّدْرِ لَا  
بِاسِطِ أَدَى  
كَمَثَلِ الْفَتَى الدُّهْلِيِّ  
تَحْسِبُ وَجْهَهُ

وقال لبيد بن ربيعة:

إِنَّمَا يَحْفَظُ التَّقَى الْأَبْرَارُ  
وَاللَّهُ تُزَجُّعُونَ وَعِنْدَ  
إِنْ يَكُنْ فِي الْحَيَاةِ خَيْرٌ  
فَقَدْ أَنْ  
عَشْتُ دَهْرًا فَلَنْ يَدُومَ  
عَلَى الْأَيَّامِ

وأنشدني الأصمعيّ قال: أنشدني رجلٌ، ولم يُسمِّه:

إذا ما بدا عمرو بدت منه  
صورة  
بياض خراسانٍ ولكنته  
فارس  
لقد ألفت أعضاء عمرو  
عصابة

وقالت أخت ذي الرمة ترثيه:

تدلُّ على مكنونه يُقبلُ  
وَجُتَّةٌ رُومِيٌّ وشَعْرٌ  
مُفْلَقٌ  
يدلُّ عليها آخر القوم  
أول

تعزبت عن أوقى بغيلان  
بعده  
ولم تنسيني أوقى  
المصيبات بعده

وذو الرمة القائل: إذا قلت كأن فلم أجِدْ مخرجاً فقطعَ اللهُ لِساني.

وأنشد:

لا أتقي حسك الصغائن  
بالرقي  
لكن أعدُّ لها ضغائنٍ مثلها  
كالخمرِ خيرٌ دوائها منها  
بها

فأخذ الحكيمُ هذا فقال:

فَعَلَ الدَّلِيلِ ولو بَقِيْتُ  
وجيدا  
حتى أدوايَ بالحُقودِ حُقودا  
تَشْفِي السَّقِيمَ وتُبرِّئُ  
المنجودا

وكأسٍ شربتُ على لذة

وقال ابن هزيمة:

وأخرى تداويتُ منها بها

إنَّ أياديكَ عندي غيرُ  
واحدةٍ  
وليس منها يدٌ إلا وأنت  
بها

وقال الآخر:

جَلَّتْ عن الوصفِ  
والإحصاءِ والعددي  
مُستوجبُ الشُّكرِ مِنِّي  
أخِرَ الأبدِ

كشكري ولا يدري عليَّ بن  
ثابت  
وحَمَلَنِي مِن شُكرِهِ  
فوقَ طاقَتِي

سأشكركُ ما أبقاني اللهُ  
خالداً  
حَمَلْتُ عليه مُثِقِلاً  
فأطاقهُ



وكان النطام كثيراً ما ينشد:

فلو كنت أرصّي لا أبالكَ  
بالذي  
قُصِرْتُ عَلَيَّ أَدْنَى الهموم  
وأصَبَحْتُ  
به الخامل الجثامُ في  
الخَفْضِ قانِعُ  
عَلَيَّ وَعندي لِلرَّجالِ  
صنائِعُ

وقال المَرِيسيُّ لأبي الهذيل بحضرة المأمون، بعد كلامٍ جرى: كيف ترى هذه السَّهام؟ قال: لئِنَّه كالرُّيد، حُلوة كالشَّهد، فكيفَ ترى سهامنا؟ قال: ما أحسستُ بها، قال: لأنَّها صادقتُ جَماداً. وأنشِدَ أبو الهذيل:

فإذا توهمَ أن يراها ناظرٌ  
تركَ التَّوهمَ وجَهِها مَكْلوما  
فقال: هذِهِ تُناكَ بأيرٍ من خاطرٍ وأنشدني أبو الهذيل بعد أن أنشد هذا البيت:

اسجُدْ لِقِرْدِ السَّوءِ في  
زَمانِهِ  
ولا تُسائِلْ عن حَبِيءٍ شَأنِهِ  
وقال آخر:

كم من كريم ضَعَصَ الدَّهْرُ  
حالَهُ  
وقد قال في الأمثال في  
النَّاسِ واعظُ  
إذا دَوْلَةٌ لِلقِرْدِ جاءت  
فَكُنْ لَهُ  
بذاك تدارِيهِ ويُوشِكُ  
بَعَدَها  
وأنشدني الأصمعيُّ في معنى قول الفرزدق:

به لا بظبيِّ بالصَّريمَةِ أعفرا  
لرجل من بني القَيْن:

أقول لصالح لما دهته  
شجاك العزَل لا بأخي نوال  
أتيتك زائراً فرجعت صفراً  
أحب لك السلامة يا ابن  
بنات الدهر ويحك ما دهاكا  
من الفتيان كربة ماشجاكا  
كذاك تكون أوبة من أتاكا  
وإن كنت امرأً بخلت يداكا

أمي  
حفاظاً للعشيرة لا بعرفٍ  
وقال الفرزدق:

سألتُ ومن يسألُ عن  
العِلْمِ يَعْلَمِ  
وما العالم الواعي  
الأحاديثِ كالعَمي

ألا خبِّروني أيُّها الناس  
إِنِّي  
سؤالَ امرئٍ لم يُعْفِلِ  
العِلْمَ صدره

وقال أيضاً:

تهيِّجُ جَلِيلَاتِ الأُمُورِ دَقِيقُهَا  
وخير أحاديثِ الرِّجَالِ  
صدوقُهَا

ألم تعلموا يا آل طَوْعَةَ  
أَنَّمَا  
سَأَلْتَنِي عَلَى سَعْدٍ بِمَا قَدْ  
عَلِمْتِهِ

قال أبو عثمان: ومما أكتب لك من الأخبار العجبية التي لا يجسر  
عليها إلا كلُّ وَقَاحٍ أَخْبَارُ بَعْضِ العُلَمَاءِ وَبَعْضُ مَنْ يُؤَلِّفُ الكُتُبَ  
ويقرؤها ويـدارس أهل العـبر ويتحفظها.  
زعموا أنَّ الضبع تكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى، وسمعت هذا من  
جماعةٍ منهم مَمَّنْ لَـأَسْتَجِيزُ تَسْمِيَتِهِ.  
قال الفضل بن إسحاق: أنا رأيتُ العَفْصَ والبَلُوطَ في غصن واحد.  
قال: ومن العَفْصِ ما يكونُ مثلاً الأَكْرَ، وقد خبَّرني بذلك غيره، وهو  
يشبهه تحوُّل الأنثى ذكراً والذكور أنثى.  
وقد ذكرت العربُ في أشعارها الصَّبَاعَ والدَّئَابَ والسَّمْعَ والعِسابَ،  
وجميعَ الوحوش والحشرات، وهم أخبِرُ الخلق بشأن الصَّبَعِ، فكيف

تركَتْ مَا هُوَ أَعْجَبُ وَأَطْرَفُ.  
وقد ذكرت العلماء الصُّبَاعَ في مواضع من الفُئيا لم نرَ أحداً ذَكَرَ ذلك، وأولئك بأعيانهم هم المذنبون زعموا أن النمر الأنثى تضع في مشيمةٍ واحدةٍ جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوَّقَتْ به، وإذا لم يأتنا في تحقيق هذه الأخبارِ شعراً شائعاً، أو خبرٌ مستفيض، لم نلتفت لِقَتِّهِ، وقد أقررنا أن للسَّقَنْقُورِ أَيْرِينَ، وكذلك الجِرْدُونَ والضَّبُّ، حين وجَدناه ظاهراً على ألسنة الشُّعراء وحكاية الأطبَّاء.  
خرطوم الفيل والخرطوم للفيل هو أنفه، ويقومُ مقام يده ومقام عنقه، والحَرْقُ الذي هُوَ فيه لا ينفذ، وإنما هو وعاءٌ إذا ملأه الفيل من طعام أو ماء أولجه في فيه، لأنَّه قصير العُنق لا ينال ماء ولا مرعى، وإنما صار ولدُ البُحْتِيِّ من البُحْتِيَّةِ جُرُور لحمٍ لقصر عنقه، ولعَجْزِه عن تناوُل الماء والمرعى.  
خرطوم البعوضة وللبعوضة خرطومٌ، وهي تُشَبَّه بالفيل إلا أنَّ خرطومها أجوفٌ فإذا طَعَنَ به في جوف الإنسان والبهيمة فاستقى به الدَّم من جوفه قذفت به إلى جوفها، فهو لها كالبلعوم والحلقوم. وللذباب خرطومٌ تخرجه إذا أرادتِ الدَّم، وتُدْخِلُهُ إذا رَوَيْتْ، فأما مَنْ سَمَّى خَطَمَ الخنزيرِ والكلبِ والدَّئِبِ خرطوماً فإنما ذلك على

التشبيه، وكذلك يقولون لكلّ طويل الخطم قصير اللّحين.  
وقد يقال للخّطم خرطوم على قوله: "سَتَسِمْهُ عَلَى الخُرْطُومِ".

وأنشدنا ابنُ الأعرابي لفتى من بني عامر:

ولا أمرُّ على تلك  
الخراطيم

ولا أقومُ على شيخي  
فأشتمُّه

جعل سادةً عشيرته في النَّادي والمجالس كالخراطيم والمقاديم والهوادي، وعلى ذلك قالوا: بنو فلانٍ أنفُ بني فلانٍ ورؤوسُهم وخراطيمُهم، ومعنى العامريّ الذي ذهب إليه في شعره كأنه عظم المشيخة أن يمرّ بهم، وقد قال الشاعر:

هم الأنفُ المقدمُ والسَّنامُ

والفيلُ والبئرُ، والطَّاوسُ والببغا، والدجاجُ السُّنديُّ، والكركدانُ، مما خص الله به الهند، وقد عدّد ذلك

مطيغُ بن إبّاس، حين خاطب جاريةً له كانت تسمى رُوقة، فقال:

سادسنا دوني وأرمائل

روق أي روق كيف فيك  
أقول

ن وبين الحبيب قندابيل

وبعيدُ من بينه حيثما كا

ببلادٍ معروفها مجهول

روق يا روق لو ترين  
محلّى

س وفيها يزواج الزندبيل

ببلاد بها تبيض الطواوي

د له في ذرى الأراك

وبها الببغاء والصفرة والعو

مقيل

رن والليث في الغياض

والخموع العرجاء والأيل

النسول

الأق

وقال أبو الأصلع الهنديُّ، يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند:

وما ذلك بالأمثل

لقد يعذلني صحتي

وسهم الهند في المقتل

وفي مدحتي الهند

وفيه الفيل والدغفل

وفيه الساج والعاج

كمثل الجبل الأطول

وإن التوتيا فيه

وفيه ينبت الفلفل

وفيه الدار صيني

والمتشابه عندهم من الحيوان الفيل، والخنزير، والبعوضة، والجاموس، وقال رؤبة:

ليث يَدُقُّ الأَسَدَ الهَمُوسَا والأَقَهَيِّنَ الفِيلَ والجاموسَا

هجا أبي الطروق لامرأته ولما هجا أبو الطروق الضبِّيَّ امرأته، وكان اسمها شَعْفَرُ بالقُح والشناعة

فقال:

جاموسة وفيلةٌ وخنزُرُ جعل الخنزيرَ خَنزراً، فجمعها كما ترى للتشابه، وقال الآخر:  
وكلهنَّ في الجمالِ شَعْفُرُ  
كأنَّ الذي يَبْدُو لنا من  
جَاحِلٌ عَيرٍ أو مشافرِ فيلٍ  
لثامِها

### شعر في الفيل

والفيل يوصف بالقَم، ولذلك قال الأعرابي:

قد قادني أصحبي  
المعمم  
إذا صفق الباب العريض  
الأعظم  
وقيل إن الفيل فيلٌ  
مرجم  
أجرد أعلى الجسم منه  
أصحم  
ما تحتها من قرصها  
وتهشم  
ومشفزٌ حين يمد  
سرطم  
لو كان عندي سببٌ أو  
سلم

وقال آخر:

مَنْ يركبِ الفيلَ فهذا  
الفيلُ  
على تهاويلٍ لها تهويلُ  
إنَّ الذي يركبُهُ محمولُ  
كالطَّودِ إلَّا أنَّه يجولُ

وَأَذُنٌ كَأَنَّهَا مِندِيلٌ  
وقال عمارة بن عقيل يضرب المثل بقوة الفيل:

هَيْدًا وَجَالَتْ بِنَا مِنْهُ  
الْأَحَابِيلُ  
مِنَ الْمِظَالِمِ مَا لَا يَحْمِلُ  
الْفَيْلُ

إِذَا أَتَانَا أَمِيرٌ لَمْ يَقُلْ لَهُمْ  
وَعَضَّ مَجْهُودَنَا الْأَقْصَى  
وَحَمَلَهُ

وقال أبو ذُهَبَلٍ يمدح أبا الفيل الأشعري:

قَدْ عَمَّ بِالْعُرْفِ كُلِّ الْعُجَمِ  
وَالْعَرَبِ

إِنَّ أَبَا الْفَيْلِ لَا تَحْصِي  
فَضَائِلَهُ

ونظر ابن شهلة المدنيّ إلى خُراطوم الفيل وإلى عُرموله فقال:

قَدْ اعْتَدَلَا فِي مَشْرَبِ  
وَمَبَالٍ

لَمْ أَرْ خُرَطُومَيْنِ فِي  
جِسْمٍ وَاحِدٍ

فقد غلظ لأنّ الفيل لا يشربُ بخراطومه ولكن به يُوصلُ الماءَ إلى فمه، فشبهه عُرموله بالخرطوم،  
وعُرموله يشبهه بالجعبنة والقنديل والتبريد.

وقال المخَبَّلُ في تعظيم شأن الفيل:

نَهَارًا وَوَلِيلاً بَلِّيَانِي  
فَأَسْرَعَا  
فَقَدْ أَفْنِيَا التُّعْمَانَ قَبْلِي  
وَتَبَعَا  
عَلَى الْفَيْلِ حَتَّى يَسْتَدِيرَ  
فِيضْرَعَا

أَتَهْرَأُ مَتَّى أُمَّ عَمْرَةَ أَنْ  
رَأَتْ  
فَإِنْ أَلُّ لَاقِيَتْ الدَّهَارِيْسَ  
مِنْهُمَا  
وَلَا يَلْبِثُ الدَّهْرُ الْمَفْرَقَ  
بَيْنَهُ

وقال مروان بن محمد وهو أبو السَّمْعَمَقِ وَحَدَّثَنِي صَدِيقٌ لِي قَالَ سَأَلْتُ أَبَا السَّمْعَمَقِ عَنْ اسْمِهِ  
وَنَسَبِهِ، فَقَالَ: أَنَا مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ، مَوْلَى مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ:

فَبَارَكَ اللَّهُ لِي فِي رُؤْيَةِ  
الْفَيْلِ  
فَكَدْتُ أَصْنَعُ شَيْئًا فِي  
السَّرَاوِيلِ

يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْفَيْلَ  
بَعْدَكُمْ  
رَأَيْتُ بَيْتًا لَهُ شَيْءٌ  
يَحْرِكُهُ

وقالت دودة لأُمّها:

لَا بَارَكَ اللَّهُ لِي فِي رُؤْيَةِ

يَا أُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ الْفَيْلَ مِنْ

الفيل  
عن الحميرِ وعن تلك  
الأباطيلِ

كُتِبَ  
لَمَّا بَصُرْتُ بِأَيْرِ الْفِيلِ  
أَدْهَلَنِي

## خطبة بدوي فيها ذكر الفيل

وقال الأصمعي: جَنَى قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ جَنَايَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ السُّلْطَانُ جَنْدًا مِنْ بُخَارِيَّةِ ابْنِ زِيَادٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يُدَمِّرُ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، وَيَا بَنِي الْمَحْصَنَاتِ، قَاتِلُوا عَنِّ أَحْسَابَكُمْ وَنِسَائِكُمْ، وَاللَّهِ لَئِنْ ظَهَرَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ لَا يَدْعُونَ بِهَا لِيَنَّةَ حَمْرَاءَ، وَلَا نَخْلَةَ خَضْرَاءَ، إِلَّا وَضَعُوهَا بِالْأَرْضِ، وَلَا أَغْرُكُمْ مِنْ نُشَابٍ مَعَهُمْ، فِي جِعَابِ كَأَنَّهَا أَيُورُ الْفَيْلَةَ، يَنْزِعُونَ فِي قَسِيٍّ كَأَنَّهَا الْعَتَلُ تَنْطُ إِحْدَاهُنَّ أَطِيظَ الزُّرْبُوقِ، يَمْعَطُ أَحَدُهُمْ فِيهَا حَتَّى يَتَفَرَّقَ شَعْرُ إِبْطِيئِهِ، ثُمَّ يُرْسِلُ نُشَابَةً كَأَنَّهَا رِشَاءٌ مَنْقُوعٌ، فَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ أَنْ تَفْضُخَ عَيْنَهُ، أَوْ يُصَدَّعَ قَلْبُهُ مِنْزَلَةً.

قال: فَخَلَعَ قُلُوبَهُمْ فَطَارُوا رُغْبًا.

## الزندبيل

قالوا: الْفَيْلَةُ ضَرْبَانِ: فَيْلٌ وَزَنْدَبِيلٌ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي أَشْعَارِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ، فبَعْضُهُمْ يَقُولُ كَالْبُخْتِ وَالْعَرَابِ، وَالْجَوَامِيسِ وَالْبَقَرِ، وَالْبَرَادِيزِ وَالْخَيْلِ، وَالْفَأْرَ وَالْجِرْدَانَ، وَالذُّرَّ وَالنَّمْلَ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّمَا ذَهَبُوا إِلَى الْوَادِيِّ وَالْأَنْثَى.



والغوغاء، كما سمّوا الغوغاء الجراد إذا ألقى المبيض وسُخِفَ وخفَّ  
وطار.

## هياج الفيل

قال: وإذا اغتلمَ الفيلُ قَتَلَ الفَيْلَةَ والفيَّالين وكلَّ مَنْ لَقِيَهُ من سائر  
النَّاسِ، ولم يَقمْ له شيءٌ، حتى لا يكونُ لسُوَّاسِهِ هَمٌّ إِلَّا الهَرَبُ، وإلَّا  
الاحتيا\_\_\_\_\_الُ لأنفس\_\_\_\_\_هم.

وتزعمُ الفُرْسُ أنَّ فيلاً من فيلة كِسرى اغتلمَ، فأقبلَ نحو النَّاسِ فلم  
يَقمْ له شيءٌ، حتى دنا من مَجْلِسِ كِسرى فأقشَعَ عنه جُنْدَهُ، وأسلمتهُ  
صنائعُهُ، وقصد إلى كِسرى ولم يبقَ معه إِلَّا رجلٌ واحدٌ من فرسانِهِ  
كان أخصَّهم به حالاً، وأرفعهم مكاناً، فلما رأى قُرْبَهُ من الملكِ شَدَّ  
عليه بِطَبْرَزينٍ كان في يده فضربَ به جبهتهُ ضربةً غابَ لها جميعُ  
الحديدة في جبهته، فصدفَ عنها وارتدع، وأبى كِسرى أن يرُولَ من  
مكانه، فلما أيقنَ بالسَّلامة قال لذلك الرجل: ما أنا بما وهبَ اللهُ لي  
من الحياةِ على يدك بأشدَّ سروراً مِنِّي بالذي رأيت من هذا الجلدِ  
والوفاء والصَّبْرِ في رجل من صنائعي، وحين لم تخطئُ فِرَاسَتِي، ولم  
يَفلُ رأبي فهل رأيت أحداً قطُّ أشدَّ منك؟ قال: نعم، قال: فحدِّثني

عنه، قال: على أن تؤمّني، فأمنه فحدّث عنبهرام جوبين بحديث شقّ على الملك وكرهه، إذ كان عدوّه على تلك الصّفة. قال: إذا اغتلم الفيلُ وصالَ وعَصَبَ وحمط خلاه الفيّالون والرّواضُ، فربّما عاد وحشيّاً.

## أهليّ الفيلة وحشيّها

والفيلة من الأجناس التي يكون فيها الأهليّ والوحشيّ، كالسنّانير والطّباء والحمير وما أشبه ذلك، وأنشد الكيرمانيّ لشاعر المولّتان قوله:

كراكب الفيل وحشيّاً  
ومُعْتَلَمًا

فكنتُ في طلبِي مِنْ عِنْدِهِ  
فَرَجًا

وهذه القصيدة هي التي يقول فيها:

حتى لقيت بها جلف النّدى  
حكما  
لو تاطق الشّمس ألقّت  
نحوه الكليما

قد كنت صعدتُ عن بُعبورٍ  
مغترباً  
قرمُ كأنّ ضياء الشّمس  
سُنّه

خصال كسرى وتقول الفرس: أُعطيّ كسرى أبرويرَ ثمان عشرةَ  
حصلةً لم يُعطاها ملك قطّ ولا يعطاها أحدٌ أبداً، من ذلك أنّه اجتمع له  
تسعُمائة وخمسون فيلاً، وهذا شيءٌ لم يجتمع عند ملك قطّ، ومن  
ذلك أنّه أنثرى الذكورة على الإناث، وأنّ فيلةً منها وضعتُ عنده، وهي  
لا تتلاقح بالعراق، فكانت أوّل فيلةٍ بالعراق وآخر فيلةٍ تضع.  
قالو: ولقي رُسْتَمُ الأزرّيّ المسلمين يوم القادسيّة ومعه من الفيلة

عشرون ومائة فيل، وكنّ من بقايا فيلة كسرى أبرويز.  
قالوا: ومن خصاله أنّ النَّاسَ لم يَرَوْا قط أَمَدَّ قامَةً، ولا أتمَّ ألواحاً، ولا  
أبرَعَ جمالاً منه، فلما مات فرسُهُ الشَّبْدِيز كان لا يحمله إلاَّ فيلٌ من  
فَيْلته، وكان يجمع وطاءةَ ظَهْر الفيل وثبات قوائمه، ولينَ مشيته،  
وُبُعْدَ خَطوه، وكان ألطفها بدنًا، وأعدلها جسمًا.

### أكثر خلفاء المسلمين فيلة

قالوا: ولم يجتمع لأحد من ملوك المسلمين من الفيلة ما اجتمع عند  
أمير المؤمنين المنصور، اجتمع عنده أربعون فيلاً، فيها عشرون فحلاً.

### شرف الفيل

قالوا: والفيل أشرفُ مراكب الملوك، وأكثرها تصرُّفاً، ولذلك سأل  
وَهْرَز الأسواؤُ عن صاحب الحبشة، حين صافَّهم في الحرب، ف قيل له:  
ها هو ذاك على الفيل، فقال: لا أرميه وهو على مركب الملوك، ثم  
سأل عنه فقيل له: قد نزل عنه وركبَ الفرس، قال: لا أرميه وهو  
على مركب الحُمَاة، قيل: قد نزل عنه وركب الحمار، قال: قد نزل

عن مَرْكِبِهِ لِحِمَارٍ فِدَعًا بِعِصَابَةٍ رَفَعَهَا حَاجِبِيَّهِ وَكَانَ قَدْ أَسَنَّ حَتَّى  
سَقَطَ جَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ ثُمَّ رَمَاهُ فَقَتَّلَهُ.

## ذكاء الفيل

وكان سهلُ بنُ هارونَ ينعجُّ من تَظَرِّ الفيلِ إلى الإنسانِ، وإلى كلِّ شيءٍ يمرُّ به، وهو الذي يقولُ:

ولمَّا رأيتُ الفيلَ ينظرُ      ظننتُ بأنَّ الفيلَ يلزمُه  
قاصداً      الفرضُ

قال أبو عثمان: وقد رأيتُ أنا في عَيْنِ الفيلِ من صحَّةِ الفهمِ والتأمُّلِ  
إذا نظرَ بها، وما شبَّهتَ نظرَه إلى الإنسانِ إلاَّ بنظرِ ملكٍ عظيمِ الكِبَرِ  
راجحِ الجِلمِ، وإذا أُرِدَتْ أن تَرَى من الفيلِ ما يُضحِكُ، وتراهُ في  
أسخَفِ حالاته وأجهلِهِ فألقِ إليه جِوزَةً، فإنَّه يريدُ أن يأخذَ بطَرَفِ  
خُرطومِهِ، فإذا دنا منها تنفَّسَ، فإذا تنفَّسَ طارت الجِوزةُ من بين  
يديه، ثم يدنو ثانيةً ليأخذَها فيتنفَّسُ أخرى، فتبعدُ عنه، فلا يزالُ ذلكَ  
دأبَهُ.

## فضله في الحرب

قالوا: ويفضُّلُ الفيلُ الفرسَ في الحربِ أنَّ الفيلَ يحمي الجماعةَ  
كلهم، ويقاقل ويَرمي وينزجُ بالمزاريقِ، وله من الهولِ ما ليس  
للفرسِ، وهو أحسنُ مطاوعةً، ولا يُعرفُ بجماحٍ ولا طِمَاحٍ ولا جِرانٍ.

والخيول العتاقُ ربّما قتلت الفُرسانَ بالجران مرّةً وبالإقدام مرّةً،  
وبسوء الطاعة وشدّة الجزع، وربّما شبّ الفرسُ بفارسه حتى يلقيه  
بين الحوافر والسُّيوف، للسّهم يصيبه والحجر يقع به، وما يشبه ظهرُ  
الفرسِ من ظهره، وظهرُ الفيل منظره من المناظر ومسلحة من  
المسالح.

## عمر الفيل

وفي الفيلة عجبٌ آخرٌ، وذلك أنّ قصر الأعمارِ مقرونٌ بالإبل  
والبراذين وبكلِّ خلقٍ عظيم، وكلُّ شيءٍ يعايشُ النَّاسَ في دُورهم  
وقُراهم ومنازلهم فالناس أطولُ أعماراً منها، كالجمل، والفرس  
والبردون، والبغل والجمار، والثور والشاة، والكلب والدجاج، وكلِّ  
صغيرٍ وكبيرٍ، إلا الفيل فإنّه أطولُ عمراً.  
والفيلُ أعظم من جميع الحيوان جسماً وأكثرُ أكلاً، وهو يعيشُ مائة  
السنة ومائتي السّنة.

وزعم صاحبُ المنطق في كتاب الحيوان أنّه قد ظهرَ فيلٌ عاش  
أربعمائة سنة، فالفيل في هذا الوجه يشارك الضّباب والحيات  
والسُّور، وإذا كان كذلك فهو فوق الورشان وعَيْر العانة وهو من

المعمَّرين وفوق المعمَّرين وهو مع ذلك أعظم الحيوان بدنًا، وأطولها  
عمرًا.

## الأسد والفيل

وقال بعض من يستفهم ويحب التَّعلم: ما بال الأسد إذا  
رأى الفيلَ عَلمَ أنَّه طعام له، وإذا رأى النَّمرَ والبَبرَ لم يكونا  
عنده كذلك؟ وكيف وهو أعظم وأضخم وأشنع وأهول؟  
فإن كانَ الأسدُ إنما اجترأ عليه لأنَّه من لحمٍ ودمٍ، واللَّحْمُ  
طعامُه والدمُّ شراؤه، فالببر والنَّمر من لحمٍ ودمٍ، وهما  
أقلُّ من هؤلاء وأقما جسمًا.

قال القوم: ومَتَى قَدَّرَ الأسدُ في الفيل أنه إذا قاتله غلبه،  
وإذا غلبه قتله، وإذا قتله أكله؟ وقد نَجِدُ البَبرَ فوقَ الأسدِ  
وهو لا يَعرِضُ له، والأسد فوق الكلب وهو يشتهي لحمه،  
ويشتهي لحم الفهد بأكثر ممَّا يشتهي لحم الصَّبُعِ والذئبِ،  
وليست علته المواثبة التي ذهبت إليها.

معرفة الحيوان فأما عِلمُ جميعِ الحيوان بمواضع ما  
يُعيشها، فَمَنْ عَلمَ البعوضة أنَّ من وراء ظاهرِ جلد

الجاموس دَمًا، وَإِنَّ ذَلِكَ الدَّمَ غِذَاءٌ لَهَا، وَأَنَّهَا مَتَّى طَعَنَتْ

فِي ذَلِكَ الْجِلْدِ الْغَلِيظِ الشَّئْنِ، الشَّدِيدِ الصُّلْبِ، أَنْ

خَرَطومَهَا يَنْفِذُ فِيهِ عَلَى غَيْرِ مُعَانَاةٍ.

ولو أن رجلاً مَنَّا طَعَنَ جِلْدَهُ بِشَوْكَةٍ لَانكسرت الشَّوْكَةُ قَبْلَ

أَنْ تَصِلَ إِلَى مَوْضِعِ الدَّمِ، وَهَذَا بَابٌ يُدْرِكُ بِالْحَسَنِ وَبِالطَّبَعِ

وَبِالشَّبهِ وَبِالْخِلْقَةِ، وَالَّذِي سَخَّرَ لَخَرطومِ البَعوضَةِ جِلْدَ

الجاموسِ، هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الصَّخْرَةَ لِذَنْبِ الجَرَادَةِ، وَهُوَ الَّذِي

سَخَّرَ قَمُومَ النُّحاسِ لِإِبْرَةِ العَقْرَبِ. عِلَّةُ عَدَمِ تَلاقِحِ الفَيْلَةِ

## بِالعِراقِ

وَقَالَ بَعْضُ خِصْمَاءِ الهِنْدِ: لَوْ كَانَتِ الفَيْلَةُ لَا تَتَلاقِحُ عِنْدَنَا بِالعِراقِ لِأَنَّهَا

هِنْدِيَّةٌ لِتَغْيِيرِ الهَوَاءِ وَالأَرْضِ، فَعَقَّرَ ذَلِكَ أَرْحَامَهَا، وَأَعَقَّمَ أَصْلَابَهَا لِكَانَ

يَنْبَغِي لِلطَّوْأَوَيْسِ أَنْ لَا تَتَزَاجَ عِنْدَنَا وَلَا تَبْيِضُ وَلَا تُفْرَخُ، وَنَحْنُ قَدْ

تَصِيدُ البَلابِلَ وَالدَّبَاسِيَّ، وَالأوراشينَ، وَالفِواخِثَ وَالقِمَارِيَّ وَالقَبَجَ

وَالدَّرَاجَ، فَلَا تَتَساقِدُ عِنْدَنَا فِي البُيُوتِ، وَهِيَ مِنْ أَطْيَارِ بَسَاتيننا

وَضِياعنا، وَلَا تَتَلاقِحُ إِذَا اصطَدَّناها كَرارزَةَ، بَلْ لَا تَصوِّتُ وَلَا تَغْتِي وَلَا

تُؤوِحُ، وَتَبْقَى عِنْدَنَا وَحشِيَّةً كَمِدَّةً مَا عَاشَتِ، فَإِنْ أَخَذَناها فَرِاحاً



الفُرس، وهم أصحاب تَفْجٍ وتزيد ولا سَيِّما في كلِّ شيء مما يدخل في باب العصبية، ويزيد في أقدار الأكاسرة، وإن كانوا كذلك فهم أظنَّاء، والمتهم لا شهادة له، ولكن هل رأيت قطُّ هندياً أقرَّ بذلك، أو هل أقرَّت بقايا سائر الأمم للفرس بهذا الأمر للفيل المعروف بهذا الاسم. استطراد لغوي ويقال رجل فيلٌ إذا كان في رأيه فيالة، والفيالة، الخطأ والفساد، وهم يسمُّون الرَّجل بفيل، منهم فيلٌ مولى زياد، ويكون بأبي الفيل، منهم أبو الفيل الأشعري الذي امتدحه أبو دَهَبَل. وقال: الرَّاجز عَيْلان يقال له راكبُ الفيل: ومنهم عَنبسة الفيل، وكذلك يقال لابنه معدان وله حديث، وقال الفرزدق:

لَعْنِبَسَةَ الرَّاوي عَلِيَّ  
القِصائِدا

لقد كان في معدان والفيل  
زاجرٌ

وقال الأصمعي: إذا كان الرجلُ نبيلاً جباناً قيلَ هذا فيلٌ، وأنشد:

يقولون للفيل الجبان كأنه  
أزبُّ خصيُّ نَفَرْتُهُ القَعاقِعُ

وقال سلمة بن عَيَّاش: قال لي رؤبة: ما كنتُ أُجِبُّ أن أرى في رأيك فيالة. ويقول الرَّجلُ لصاحبه: لم يَفِلْ رأيك، وهو رأيٌ فائل، ورجلٌ فيل، وبالكوفة بابُ الفيل، ودار الفيل في السباجة، وكذلك حَمَّام فيل، وفي حَمَّام فيل يقول بعض السَّلَف:

على الثلثين من حَمَّام فيلٍ

لَعَمْرُ أَيْبِكَ ما حَمَّامُ كِسْرَى

وقال الجارود بن أبي سبرة:

كسَّنتنا على عهد الرِّسولِ

وما إِرْقاصُنا خَلَفَ المَوالي

وأبو الفيل محمد بن إبراهيم الرافقي كان فارس أهل العراق.

وفيلُوبه السَّقْطِي هو الذي كان يُجري لأمِّه كلَّ أضْحَى درهماً،

فحدثني امرأة قالت قلتُ لأمِّ فيلُويَّة: أو ما كان يجري فيلُويَّة في كلِّ

أضْحَى إلا درهماً؟ قالت: إي والله، وربِّما أدخل أضْحَى في أضْحَى!.

## مثالب الفيل

وقال بعضٌ من يخالف الهند: الفيل لا يُتَّفَع بلحمه ولا بلبنه، ولا بسمنه ولا يزيده، ولا بشعره ولا بوبره ولا بصوفه، عظيم المؤونة في النفقة، شديد التشنُّن على الرُّوَاض، وإن اغتلم لم تفِ جميعُ منافعه في جميعِ دهره بمضرةٍ ساعة واحدة، وهو مرتفعٌ في الثمن، وإن أخطؤوا في تدبير مَطْمِهِ وَمَشْرَبِهِ، وتعلُّمه وتلقنه هلكَ سريعاً، ولا يتصرَّف كتصرُّف الدَّوابِّ، ولا يُركب في الحوائج والأسواق وفي الجنائز والزَّيارات، ولو أنَّ إنساناً عادَ مريضاً أو اتَّبع جنازة على فيل لصار شهرةً، وترك الميِّت آية.

## رؤيا الفيل

وسئل ابن سيرين عن رجلٍ رأى فيما يَرَى النَّائم كأنه راكبٌ على فيل، فقال: أمرٌ جسيمٌ لا منفعة له. قالوا: وقال رجلٌ للحجاج بن يوسف: رأيت في المنام رجلاً من عُمَّالِكَ قَدَّمَ فيلاً ف ضربَ عُنُقَهُ، فقال: إن صدقت رؤياك هلك داهر بن بصبري.

## حكم أكل لحمه

وسئل الشَّعْبِيُّ عن أكل لحمِ الفيل، فقال: ليس هو من بهيمة الأنعام.

## خرطوم الفيل

وخرطومه، الذي هو سلاحه والذي به يبطِشُ وبه يعيش، مِنْ مَقَاتِلِهِ. وقال زَهْرَةُ بن جُوَيْبَةَ يوم القادسية: أمَّا لهذه الدابة مقتل؟ قالوا: بلى، خُرطومُه، فشدَّ عليهم حتى خالطهم، ودنا من الفيل، فحمل كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه فصَرََبَ خرطومَه فَبَرَكَ وأدبر القوم.

## بعض صفة الفيل

قال: والفيل أفقَمُ قصير العنق، مقلوبُ اللسان، مشوّه الخَلْق، فاحش القُبْح، ولم يفلح ذو أربعٍ قطُّ قصير العُنق في طلبٍ ولا هرب، ولولا أن مسلوحَ الثَّور يجول في إهابه، ولولا سعته وعَبْيُهُ، لما حَطَا مع قصر عنقه، ولذلك قال الأعرابي: ومن جَعَلَ الأَوْقَصَ كالأعْنق والمطْبِقَ كالضايِع، وقال الشَّاعر في عَبَبِ الثَّور، وهو إسحاق بن حسان الخَرَمِيُّ:

وأغلبَ فضفاض جلد اللَّبَانِ يُدافع عَنبَعَهُ بالوظيفِ  
وليس يُؤتى البَعِيرُ في حُضْره مع طول عنقه إلا من ضيق جلده، والفيلُ ضئيل الصَّوت، وذلك من أشدِّ عيوبه، والفيل إذا بلغَ في الغلْمة أشدَّ المبالغِ أشبَهَ الجملَ في ترك الماءِ والعلفِ حتى تنضمَّ أبطلاه ويتورَّم رأسه، وقد وصف الرَّاجزُ الجملَ الهائجَ فقال:

سام كأنَّ رأسه فيه ورَمٌ  
وأضَّ بعد البُذْنِ دَا لحمٍ  
زَيْمٌ  
إذ صَمَّ إطلِيه هَيَاجٌ وقَطْمٌ

ولو لم يكن في الفيلة من العيب إلا أن عدة أيام حملها كعمر بعض البهائم، لكان ذلك عيباً، وقد ترك أهل المدينة غراس العجوة، لما كانت لا تطعم إلا بعد أربعين سنة.

## قدرته على حمل الأثقال

قال: وليس شيء يحمل من عدد الأرتال ما يحمل الفيل، لأن الذي يفضل فيما بين حمل الفيل وحمل البختي أكثر من قدر ما يفضل بين جسم الفيل على جسم البختي. وقد قال الأعرابي الذي أدخل على كسرى ليغيب من جفائه وجهه، حين قال له: أي شيء أبعد صوتاً؟ قال: الجمل، قال: فأي شيء أطيب لحمًا؟ قال: الجمل، قال: فأي شيء أنهض بالجمل؟ قال: الجمل، قال كسرى: كيف يكون الجمل أبعد صوتاً ونحن نسمع صوت الكركي من كذا وكذا ميلاً؟ قال الأعرابي: صنع الكركي في مكان الجمل، وصنع الجمل في مكان الكركي حتى يعرف أيهما أبعد صوتاً، قال: وكيف يكون لحم الجمل أطيب من لحم البط والذجاج والفراخ والذجاج والتواهيض والجداء؟ قال الأعرابي: يطبخ لحم الذجاج بماء وملح، ويطبخ لحم الجمل بماء وملح، حتى يعرف فضل ما بين

اللَّحْمَيْنِ، قَالَ كِسْرَى: فَكَيْفَ تَزْعُمُ أَنَّ الْجَمَلَ أَحْمَلُ لِلثَّقْلِ مِنَ الْفِيلِ وَالْفِيلُ يَحْمَلُ كَذَا وَكَذَا رَطَلًا؟ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لِيَبْرِكَ الْفِيلُ وَيَبْرِكَ الْجَمَلُ، وَلِيُحْمَلَ عَلَى الْفِيلِ حِمْلُ الْجَمَلِ، فَإِنَّ نَهْضَ بِهِ فَهُوَ أَحْمَلُ لِلْأَثْقَالِ. قَالَ الْقَوْمُ: لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَةِ الْجَمَالِ النَّهْضَ بِالْأَحْمَالِ مَا يَوْجِبُ لَهَا فَضِيلَةً عَلَى حَمْلِ مَا هُوَ أَثْقَلُ، وَلِعَمْرِي، إِنَّ لِلْجَمَلِ بَلِينَ أَرْسَاغَهُ وَطُولَ عُنُقِهِ لِفَضِيلَةٍ فِي النَّهْضِ بَعْدَ الْبُرُوكِ، فَأَمَّا نَفْسُ الثَّقْلِ فَالَّذِي بَيْنَهُمَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهُمَا الْخِيَارُ. قَالُوا: وَبِفَارِسٍ ثَيْرَانٌ تَحْمِلُ حِمْلَ الْجَمَلِ بَارَكَةً ثُمَّ تَنْهَضُ بِهِ، فَهَذَا بَابُ الذَّمِّ.

### مناقب الفيل

فَأَمَّا بَابُ الْحَمْدِ فَقَدْ حُدِّثْنَا عَنْ شَرِيكِ، عَنْ جَابِرِ الْجُعْفِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ الشَّعْبِيَّ خَارِجًا فَقُلْتُ لَهُ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: أَنْظُرْ إِلَى الْفِيلِ. قَالَ: وَسَأَلْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ فَقُلْتُ: مَا لَوْ أَنَّ الْفِيلَ؟ قَالَ: جَوْنٌ.

### ما يحث به الفيل

ومن أعاجيب الفيل أن سَوَطه الذي به يُحْتُّ ويَصْرَفُ، مِحَجْنُ حديدٍ طرفه في جبهته، والطَّرَفُ الآخر في يد راكمه، فإذا راد منه شيئاً غَمَزَ تلك الحديدة في لحمه، على قَدْرِ إرادته لوجوه التصرُّفِ.

## قصة الفيل

وقد ذكر ذلك أبو قيس بن الأسلت في الجاهليَّة، وهذا الشُّعرُ حَجَّةٌ في صَرْفِ اللِّه الفيلِ والطَّيْرِ الأبابيل، وصدَّ أبي يكسوم عن البيت، وسنذكر من ذلك طرفاً إن شاء الله تعالى، قال أبو قيس:

ش إِذْ كَلَّمَا بَعَثُوهُ رَزَمَ  
وقد كَلَّمُوا أَنفَهُ فَاثْخَرَمَ  
إِذَا يَمَّمُوهُ قَفَاهُ كَلَمَ  
يَلْفَهُمْ مِثْلَ لَفِّ الْقَرَمِ

وقال أيضاً صَيْفِيُّ بَنِ عامر، وهو أبو قيس بن الأسلت، وهو رجلٌ يمان من أهلِ يَثْرِبِ، وليس بمكِّيٍّ

ولا تَهَامٍ ولا قُرَشِيٍّ ولا خَلِيفِ قُرَشِيٍّ، وهو جاهليٌّ:

بَارَكَانَ هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ  
الْأَخَاشِبِ  
غَدَاةَ أَبِي يَكْسُومِ هَادِي  
الْكَتَائِبِ  
جُنُودِ الْإِلَهِ بَيْنَ سَافِي  
وَحَاصِبِ  
إِلَى أَهْلِهِ مَلْحَبِشِ غَيْرِ  
عَصَائِبِ

قوموا فصلوا ربكم  
وتعودوا  
فعندكم منه بلاءٌ مصدقٌ  
فلما أجازوا بطن نعمان  
ردهم  
فولوا سراعاً نادمين ولم  
يؤب

ويدلُّ على صحَّةِ هذا الخبرِ قولُ طُفَيْلِ العَنَوِيِّ، وهو جاهليٌّ، وهذه الأشعارُ صحيحةٌ معروفةٌ لا يرتابُ بها أحدٌ من الرُّواة، وإنما قال ذلك طُفَيْلٌ لَأَنَّ عَنِيَّاً كانت تنزلُ يَهَامَةَ، فأخرجتها كِنَانُهُ فِيمَنْ أخرجتُ،

فهو قوله:

بِالْجِرْعِ حَيْثُ عَصَى

تَرَعَى مَدَائِبَ وَسَمِيَّ

## أطاع له

## أصحابه الفيل

قال أبو الصلت، واسمه ربيعة، وهو أبو أمية بن أبي الصلت، وهو تقي طائفي، وهو جاهلي، وثقيف يومئذ أصدقاء بالبلدة وبالمال وبالحدائق والجنان، ولهم اللاث والععب، وبيت له سدنة يضاؤون بذلك قريشاً، فقال مع اجتماع هذه الأسباب التي توجب الحسد والمنافسة:

ما يماري فيهنَّ إلا الكفورُ  
ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقورُ  
رَ صخرٌ من كَبَكِبِ محدورُ

إِنَّ آيَاتِ رَبَّنَا بَيِّنَاتٌ  
حَبَسَ الْفِيلَ بِالْمَغْمَسِ  
حَتَّى  
وَاضِعاً حَلَقَةَ الْجِرَانِ كَمَا  
قَطَّ

وقال بعضهم لأبرهة الأشرم:

والأشرمُ المغلوبُ غير  
الغالب

أين المفرُّ وإليه الطالبُ

وقال عبد المطلب يوم الفيل وهو على جراء:

تَعُ رَجُلَهُ فَاَمْتَعُ جِلَالِكَ  
وَمِحَالَهُمْ أَبَدًا مِحَالِكَ  
لَتَنَا فَاَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

لَاهُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَم  
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ  
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقِبْ

وقال ثعلب بن حبيب الخثعمي، وهو جاهلي شهد الفيل وصنع الله في ذلك اليوم:

تَعِمَّتَاكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا  
لَدَى جَنْبِ الْمَحْضَبِ مَا  
رَأَيْنَا  
كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا  
وَحَصَبَ حَجَارَةٍ تُلْقَى عَلَيْنَا

أَلَا رُدِّي جِمَالِكَ يَا رُدَيْنَا  
فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ وَلَنْ تَرِيهِ  
أَكَلُ النَّاسِ يَسْأَلُ عَنْ  
تُفَيْلِ  
حَمِدْتُ اللَّهَ أَنْ عَايَنْتُ  
طَيْراً

وقال المغيرة بن عبد الله المخرومي:

حَبَسَتْهُ كَأَنَّهُ مُكَرَدَسٌ

أَنْتَ حَبَسْتَ الْفِيلَ  
بِالْمَغْمَسِ  
مُحْتَبَسٌ تَزْهَقُ فِيهِ الْأَنْفُسُ

قال الله تبارك وتعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَزْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ"، وأنزل هذه السورة وقريش يومئذٍ مُجلبون في الردِّ على النبي صلى الله عليه وسلم، وما شيءٌ أحبُّ إليهم من أن يَرَوْا له سَقَطَةً أو عُنْتَرَةً أو كِذْبَةً، أو بعضَ ما يتعلَّق به مثلهم، فلولا أنَّه كان أذكَرَهُم أمراً لا يتدافعونه ولا يستطيع العدوُّ إنكاره، لِذَلي يُرى من إطباق الجميع عليه، لوجدوا أكبرَ المقال، فهذا بابٌ يكثرُ الكلام فيه، وقد أتينا عليه في كتاب الحُجَّة.

وقال: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ"، مثل قوله: "أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ"، وقال: "وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ"، وهذا كلُّه ليس من رؤية العين لنا. استطراد لغوي وباب آخر من هذا، وهو قوله: "وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ"، ويقول الرجل: رأيتُ الرجلَ قال كذا وكذا، وسمعتُ الله قال كذا، وفلانٌ يرى السَّيفَ، وفلانٌ يرى رأيَ أبي حنيفة، وقد رأيت عَقْلَهُ حسناً، وقال ابن مُقبل:

سَلِ الدَّارَ مِنْ جَنْبِي حَبِيرٌ      بَحِيثٌ يَرَى هَضْبَ القَلِيبِ

## فَوَاهِب

## المَضِيحُ

وإذا قابلَ الجبلُ الجبلَ فهو يراه، إذ قام منه مقام الناظر الذي ينظر إليه. وتقول العرب: دارُ فلانٍ تنظر إلى دار فلان، ودورُ بني فلان تنظر. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنا بريء من كلِّ مسلمٍ مع مشركٍ قيل: ولم يا رسول الله؟ قال: لا تراءى ناراهم

ويقولون: إذا استقمت تلقاءً وجهك فنظر إليك الجبلُ فخذُ عن يمينك، وقال الكميت:

وفي ضَبْنٍ حِقْفٍ يَرَى  
حِقْفَهُ  
حَطَافٍ وَسَرَخَةً وَالْأَحْدَلُ

## جسامة الفيل

قال أبو عثمان: خرجت يومَ عيدٍ، فلما صرت بعيساباذ إذا أنا بتلٍّ مُجَلَّلٍ بقطوع ومقطعات، وإذا رجالٌ جلوسٌ، عليهم أسلحتهم فسألتُ بعضَ من يشهدُ العيدَ فقلتُ: ما بال هذه المسلحة في هذا المكان وقد أحاطَ الناسُ بذلك التلِّ؟ فقال لي: هذا الفيلُ فقصدتُ نحوه وما لي همٌ إلا التُّنْظُرُ إلى أذنيه فرجعتُ عنه بعد طول تأملٍ وأنا أتوهمُ عامَّةَ أعضائه بل جميعَ أعضائه إلا أذنيه، وما كانت لي في ذلك عِلَّةٌ إلا شغَلَ قلبي بكلِّ شيءٍ هجمتُ عليه منه، وكلُّه كان شاغلاً لي عن أذنه التي إليها كان قَصْدِي، فذاكرتُ في ذلك سهلَ بنَ هارون، فذكر لي أنَّه ابْتُلِيَ بمثلها، وأنشدني في ذلك بيتين من شعره، وهما قوله:

أتيتُ الفيلَ محتسباً  
بِقَصْدِي  
لأبصِرَ أذنهَ وَيَطولَ فِكْرِي  
فلم أرَ أذنهَ ورأيتُ خَلْقاً  
أعجبَ الأشياءِ قال: وقال رجلٌ مرَّةً: أخزى الله الفيلَ فما أقبحه،

فقال بكر بن عبد الله المرزبي: لا تشتم شيئاً جعله الله آيةً في الجاهليَّةِ، وإرهاصاً للنبيِّوةِ.

وقال سعدان الأعمى النحوي: قلتُ للأصمعي: أيُّ شيءٍ رأيت

أعجبُ؟ قال: الفيل.

وقيل لابن الجهم: أيُّ أمورِ الدنيا أعجب؟ قال: الشم.

وقيل لإبراهيم النّظام: أيُّ أمورِ الدُّنيا أعجب؟ قال: الرُّوح.

وقيل لأبي عقيل بن دُرست: أيُّ أمورِ الدُّنيا أعجب؟ قال: النّوم.

واليقظ.

وقيل لأبي شمر: أيُّ أمورِ الدُّنيا أعجب؟ قال: التّسّيان والمذكّر.

وقيل لسلم الخلال: أيُّ أمورِ الدُّنيا أعجب؟ قال: النار.

وقيل لبطلَيْموس: أيُّ أمورِ الدنيا أعجب؟ قال: بَدَنُ الفلك، وقال

مـرّة أخـرى: الضّـياء.

وقيل لأبي عليّ عمُر بن فائدِ الأُسوارِيّ: أيُّ شيءٍ ممّا رأيت

أعجب؟ قال: الآجال والأرزاق، وكان إبراهيم بن سيّار النّظامُ شديدَ

التعجُّب من الفيل.

وكان مَعْبُدُ بنُ عُمَر يقول: إنّ السرطان والنعامَة أكثر عجائب من

الفيل، وهذا كله تفسير قول الخضر في بعض الدواب أبو عقيل

السّوّاق، عن مُقاتل بن سليمان، قال: قال موسى للخضر: أي

الدوابِّ أحبُّ إليك، وأيّها أبغض؟ قال: أحبُّ الفرسَ والحمارَ والبعيرَ؛

لأنّها من مراكب الأنبياء، وأبغض الفيل والجاموسُ والثور.

فأما البعير فمركب هودٍ وصالحٍ وشعيبٍ والنبيين عليهم السلام، وأما  
الفرس فمركب أولي العزم من الرُّسل وكلٌّ من أمره الله بحمل  
السِّلاحِ وقتالِ الكفَّارِ، وأما الحِمار فمركب عيسى بنِ مريمٍ وعزيرِ  
وبلعم، وكيف لا أحبُّ شيئاً أحياه الله بعدَ موته قبل الحشرِ.  
قال: ولما نظر الفضلُ بن عيسى الرِّقاشيُّ إلى سلَم بن قُتيبة على  
حمارٍ يريد المسجد قال: قَعْدَةٌ تَيْيٌّ وَبِدْلَةٌ جَبَّارِ.  
وأبغض الفيل لأنَّه أبو الخنزيرِ، وأبغض الثَّور لأنَّه يشبه الجاموسَ،  
وأبغض الجـاموسَ لأنَّه يشبهه الفيلُ.  
وأنشدني في هذا المعنى جَعْفَرُ ابنُ أختِ واصلِ، في منزل الفضلِ  
بن عاصم الباخريِّ:

أحب عيراً وذا كم غاية  
الكذب  
وكان في الفلك فراجاً من  
الكرب  
حاجاتِ نفسك من جدٍ  
ومن لعبٍ  
زيِّ الملوكِ لقد أوفى على  
الركبِ  
وليس يعدِ له النشوانُ في  
الطربِ  
حرٍ ومنبته من خالصِ  
الذهبِ

ما أبغض الخضر فيلاً منذ  
كان ولا  
وكيف يبغض شيئاً فيه  
معتبرٌ  
والفيلُ أقبِلُ شيءٍ لو  
تلقنهُ  
ولو تتوجَّ فينا واحداً  
فراي  
يبغضى ويركعُ تعظيماً  
لهيبته  
وليس يجذلُ إلا كلُّ ذي  
فخرٍ

مثل الزنوج فإن الله  
فضّلهم

بالجود والتّطويل في  
الخطب

قال: أنشدنيها يونس لابن رباح الشارزنجي، فمدح الفيل كما ترى  
بالطّرب والحكاية، وأنه قد أدب وعُلم السجود للملوك.

## سجود الفيل للملك

وزعموا أنّ أوّل شيء يؤدّبونه به السجود للملك؛ قالوا: خرج كسرى  
أبرويز ذات يومٍ لبعض الأعياد، وقد صقوا له ألفَ فيل، وقد أحرق به  
وبها ثلاثون ألفَ فارس، فلما بصّرتُ به الفيلةُ سجدتُ له، فما رفعتُ  
رأسها حتى جذبتُ بالمحاجن وراطتها الفئالون.  
وقد شهد ذلك المشهد جميعُ أصناف الدوابّ: الخيلُ فما دونها، وليس  
فيها شيءٌ يفصل بين الملوك والرعيّة، فلما رأى ذلك كسرى قال:  
ليت أنّ الفيلَ كان فارسياً ولم يكن هنديّاً، انظروا إليها وإلى سائر  
الدوابّ، وفصّلوها بقدر ما ترون من قهّما وأدبها.  
وأما ما ذكر به الرّنج من طول الخطب فكذلك هم في بلادهم وعند  
نوابهم، ولكنّ معانيهم لا ترتفع عن أقدار الدوابّ إلاّ بما لا يذكر.

## ما قيل في تعظيم شأن الفيل

وأُشِدوا في تعظيم شأن الفيل وصحة نظره وجودة تحديقته وتأمله، وسكون طرفة، والشعر لبعض المتكلمين:

إذا ما رأيت الفيل ينظر      ظننت بأن الفيل يلزمه  
قاصداً      القرضُ

وقد قيل إن الشعر لسهل بن هارون.  
مثل النون والضب وقال عبد الأعلى القاص: يقال في المثل: إنَّ  
النون قال للضبِّ حينَ رأى إنساناً في الأرض: إني قد رأيتُ عجباً،  
قال: وما هو؟ قال: رأيتُ خَلْقاً يمشي على رجليه، ويتناول الطعام  
بيديه فَيُهَوِي به إلى فيه، قال: إنَّ كان ما تقولُ حَقاً فإِنَّه سيُخرِجُني  
من قعر البحر ويُنزلُك من وَكْرِك من رأس الجبل.

### تناول الفيل والقرد طعامه

والفيل أعجبُ منه، لأنَّ يده أنفه، وأيدي البهائمِ والسَّبَاع على حال  
عاملة شيئاً، والقردُ يأكل بيديه وَيَنْقِي الجوزة ويتفلى وَيَقْلِي أنثاه،  
وليس شيءٌ يكرَع بأنفه ويُوصلُ الطعامَ إلى فيه بأنفه غير الفيل.  
إطعام الدب ولدها والدب الأنثى تُقيم أولادها تحت شجرةِ الجوز، ثم  
تصعد الشجرة فتجمَع الجوز في كَفِّها، ثم تضرب باليمنى على  
اليسرى فتحطم ذلك الجوز فترمي به إلى أولادها، فلا تزال كذلك  
حتى إذا شبعن نزلت.

وربما قطع الدُّبُّ من الشجرة الغُصن العَبْل الصَّخَم الذي لا يقطعه  
صاحب الفأس إلاَّ بالجهد الشديد، ثم يشدُّ به على الفارس قابضاً  
عليه في موضع مقبض العصا فلا يصيبُ شيئاً إلاَّ هَتَّكته.

## قلة تصرف يدي الفيل

قال صاحب المنطق: ليس شيءٌ من ذوات الأربع إلاَّ وتصرَّف يديه  
في الجهات أقلُّ من تصرَّف يَدَي الفيل.

## شعر في وصف جلد الفيل والجاموس

وقال أبو عثمان: ويوصف جِلْدُ الفيل، وجلدُ الجاموس بالقوَّة، قال جميل:

إذا ما علَّتْ تَشْرَأَ تَمُدُّ	كما امتدَّ نِهْيُ الأَصْلَفِ
زِمَامَهَا	المتفرِّقِ
وما يبتغي مِئِّي العُدَاهُ	وَمِنْ جِلْدِ جاموسٍ سمينِ
تفاقدوا	مطرَّقِ
وأبيضَ مِنْ ماءِ الحديدِ	له بعد إخلاص الضريبةِ
اصطفَيْتُهُ	رَوْتَقُ

شعر فيه ذكر الفيل وقال كعبُ بن زهير في اعتذاره إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم:

لقد أقومُ مقاماً لو يقوم	أرى وأسمعُ ما لو يسمعُ
به	الفيلُ
لظَلَّ يُرْعَدُ إلاَّ أن يكون	مِنْ الرَّسولِ بأمر الله
له	تنويلُ

وذكر أمية بن أبي الصلت سفينة نوح فقال:

تصرخ الطَّيْرُ والبريةُ فيها	مَعَ قوِيِّ السَّبَاعِ والأفيالِ
حينَ فيها من كلِّ ما عاشَ	بين ظَهْرِي غوارِبِ

زَوْجٌ  
وقال أمية أيضاً:

كالجبالِ

تَعَصِفُ اليَابِسَاتِ  
والمَحْضُورَا  
لَ شَيْءٍ وَالرَّيْمَ وَالْيَعْفُورَا  
وَنَعَاماً خَوَاضِباً وَحَمِيرَا  
وَسِبَاعاً وَالنَّمْرَ وَالْجَنْزِيرَا  
خَلَقَ النَّحْلَ مُعْصِرَاتٍ  
تَرَاهَا  
وَالْتِمَاسِيحَ وَالثِّيَابِلَ  
وَالْأَيِّ  
وَصُورَاراً مِنَ التَّوَاشِطِ  
عَيْنَا  
وَأَسْوَدَاً عَوَادِيَاً وَفِيولَاً

### طيب عرق الفيل

وتزعم الهند أنّ جبهة الفيل في بعض الزمان تَعْرِقُ عَرَقاً غليظاً غيرَ سائلٍ، يكون أطيّبَ رائحة من المسك، وهذا شيءٌ يعتريه كلّ عامٍ، وموضعُ ذلك ينبوعٌ في جَبْهَتِهِ. فأرة المسك والإبل والنَّاسُ يَجِدُونَ رِيحَ المسك في بيوتهم في بعض الأحيان، وهي ریح فارةٍ يقال لها فارة المسك، والذي يكون في ناحية خراسان الذي له فأر المسك ليسَ بالفأر، وهو بالخِشْفِ حين تَصَرَّعُهُ الطَّبِيرُ ..... شُءٌ أَشْبَهَ بِهِ. وتقول العرب في فارة الإبلِ صادرةً: إِنَّ أَرَجَ ذَلِكَ الْعَرَقِ أَطْيَبُ مِنَ الْمَسْكِ الْأَذْقَرِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. قال الراعي:

لَهَا فَارَةٌ دَفْرَاءُ كُلِّ  
عَشِيَّةٍ  
كَمَا فَتَقَ الْكَافُورَ بِالْمَسْكِ  
فَاتِقُهُ

قال الأصمعيّ قلت لأبي مَهْدِيَةَ، أو قيل لأبي مَهْدِيَةَ: كيف تقول لا طيب إلا المسك؟ قال: فأين أنت من البان، قال: فقل له: فقل: لا طيب إلا المسك والبان، قال: فأين أنت عن أدهانٍ بحجرٍ، قالوا له: فقل: لا طيب إلا المسك والبان وأدهانٍ بحجرٍ، قال: فأين أنتم عن

فـ\_\_\_\_\_إِبـ\_\_\_\_\_ل ص\_\_\_\_\_ادرة؟.  
قالوا: وربُّما وَجَدَ النَّاسُ فِي بِيوتِهِمُ الْجُرْدَ يَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ، يَجْدُونَ  
مِنْ بَدَنِهِ إِذَا عَدَا إِلَى جُحْرِهِ رَائِحَةً تُشْبِهُ رَائِحَةَ الْمَسْكِ، وَبَعْضُ النَّاسِ  
يَزْعَمُ أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ هُوَ الَّذِي يَحْبَأُ الْمَدَنَانِيرَ وَالْمَدْرَاهِمَ وَالْحُلِيِّ، كَمَا  
يَصـ\_\_\_\_\_نَعِ الْعُقُوعُ ق\_\_\_\_\_وَالْعُ\_\_\_\_\_رَابُ.  
وهذا الجرْدُ غير فارة المسك التي تكون بخراسان، وتلك بالخِشْفِ  
الصَّغِيرِ أَشْبَهَ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُونَ سُرَّتَهُ وَهِيَ مَلَأَى مِنْ دَمٍ عَبِيطٍ.

### الآية في الفيل

قالوا: وقد جعل الله الفيلَ من أكبر الآيات وأعظم البُرْهانات للبيت  
الحرام ولِقَبْلَةِ الْإِسْلَامِ، وَتَأْسِيساً لِنَبْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
وَتَعْظِيماً لِشَأْنِهِ وَلَمَّا أُجْرِيَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى يَدَيْ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، حِينَ  
غَدَّتِ الْحَبَشَةُ لِتَهْدِمَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَتُذِلَّ الْعَرَبَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ مِنْهُمْ  
مَلِكاً وَلَا سُوقَةً بِاسْمٍ وَلَا تَسْبٍ وَلَا لِقَبٍ وَذَكَرَ الْفِيلَ بِاسْمِهِ الْمَعْرُوفِ،  
وَأَضَافَ السُّورَةَ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا الْفِيلَ إِلَى الْفِيلِ، وَجَعَلَ فِيهِ مِنَ الْآيَةِ  
أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قَصَدُوا بِهِ نَحْوَ الْبَيْتِ تَعَاصَى وَبَرَكَ، وَإِذَا خَلَّوهُ وَسَوَّمَهُ  
صَدَّ عَنْهُ وَصَدَفَ، وَفِي أضعاف ذلك التَّقَمَّ أَذَنَهُ تُفِيلُ بْنُ حَبِيبٍ، وَقَالَ:

ابـرُكُ محمـود، وكنان ذلك اسمـه.  
الطعن في قصة الفيل وقد طعن في ذلك ناسٌ فقالوا: قد يستقيم  
أن ينصرف عنه وَيَحْرِدَ دوتَه، كلُّ ذلك بتصريف اللّٰه له، وكيف يجوز  
أن يَفْهَمَ كلامَ العرب ويعرفَ معنى قول نُفَيْلٍ؟ فإن قلتُم: قد يفهم  
الفيل عن الفَيَّالِ جميعَ الأدب والتقويم، وجميعَ ما يريد منه عند الحَطِّ  
والرَّحِيلِ والمُقَامِ والمسِيرِ، قلنا: قد يفهم بالهنديّة كما يعرف الكلبُ  
اسمَه، ويعرفُ قولهم اخسأ، وقد يعرف السَّنُوْرُ اسمَه ويعرف المدُّعاءَ  
والرَّجْرَ، وكذلك الطَّفْلُ والمجنون، وكذلك الحمازُ والفرس إذا كنَّ قد  
عُوِّدْنَ تلك الإشارة، وسماعَ تلك الألفاظ، فأما الفيل وهو هنديٌّ جلبَه  
إلى تلك البلدة حبشيٌّ، فخرجَ من عُجْمَةَ إلى عجمة، كيف يفهمُ مع  
ذلك لسانَ العرب وسِرارَ نُفَيْلِ بن حَبِيبٍ بالعربيّة؟ قلنا: قد يستقيم  
أن يكون قال له كلاماً بالهنديّة كان قد تَعَوَّدَ سَماعَه من الفَيَّالين،  
فيكونَ ترجمتُه بالعربيّة هذا الكلامَ الذي حَكَّوْهُ، وقد يكون الذي أنطَقَ  
الدُّنْبَ لأهبانَ بنِ أوسٍ؛ وجعل عود المنبر يحنُّ إلى النبي صلى الله  
عليه وسلم، أن يصوِّرَ لوهم الفيل إرادة نُفَيْلِ بن حبيب، وقد يستقيم  
مع لَقْنِ الفيل وذكائه وحكايته ومُؤاتاته، أن يعرف ذلك كلّه وأكثرَ منه،  
لطول مُقامِه في أرض الحَبَشَةِ واليمن، وليس يبْعُدُ أن يكون بأرض

الحبشة جماعةٌ كثيرةٌ من العرب من وافد وباغٍ وتاجر، وغير ذلك من الأصناف، فيسمع ذلك منهم الفيلُ فيعرفه، وليس هذا المقدار بمستنكرٍ من الفيل، مع الذي قد أجمَعُوا عليه من فهم الفيل ومعرفة هـ.

وكان منكه المتطبَّب الهنديِّ صحيح الإسلام، وكان إسلامه بعد المناظرة والاستقصاء والتثبُّت، قالوا: فسمع مَرَّةً من رجل وهو يقرأ: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ"، وسمع بعض الجهال يقول: فكيف لو رأى الفيل؟ فعذله قوم، فقال منكه: لا تَعْذُلُوهُ فَإِنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ خَلْقَ الْفِيلِ أَعْجَبٌ، ف قيل له: فكيف لم يضرب به الله تعالى المثلَ دونَ البعير؟ فقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار النظام، فقلت له: ليس الفيلُ بأعجبَ من البعير، واجعَلْهُ يعجَّب من البعير، وهو إنما خاطب العرب، وهم الحجةُ على جميع أهل اللغات، ثم تصير تلك المخاطبةُ لجميع الأمم بعد الترجمة على السنة هؤلاء العرب، المذنبين بهم بدأت المخاطبة لجميع الأمم، وكيف يجوز أن يعجَّب جماعة الأمم من شيءٍ لم يروه قطُّ، ولا كانَ على ظهرها يوم نزلت هذه السورة رجلٌ واحد كان قد شهد الفيلَ والحبشة، وعلى أن الفيلَ واقى مكة وما بها أحدٌ إلاَّ عبدُ المطلب في نفي من بقية النَّاس، ولا كانوا حيث



معروفان، وما زالتا قائمين حتى جاء الإسلام، فلا يجوز أن يكون  
السَّالِب والمسلوب، والمفتخر به والمفتخر عليه، والحاسد  
والمحسود، والمتدين به والمنكر له، مع اختلاف الطبائع وكثرة العلل،  
يُجْمَعون كلهم على قبول هذه الآية وتصديق هذه السُّورة، وكلهم  
مُطَبِّقٌ على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم، والكُفْر به. والمحلُّون  
من العرب ممَّن كان لا يرى للحرَم ولا للشَّهر الحرام حُرْمَةً: طَيْئٌ  
كلها، وختعمٌ كُلُّها، وكثيرٌ من أحياء قُضاعة وَيَشْكُر والحارث بن كعب،  
وهؤلاء كلُّهم أعداءٌ في الدِّين والنَّسب، هذا مع ما كان في العرب من  
النِّصاري الذين يخالفون بينَ مُشركي العرب كلِّ الخلاف، كتغلب،  
وشيبان، وعبد القيس، وقضاعة، وعَسَّان، وسَلِيح، والعباد، وتَنُوخ،  
وعاملة، ولخم، وجُدَّام، وكثيرٌ من بلحارث بن كعب، وهم خُلطاء  
وأعداء، يُغاورون وَيَسْبُون، وَيُسَبِّونهم، وفيهم التُّور والأوتار  
والطوائل، وهي العربُ وألسنتُها الجِداد، وأشعارُها التي إنما هي  
مِياسم، وَهَمَمُّها البعيدة، وطلبُها للطَّوائل، وذمُّها لكلِّ دَقِيقٍ وجليلٍ  
من الحسن والقبيح، في الأشعار والأرجاز والأسجاع، والمزدوج  
والمنثور، فهل سمعنا بأحد من جميع هؤلاء المذنبين ذكرنا أنكر شأنَ  
الفيل، أو عَرَضَ فيه بحرف واحد.

## كلام الفيل والذئب

ورزين العروضي - وهو أبو زهير - لم أر قط أطيّب منه احتجاجاً، ولا أطيّب عبارة قال في شعرٍ له يهجو ولدعقبة بن جعفر، فكان في احتجاجة عليهم وتقرّيعه لهم أن قال:

فقد لعمرى أبوكم كَلَّمَ	تَهْتُمُّ عَلَيْنَا بِأَنَّ الذَّئْبَ
الذَّيْبَا	كَلَّمَكُمْ
تركتُمُ الناسَ مأكولاً	فكيفَ لو كَلَّمَ اللَّيْثَ
ومَشْرُوبَا	الهَـصُورَ إِذَا
يكلّمُ الفِيلَ تصعيداً	هذا السُّنْدِيُّ لا أصلُ ولا
وتَصُوبَا	طرف

ولو كان ولد أهبان بن أوسٍ ادَّعَوْا أَنَّ أباهم كَلَّمَ الذَّئْبَ، كانوا مجانيين وإنما ادَّعَوْا أَنَّ الذَّئْبَ كَلَّمَ أباهم، وأتته ذِكْرَ ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأتته صَدَقَهُ. والفيلُ ليس يكلّمُ السنديّ، ولم يدع ذلك السنديّ قطُّ، وربّما كان السُّنْدِيُّ هو المكلّم له، والفيل هو الفهم عنه، فذهب رزين العروضي من الغلط في كل مذهب. ما يكلّم من ضروب الحيوان والنّاس قد يكلّمون الطيرَ والبهائم والكلابَ والسَّنائيرَ والمراكبَ، وكلّ ما كان تحتهم من أصناف الحيوان التي قد خولوها وسخّرت لهم، وربّما رأيت القرداً يكلّم القرد بكلّ ضرب من الكلام، ويطيعه القرد في جميع ذلك، وكذلك ربّما رأيت يلقن البغاء ضرباً من الكلام، والبنّغاء تحكيه، وإنّ في

غراب البين لعجباً، وكذلك كلامهم للذب والكلب والشاة المكيّة،  
وهذه الأصناف التي تلقن وتُحكى.  
تكليم الأنبياء للحيوان وقد روى الناس عن النبي صلى الله عليه  
وسلم في كلام السباع والإبل ضرورياً، ولم يذهبوا إلى أنها نطقت  
بحروف مقطعة، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم إما أن يكون  
الله أوحى إليه بحاجاتها، وإما أن تكون فراسته وحسّه وتبته في  
الأمور، مع ما يُخضّره الله من التوفيق، بين له معانيها وجلالها له،  
واستدلّ بظاهر على باطن، وبهيئة وحركة على موضع الحاجة، وإما  
أن يكون الله ألهمه ذلك إلهاماً.  
وأما جهة سليمان بن داود، صلى الله عليه وآله، في المعرفة  
بمنطق الطير ومنطق كل شيء، فلا ينبغي أن يكون ذلك إلا أن  
يقوم منها في الفهم عنها مقام بعضها من بعض، إذا كان الله قد  
خصّه بهذا الاسم، وأبانه بهذه الدلالة، وأعلام الرسل لا يكثر عددها،  
ولا تعظم أقدارها على أقدار فضائل الأنبياء؛ لأن أكثر الأنبياء فوق  
سليمان بن داود، وأدنى ذلك أن داود فوقه، لأن الحكم في الوارث  
والمورث، والخليفة والذي استخلفه، أن يكون المورث أعلى،  
والمستخلف أرفع، كذلك ظاهر هذا الحكم حتى يخص ذلك برهاناً

حـ \_\_\_\_\_ اداث.

وإنما تكثر العلامات وتعظم على قدر طبائع أهل الزمان، وعلى قدر الأسباب التي تتفق وتتهيا لقومٍ دون قوم، وهو أن يكونوا جابرةً عُتاةً، أو أغبياءً منقوصين، أو علماءً معاندين، أو فلاسفةً محتالين، أو قوماً قد شملهم من العادات السيئة وتراكم على قلوبهم من الإلف للأمور المزديّة، مع طول لبث ذلك في قلوبهم، أو تكون نخلتهم وملتهم ودعوتهم تحتل من الأسباب والاحتيالات أكثر ممّا يحتمل غيرها من ذلك، فإنّ من الكفر ما يكون عند المسألة، والجواب أسرع انتشاراً وأظهر انتقاضاً، ومنه ما يكون أمّتن شيئاً، وإن كان مصير الجميع إلى الانتقاض وإلى الفساد، ومنه شيء يحتاج من المعالجة إلى أكثر وأطول، وإنما يتفاضل العلماء عند هذه الحال، وقد يكون أن ينقذ في قلوب الناس عداوات وأضغان سببها التّحاسد الذي يقع بين الجيران والمتفقين في الصّناعة، وربما كانت العداوة من جهة العصبية، فإنّ عامّة من ارتاب بالإسلام إنما كان أوّل ذلك رأي الشّعوبية والتمادي فيه، وطول الجدل المؤدّي إلى القتال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبّ من أبغض تلك الجزيرة،

فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وكانوا السلف والقدوة. أثر العُلمة في الجسم والعمر وتزعم الهند أنّ شِدَّةَ غُلْمَةِ الفيل وطولَ أَيَّامِهِ فيها وهجراته الطَّعامَ والشَّرَابَ، وبقيَّة تلك الطبيعة، وعملَ ذلك العرقِ السَّاري، هو الذي يمنع الفيل أن يصير في جسمه مَرَّتَيْنِ، لأنَّ ذلك مِن أمتن أسباب الهُزال، وإذا تقادَمَ ذلك في بدن وَعَبَّ فيه، عمل في العظم والعصب، بَعْدَ الشَّحم واللَّحم، وإذا كان رفعُ الصوت والصَّياحُ وكثرةُ الكلام والغضبُ والحدَّة، إنما صار يورثُ الهُزال لأنَّ البدن يسخُن عن ذلك، وإذا شاعت فيه الحرارة أحرقتُ وأكلتُ وشربت، ولذلك صار الحَصِيُّ من الدُّيوكِ والأنعامِ أسْمًا \_\_\_\_\_ مَن.

وزعموا أنّه ليس فيما يعايش الناس من أصناف الحيوان أقصرُ عمراً من العصفور، ولا أطولُ عمراً من البغل، وللأمور أسبابٌ، فليس يقع الظنُّ إلاّ على قلة سِفاد البغل وكثرة سِفاد العُصفور. قالوا: ونجد العمرَ الطَّويلَ أمراً خاصاً في الرُّهبان، فنظنُّ أيضاً أنّ تركها الجِمَاعَ من أسباب ذلك. قالوا: وإذا اغتلم الذكْرُ من الحيوان فهو أخبث ما يكون لحماً، وإذا

كُثِرَ سِفَاؤُهُ تَضَاعَفَ فِيهِ ذَلِكَ، وَصَارَ لَحْمَهُ أَيْبَسَ وَدُمُهُ أَقْلَّ.

قال الشاعر:

أُحِبُّ أَنْ أَصْطَادَ صَبًّا  
سَخْبَلًا  
أَوْ جُرْدًا يَرعى رَبِيعًا أَرْمَلًا

فجعله أَرْمَلٌ لا زوجة له ليكون أَسْمَنَ له؛ لِأَنَّ كَثْرَةَ السَّفَادِ مِمَّا يورث الهزال، ولا يكثر سفاده إلا من

شَدَّةِ غَلْمَتِهِ

وهجا أعرابيُّ صاحبه حين أكل لحمَ سَوْءٍ عَتَّ فقال:

أَكَلْتَهُ مِنْ عَرَثٍ وَمِنْ قَرَمٍ  
كَالْوَرْلِ السَّافِدِ يَغْتَنَى  
بِالنَّسَمِ

لأنَّ لَحْمَ الْوَرْلِ لا يشبه لحم الضَّبِّ، وهم لا يرغبون في أكله لأنه عَصِلٌ مَسِيخٌ، ولأنهم كثيراً ما يجدون في جوفه الحياتِ والأفاعي، وله ذنبٌ سمينٌ، وذلك عامٌّ في الأذنان، وإن رأيتها في العين كأنها عَصَلٌ، فإذا كان لحمها كذلك، ثم كان في زمن هيجه وسفاده كان شراً له. وللورل في السَّفَادِ ما يجوز به خَدُّ الْجَمَلِ والخنزير. قال: والنسَمُ هـ والنَّسِيمُ هـ في هذا المكان. وقالت أمُّ قَرْوَةَ القرنية:

نَفِي نَسَمُ الرِّيحِ الْقَدَى عَنْ  
مُتُونِهِ  
فَمَا إِنَّ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ  
لِشَارِبِ

وأنا أعلمُ أنني لو فسَّرْتُ لك معاني هذه الأشعار وغربتها، لكان أتمَّ للكتاب وأنقَعَ لمن قرأ هذه الأبواب، ولكنني أعرف مَلَآةَ النَّاسِ للكتاب إذا طال، قال الشاعر يهجو من قرأه لحمَ كلب:

فَجَاءَ بِخَرْشَاوِيٍّ شَعِيرٍ  
عَلَيْهِمَا  
كَرَادِيسٌ مِنْ أَوْصَالِ أَعْقَدِ  
سَافِدِ  
فلم يرضَ أَنْ جعله كلباً حتى جعله سافداً، فأما ابنُ الأعرابيِّ فزعم أنه إنما عَتَى تيساً، وقد أَبْطَلَ، وعلى أَنَّ المعنى فيهما سواء. أثر الخصاء في اللحم قالوا: وإنما صار الخصيُّ من كلِّ جنسٍ أَسْمَنَ

لَأَنْتُمْ لَمْ تَسْأَلُوا لَمْ يَسْأَلُوا وَلَا يَهَيِّجُ ج.

السقنقور قالوا: والسقنقور إنما ينفعُ أكله إذا اصطادوه في أيام هَيْجِه وسِفاده؛ لأنَّ العاجز عن التَّسَاء يتعالج بأكل لحمه، فصار لحمُ الهائِج أَهْيَـج لـه.

أبو نواس والحرامي أقبل أبو نواسٍ ومعه الحرَامِيّ الكاتب، وكان أَطْيَبَ الخَلْق، وقد كانا قبل ذلك قد نظرا إلى الفيلة فأبصرا عُرمولَ فيل منها، وعلم الحرَامِيّ أَنَّ عُرمولَ الفيلِ يُوصَفَ بالَجَعْبَة، فوصف لنا عُرمولَه، وأنشدنا فيه شعراً لنفسه:

كَأَنَّهُ لَمَّا بَدَا لِلسَّقْدِ جَعْبَةٌ تُرْكَيٌّ عَلَيْهَا لِبْدٌ

قلنا له: أَقْوَبْتُ واجتلبتُ ذِكْرَ اللبِّدِ عن غير حاجة، قال: فَإِنِّي قَدْ قَلْتُ غَيْرَ هَذَا، قلنا: فَأَنْشِدْنَا، فقال:

كَأَنَّهُ لَمَّا دَنَا لِلشَّدِّ شَمْعَةٌ قَيْلٌ لُقِّقَتْ فِي لِبْدِ

قلنا: فلا نرى لك بُدًّا من اللبِّدِ على حال؟ قال: قال أبو نواس: فَإِنِّي أَقُولُ عَنْكَ بَيْتَيْنِ، قال: فَهَاتِيهِمَا،

فقال:

كَأَنَّهُ لَمَّا دَنَا لِلوُثْبَةِ أَيُّورُ أَعْيَارٍ جَمَعْنَ صَرَبَهُ

قال الحرَامِيّ لأبي نواس: هَبُّهُمَا لِي عَلَى أَنْ لَا تَدَّعِيَهُمَا، فَعَسَى أَنْ

أَنْتَجِلَّهُمَا، قُلْتُ لَهُ: وَمَا تَرْجُو مِنْ هَذَا الصَّرْبِ مِنَ الْأَشْعَارِ؟ قَالَ: قَدْ

رَأَيْتُ عُرمولَه، فَمَا عُذْرِي عِنْدَ الْفِيلِ إِنْ لَمْ أَقُلْ فِيهِ شَيْئًا.

## فهم الفيل الهندية

وحدّثني صديقٌ لي قال: رأيتُ الفَيَّالينَ على ظهر فيلٍ من هذه الفيلة، وأقبل صبيٌّ يريد السنديّ الرّاكب، فكلمَ الفيلَ بالهنديّة فوقف، ثم كَلَّمه فمدَّ يده رافعها في الهواء حتى ركبها الغلامُ، ثم رفع يده حتى مدَّ السنديُّ يده، فأخذ بيد الصبيِّ. أخلاف الحيوان وأطبأؤه وللبقر والجواميس أربعة أخلافٍ في مؤخر بطنها، وللشاة خلفان، وللناقة أربعة في مؤخر البطن، وللمرأة والرّجل والفيل ثديان في الصدر، وتَدِي الفيل يصغر جدّاً إذا قرنته إلى بدنه، وللسنور ثمانية أطبَاء، وكذلك الكلبُ في جميع بطونها، والخنزيرة كثيرة الأطبَاء، وللفهدية في بطنها أربعة أطبَاء، وللبؤة طبيان لا يصغران عن مقدار بدنها، والبقرة والأتان والرّمكة والحجر في ذلك سواء، إلا أنها من الحافر أطبَاء، ومن الظلف أخلاف، والسَّبَاعُ في ذلك والحافر سواء.

### عضو الفيل

وقال صاحبُ المنطق: عُرمول الفيل يصغر عن مقدار بدنه، وحُصيته لاحقَةٌ بكُلّيته لا تُرى، ولذلك يكونُ سريع السّفاد.

وزعم الهنديُّ صاحبُ كتاب الباه أَنَّ أعظمَ الأيور أَيْزُ الفيل، وأصغرها أير الظَّبِّي.

## الفيل في كتاب الحيوان

وما أعجَبَ ما قرأتُ في كتاب الحيوان لصاحب المنطق، وجدُّته قد ذكر رأس الفيل وقِصر عنقه، ولم يذكر انقلابَ لسانه، وذلك أعجَبُ ما فيه، ولم يذكر في كم يَصَعُّ، ولا مقدار وزن أعظم الأنياب وكيف يخرج من بطن أمّه نابت الأسنان.

## خصائص الفيلة

والفيلة لا تلد التوأم، قال: وهي تَفِدُّ وتُفَرِد، قال: وقال بعضُ العلماء: لا يقال أفدَّت ولا أفردت إلا لما يجوز أن يُتَّهم. قال: وأمراضها أقلُّ من أمراض غيرها، إلا أن النَّفْحَ والرِّياح يعرضُ لها كثيراً ويؤذيها أذى شديداً، وعامةُ أمراضها من ذلك، حتى ربَّما منَعها البولُ وغير ذلك، قال: وإذا أكلت التُّراب صرَّها ذلك، ولا سيَّما إذا أكثرت منه فعــــاودته. علاج الفيلة قال: وربَّما ابتلعت منه الحجارة، قال: وإذا أصابها

استطلاقُ سُقَيْتِ الْمَاءِ الْحَارِّ وَعُغِلَّتِ الْحَشِيثَ الْمَعْسُولَ، وَإِذَا  
أَتَعَبُوهَا اعْتَرَاهَا السَّهَرُ، فَتَعَالَجَ عِنْدَ ذَلِكَ بِأَنْ تُدْلِكَ أَكْتَأُهَا بِزَيْتٍ وَمَاءٍ  
حَارٍّ، قَالَ: وَبَعْضُهَا يَشْرَبُ الزَّيْتَ شُرْبًا دَرِيْعًا.  
تَذِيلُ الْفَيْلِ قَالَ: وَإِذَا تَصَعَّبَ الْفَيْلُ وَكَانَ فِي جِدْثَانٍ مَا اقْتَطَعُوهُ مِنْ  
الْوَحْشِ فَإِنَّهُمْ يُنْزِرُونَ عَلَيْهِ فَيْلًا مِثْلَهُ، وَيَحْتَالُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَمَا أَكْثَرَ  
مَا يَجِدُونَهُ بَعْدَ ذَلِكَ قَدْ لَانَ.  
قَالَ: وَهُوَ مَا دَامَ رَاكِبُهُ عَلَيْهِ فَهُوَ أَلِينٌ مِنْ كُلِّ ذِي أَرْبَعٍ، وَأَحْسَنُ طَاعَةٍ،  
وَلَكِنْ لِبَعْضِهَا صَعُوبَةٌ عِنْدَ نَزْوِلِهِ عَنْهُ، فَإِذَا شَدُّوا مَقَادِيمَ قَوَائِمِهَا  
بِالْحَبَالِ شَدًّا قَوِيًّا لَأَنْتَ.  
قَالَ: وَهِيَ عَلَى صَعُوبَتِهَا تَأْتِسُ سَرِيْعًا وَتَلْقَنُ سَرِيْعًا، فَأَوَّلُ مَا يَعْلَمُ  
السُّجُودُ لِلْمَلِكِ، فَإِذَا عَرَفَهُ فَكَلِمًا رَأَى سَجَدَ لَهُ.  
صَدَقَ حَسَّ الْفَيْلِ فَأَمَّا صِدْقُ الْحَسِّ فَهُوَ يَفُوقُ فِي ذَلِكَ جَمِيْعَ  
الْحَيَوَانَ، وَهُوَ وَالْجَمَلُ سَوَاءٌ إِذَا عَلَّمَا، لِأَنَّ الْأُنْثَى إِذَا لَقِيَتْ لَمْ  
يَعَاوِدَاهَا لِلصَّرَابِ، فَهَذِهِ فَضِيْلَةٌ مَذْكُورَةٌ فِي حَسِّ الْجَمَلِ، وَقَدْ شَارَكَهُ  
الْفَيْلُ فِيهَا وَبِأَيْتِهِ فِي خِصَالِ أَخْر.  
بَعْضُ خِصَائِصِ الْفَيْلِ وَإِنَاثُ الْفَيْلَةِ وَذَكَوْرُهَا مِتْقَارِبَةٌ فِي السِّنِّ، وَكَذَلِكَ  
النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ، وَهُوَ بَحْرِيٌّ الطَّبَاعُ، وَنَسَاءٌ فِي الدَّفَاءِ، وَهُوَ أَجْرُدُ

الجلد، فلذلك يشتدُّ جزعه من البرد، فإن كان أجردَ الجلد، فما قولهم في أحاديثهم: طلبوا من الملك الفيلَ الأبيضَ والفيلَ الأبقع، وجاء فلانٌ على الفيلِ الأسودِ.

حقد الفيل قال: وأخبرني رجلٌ من البحريين لم أر فيهم أفضدَ ولا أسدَّ ولا أقلَّ تكلفاً منه، قال: لم أجدهم يشكُّون أنَّ فيلاً ضربَ فيلاً فأوجعه فألحَّ عليه، وأنهم عند ذلك نهوه وخوفوه وقالوا: لا تنم حيث ينالك؛ فإنه من الحيوان الذي يحقد ويُطالب، ولما أراد ذلك السائسُ القائلة شدّه إلى أصل شجرةٍ وأحكم وثاقه، ثم تنحى عنه بمقدارِ ذراعٍ ونام، ولذلك السائسُ جُمَّة، قال: فتناولَ الفيلُ بخُرطومِه غصناً كان مطروحاً، فوطئ على طرفه حتى تشعَّت، ثم أخذَه بخُرطومِه، فوضع ذلك الطرفَ على جُمَّة الهندي، ثم لواها بخُرطومِه، فلما ظنَّ أنها قد تشبكت به وانعقدت، جذبَ العودَ جذبةً فإذا الهنديُّ تحت قوائمه، فخبطه خبطةً كأنه نفسُه فيها.

فإن كان الحديدُ حقاً في أصل مخرجه فكفاك بالفيل معرفةً ومكيدهً، وإن كان باطلاً فإنهم لم يتحلوا الفيلَ هذه النَّحلة دون غيره من الدوابِّ إلا وفيه عندهم ما يحتمل ذلك ويليق به.

طيب عرق الفيل قال: والعرق الذي يسيل من جبهته في زمن من الزمان يضارع المسك في طيبه، ولا يعرض له وهو في غير بلاده.

## أثر المدن في روائح الأشياء

وقد علمنا أنّ لرائحة الطيب فضيلة إذا كان بالمدينة، وأنّ الناس إذا وجدوا ريح النوى المنقع بالعراق هربوا منه، وأشرف أهل المدينة ينتابون المواضع التي يكون فيها ذلك، التماساً لطيب تلك الرائحة. ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزايج، وقلب تلك الجزائر، ونقب في البلاد، أنّ كلّ من أقام بقصبة ثبتت اعتراه سُروُر لا يدري ما سببه، ولا يزال مبتسماً ضاحكاً من غير عجب حتى يخرج منها. ويزعمون أنّ شيراز من بين قرى فارس، لها فغمة طيبة، ومن مشى واختلف في طرقات مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وجدّ منها عَرَفاً طيباً وبنته عجيبة لا تخفى على أحدٍ، ولا يستطيع أن يسمّيها. ولو أدخلت كلّ غالية وكلّ عطر، من المعجونات وغير المعجونات، قصبة الأهواز أو قصبة أنطاكية لوجدته قد تغير وفسد، إذا أقام فيها الشهرين والثلاثة.

## أثر بعض التمر في العرق

وأجمع أهل البحرين أنّ لهم تمرّاً يسمى النَّاجِيّ، وأنّ من فصّحه  
وجعله نبيذاً ثمّ شربه وعليه ثوبٌ أبيض، صبغهُ عرقه، حتى كأنه ثوب  
أتحم 

---

استعمال الفيلة وزعم لي بعضُ البحرِيّين أنها بالهند تكون ثقالةً  
وعوامِلَ كعوامل البقر والإبل، والثّقالة التي تكون في الكلاءِ  
والسُّوق، وأنها تذللّ لذلك وتسامح وتطاوع، وأنّ لها غلاّتٍ من هذا  
الوجه.

وزعم لي أنّ أحد هذه الفِيلةِ التي رأيناها بسُرّ من رأى، أنّه كان  
لقصّارٍ بأرض سنّدان، يحملُ عليه الثّيابَ إلى الموضع الذي يغسلها  
فيه، ولا أعلمه إلا الفيلَ الذي بعثَ به ماهانُ أو زكريا بن عطية.  
العاج قالوا: وعظامُ الفيل كلها عاجٌ، إلا أنّ جوهرَ النَّابِ أثنى  
وأكرم، وأكثرُ ما ترى من العاج الذي في القباب والحِجال والفُلك  
والمداهن إنما هو من عظام الفيل، يعرفُ ذلك بالرزّانة والملّاسة.  
والعاجُ منجرٌ كبير، ويتصرّف في وجوهٍ كثيرة، ولولا قدرُهُ لما فخر  
الأحنفُ بن قيس فيما فخر به على أهل الكوفة، حيث قال: نحن  
أكثرُ منكم عاجاً وساجاً، وديباجاً، وخراجاً، ويقال إنّ من كلام خالد  
بن صفوان، ويقال إنه من كلام أبي بكر الهذلي.

موت المذباب وإذا خفق بأذنه الفيلُ فأصاب ذباباً أو يعسوباً أو  
زبوراً لم يفلح، والفرسُ الكريم تقَعُ الذُّبابة على مُوقِي عينيهِ،  
فِيصْفِقُ بِأَحَدِ جَفَتَيْهِ، فتخرُّ الذُّبابة مِيَّتة، وقال ابن مُقبل:

كَأَنَّ اصْطِفَاقَ مَا قِيَّيْهِ  
يَطْرُقُهُ  
صِفَاقُ أَدِيمٍ بِالْأَدِيمِ يُقَابِلُهُ

ويصيح الحمار فتصعق منه الذبابة فتموت، قال العَبْسَمِيُّ:

مِنَ الْحَمِيرِ صَعِقًا ذَبَانُهُ  
وَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ مَكْدَمِ الثُّغَلِيّ:  
بِكَلِّ مَيْثَاءَ كَتَغْرِيدِ الْمَعَنَّ

وَتَرَى طَرْفَهَا حَدِيدًا بَعِيدًا  
وَقَالَ ابْنُ مُقْبَلٍ:  
أَعْوَجِيًّا يَطْنُ رَأْسَ الذُّبَابِ

تَرَى النَّعْرَاتِ الْخُصْرَ تَحْتَ  
لَبَانِهِ  
وَأَنْشَدَ فِي غَيْرِ هَذَا الْبَابِ:  
فَرَادَى وَشَتَّى أَصَعَقَتْهَا  
صَوَاهِلُهُ

وَإِنِّي لِقَاضٍ بَيْنَ شَيْبَانَ  
وَإِنِّي لِقَاضٍ بَيْنَ شَيْبَانَ  
وَأَنشَدَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، وَأَنْشَدَ:  
وَجَدْنَا بَنِي شَيْبَانَ خُرطوم  
وَأَنشَدَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، وَأَنْشَدَ:  
وَيَشْكُرُ خَنْزِيرٌ أَدَنٌ قَصِيرٌ

أَمْسَى الْمَصَاءُ وَرَهْطُهُ فِي  
غَبِطَةٍ  
لَا تَخْرَأُ الذُّبَابُ فَوْقَ  
رُؤُوسِهِمْ  
لَيْسُوا كَمَا كَانَ الْمَصَاءُ  
يَقُولُ  
فَالْيَوْمَ تَخْرَأُ فَوْقَهَا  
وَتَبُولُ

قول زياد في بناء داره أبو الحسن قال: قال زياد ودخل داره، وكان  
بناها له فيلٌ مؤلاه، فلم يرضَ بناءها، فقال: ادعُوا لي فيلاً، فلم  
يجدوه، فقال: ليتها في بطن فيل، وفيلٌ في البحر.

## قصة فيل مولى زياد

وكان فيلٌ مولى زيادٍ شديد اللُّكنة، وأهدى بعضهم إلى زيادٍ حمارَ وحش، فقال فيل: أصلح الله الأمير، قد أهدوا لنا همارَ وهش فقال: أيّ شيء تقول ويملك؟ قال: أهدوا لنا أيراً، يريد غيراً فقال زياد: الأوّل أمثل.

## العيثوم

وكان أبو مالكٍ يقول: العيثومُ الفيلُ الأنثى، وذهب إلى قول الشاعر:

وطينتُ عليك بحُفِّها العيثومُ

وبدل قول علقمة بن عبدة على أن العيثوم من صفات الفيل العظيم الضخم، وقال:

كَانَ دُفًّا عَلَى الْعَلْيَاءِ  
مَهْرُومٌ

حَنَّتْ شَعَامِيمٌ مِنْ  
أَوْسَاطِهَا كَوْمٌ  
مِنَ الْجَمَالِ شَدِيدُ الْخَلْقِ  
عَيْثُومٌ

تَتَّبِعُ جُونًا إِذَا مَا هَيَّجَتْ  
رَجَلَتْ

إِذَا تَزَعَّمَتْ مِنْ حَافَاتِهَا رُبْعٌ  
يَهْدِي بِهَا أَسَجُّ الْخَدَّيْنِ  
مُخْتَبِرٌ

ضرب المثل ببعده ما بين الجنسين وقد أكثروا في ضرب المثل ببعده ما بين الجنسين، وقال عبد

الرحمن بن الحكم:

وَتَرَضَى أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ  
رَانِي  
كَرْحَمِ الْفِيلِ مِنْ وَلَدِ  
الْأَتَانِ

أَتَغَضَّبُ أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ  
عَفٌّ  
وَأَشْهَدُ أَنْ رَحِمَكَ مِنْ زِيَادٍ

فجعل معاويةً من نسل الفيل لشرفه، وجعل زياداً من نسل الحمار لضعفه ولعمري لقد باعد؛ لأن الغنم وإن كانت من النعم من ذوات الجرّة والكروش فإن ما بين الغنم والإبل بعيد. وكذلك قول الكميت:

## على الحيتان من شبّه الحُسُول

## وما خلث الصّباب معطفات

قال: فهذا أبعد وأبعد، لأنه وإن ذهب إلى أن ولد نزارٍ عربٌ فهم في معنى الصّباب وساكني الصّحارى، وأولئك عجم، فجعلهم كالسمك الذي يعيش في الماء، ألا ترى أن معاوية بن أبي سفيان بن يزيد بن معاوية، لما قتلته ضبّه دسّت في اسنّته سمكة. قال جرير:

## إلا قرابة بين الرّج والرّوم

## ما بين تيم وإسماعيل من نسب

فقال قطرب: الصّقالبة أبعد، قيل له: إن جريراً لا يفصل بين الصّقالبة والرّوم. وعلى معنى الكميت قال الآخر: حتى يؤلف بين الصّبّ والتّون وتقول العرب: لا يكون ذاك حتى يجمع بين الأروى والتّعام لأن الأروى جبلية والتّعام شهلية، وقد قال الكميت:

## ويعجب أن نبرّ بني أبينا

## يؤلف بين صُفدعة وصّب وهذا هو معناه الأوّل، وأبعد من هذا قول الشاعر:

## حتّى يؤلف بين التّلج والتّار

قصة الجارية وأمها وقال أبو الحسن المدائني: قال أبو دهمان الغلابي عن الوقاصي، قال وحدثني بذلك العيداقيّ عن الوقاصي قال: قالت جارية لأمها ليلة رَفافها: يا أمّه، إن كان أيرٌ زوجي مثل أير الفيل كيف أحتال حتى أنتفع به؟ قال: فقالت الأم: أي بُنيّة قد سألت عن هذه المسألة أُمي فذكرت أنّها سألت عنها أمّها فقالت: لا يجوز إلا أن يجعلك الله مثل امرأة الفيل، قال: فسكتت حولاً ثم قالت

لأمّها يا أمّ، فإني إن سألتُ ربّي أن يجعلني مثلَ امرأةِ الفيل  
أتطمعُ أن يفعلَ ذلكَ؟ قالت: يا بُنَيَّةُ، قد سألتُ عن هذه المسألة  
أمّي فذكرتُ أنها سألتُ عنها أمّها فقالت: لا يجوز ذلكَ إلا أن يجعلَ  
اللَّهُ جميعَ نساءِ الرِّجالِ مثلَ نساءِ الفيلةِ، قال: فسكتتُ عنها حولاً ثم  
قالت: فإن سألتُ ربّي أن يجعلَ نساءَ جميعِ الرِّجالِ مثلَ نساءِ الفيلةِ  
أتطمعُ أن يفعلَ ذلكَ؟ قالت: يا بُنَيَّةُ، قد سألتُ عن مثلِ هذه أمّي  
فذكرتُ أنها سألتُ أمّها عنها فقالت: لا يجوز ذلكَ إلا أن يجعلَ اللَّهُ  
جميعَ رجالِ النساءِ مثلَ رجالِ نساءِ الفيلةِ، قال: فسكتتُ عنها حولاً  
ثم قالت فإن سألتُ ربّي أن يجعلَ جميعَ رجالِ النساءِ مثلَ جميعِ  
رجالِ نساءِ الفيلةِ أتطمعُ أن يفعلَ ذلكَ؟ قال: يا بُنَيَّةُ، قد سألتُ  
عن هذه المسألة أمّي فذكرتُ أنّها قد سألتُ أمّها عنها، وأنها قالت: يا  
بُنَيَّةُ، إنّ الله إن جعلَ جميعَ الناسِ فيلَةً لم تجد امرأةُ الفيلِ مع عِظَمِ  
بدنها من اللذةِ إلا مثلَ ما تجدين أنتِ اليومَ مع زوجك من اللذةِ، ثم  
تذهب عنك لذةُ السَّمِّ والتَّقْبِيلِ والضمِّ والتقليبِ، والعِطْرِ والصَّبْغِ،  
والحَلْيِ والمِشْطَةِ والعِتَابِ والتفديةِ وجميعِ ما لكِ اليومَ، قال:  
فسكتتُ حولاً ثم قالت: يا أمّ، إن سألتُ ربّي أن يجعلَ أير الفيلِ  
أعظمَ أتطمعُ أن يفعلَ ذلكَ؟ قالت الأمُّ: أي بُنَيَّةُ، قد سألتُ عن

هذه المسألة أمِّي فذكرتُ أنها سألتُ عنها أمَّها، وأنها قالت: أيُّ بُنيَّة،  
إنَّ اللهَ إنْ جعلَ أيرَ الفيلِ أعظمَ، جعلَ حِرَّ امرأةِ الفيلِ أوسعَ وأعظمَ،  
فيعودُ الأمرُ كُلُّهُ إلى الأمرِ الأولِ، قال: فسكتتُ عنها حولاً ثم قالت:  
يا أمَّه، فإنْ سألتُ ربِّي أن يجعلَ أيرَ الفيلِ أشدَّ غلْمَةً فيصيرُ عددُ  
أكوامه أكثرَ أتطمعُ أن يفعلَ ذلكَ؟ قالت: أيُّ بُنيَّة، قد سألتُ عن  
هذه المسألة أمِّي فذكرتُ أنها سألتُ أمَّها عنها، وأنها قالت: أيُّ بُنيَّة  
سَلِي اللهَ أن يجعلَ زوجَكَ أشدَّ غلْمَةً مما هو عليه، ولكن لا تسأليه  
ذلكَ حتى تسأليه أن يزيدَكَ في غلْمَتِكَ، قالت: يا أمَّه، فإنْ سألتُ ربِّي  
أن يجعلَه في غلْمَةِ التيسِ أتطمعُ أن يفعلَ ذلكَ؟ قالت: أيُّ بُنيَّة،  
قد سألتُ عن مثلِ هذه المسألة أمِّي فذكرتُ أنها سألتُ عنها أمَّها،  
وأنها قالت: لا يجوزُ أن يجعلَه في غلْمَةِ التيسِ حتى يجعلَه تيساً،  
قالت: يا أمَّه فإنْ سألتُ ربِّي أن يجعلَه تيساً أتطمعُ أن يفعلَ ذلكَ،  
قالت: أيُّ بُنيَّة، إنه لا يجعلَه تيساً حتى يجعلَكَ عَنزاً، قال: أيُّ أمَّه، فإنْ  
سألتُه أن يجعلَه تيساً ويجعلني عنزاً أتطمعُ أن يفعلَ ذلكَ؟  
قالت: أيُّ بُنيَّة قد سألتُ عن هذه المسألة أمِّي فذكرتُ أنها زارتُ أمَّها  
لتسألها عن هذه المسألة فوجدتها في آخرِ يومٍ من الدُّنيا وأوَّلِ يومٍ

من الآخرة، وما أشكُّ أن يَؤمِّي قَد دنا.  
فلم تلبثِ الأمُّ إلا أياماً حتى ماتت.

## باب الظلف

وهي الظِّباء وهي مَعْرُ، والمعزُّ أجناسٌ، والبقرُ الوحشيُّ ذاتُ أظلافٍ  
وهي بالمعزِّ أشبهُ منها بالبقرِ الأهليِّ، وهي في ذلك تسمَّى نعاجاً،  
وليس بينها وبين الظِّباء، وإن كانت ذواتِ جرَّةٍ وكروشيٍّ وقرونٍ  
وأظلافٍ تسافدُ ولا تلاقح، وهي تُشبهها في الشعر، وفي عَدَمِ السَّنام.  
ومن الظُّلفِ الوَعِلُ، والثَّيْلُ، والثَّامورُ، والأَيْلُ، جبلياتٌ كُلُّها، لا أدري  
كَيْفَ التَّسافدِ والتلاقحِ منها. —  
ومن الظُّلفِ الخنازيرُ وهي بلا كَرِشٍ ولا جِرَّةٍ ولا قَرْنٍ، وليس بينهما  
موافقةٌ إلا في الظُّلفِ، وفي الخنازيرِ ما ليس ظِلْفُه بمنشوقٌ، فذاك  
هو المخالفُ بالتَّابِ وبعدم هذه الأشياءِ كُلِّها، وتُشاكلُ المعزَّ والبقرَةَ  
والظِّباءَ بالشَّعْرِ وقِصْرِ الدَّنْبِ، وتُخالفُ البقرَ والجواميسَ في طولِ  
الدَّنْبِ، وفي عددِ أيَّامِ الحَمْلِ. ومن الظلفِ الضأنُ والمَعزُّ، وقد يكون  
بينهما تسافدٌ وتلاقحٌ إلا أنها تُلقِيه مَلِيطاً قبل أن يُشعِرَ، وذلك أقلُّ من  
القلي.

ومن الظلف البقر الأهلِيُّ، والجواميس، وهي أهليَّةٌ أبدأً، وهي موافقةٌ للضأن في القرن وفي عدم النَّاب، وفي الجرَّة والكْرِش، وتخالف الضأن في الصُّوف والسنام وتوافق المعز في الشعر وتخالف في السنام، وتخالف جميعَ الغنم في الحَمَل؛ لأن الغنم تَضَع لخمسة أشهر، والبقر تَضَعُ كما تَضَعُ المرأةُ في تسعة أشهر، وليس تُشبه المرأة في غير ذلك، إلا ما يذكرون من العَبَب وتُثَوُّ الكاهل، فإنهما ربما كانا في بعض النساء، وأكثر ذلك في نساء الدَّهاقين.

### في الزرافة

قالوا: والزرافة تكون في أرض التُّوبَة فقط، قالوا: وهي تسمَّى بالفارسية أُشْتُرْكَاؤُ بَلْنَكُ كأنه قال: بعير، بقرة، نمر، لأنَّ كاؤ هو البقرة، وأشْتُر هو الجَمَل، وبلنك هو التَّمَر. فزعموا أنَّ الزرافة ولدُ النمرة من الجمل، فلوزعمتم أنَّ الجمل يكوم الصَّبَع ويكوم بعض ما له ظِلْفٌ ما كان إلا كذلك، والمسافدة في أجناس المِخْلَب والخفِّ والحافر أعْمُّ، فلو جعلوا الفحل هو النمر، والأنثى هي الناقة، كان ذلك أقربُ في الوهم. وليس كلُّ ذكرٍ يكومُ أنثى يُلقِحُها، وقد يكومُ الإنسانُ الدابَّةَ بشهوةٍ

منهما جميعاً ولا يكون تلافُح كما اتَّفقا في المسافدة، وإنَّ الرَّاعيَ  
يَكُومُ الغنمَ وغيَرَ الغنمِ.  
وانظر، كم مِنْ صَرْبٍ ادَّعَوْا مِمَّا لَا يُعْرَفُ: فواحدة أنْ بهيمةً ذكراً  
اشتَهَى سبعاً أنثى، وهو من أصعب السَّباع، ثم الثانية أنه ألقح،  
والثالثة أنْ أرحامَ النَّمور لا تَتَسَّع لأولاد الإبل.  
قالوا: نموُّهم عِظامٌ وإبْلُهُم لِطاف، وقد تَتَسَّع أرحامُ القِلاص العربيَّة  
لفوالج كِزْمان، فتجيء بهذه الجَمَّازات، ولولا أنه فسَّرَ لجازَ أن يكونَ  
النَّميرُ يَكُومُ النَّاقَةَ فتتَّسع أرحامُها لذلك.  
قالوا: وفي أعالي بلاد النُّوبة تجتمع سباعٌ ووحوشٌ ودوابٌ كثيرة، في  
حَمارةِ القَيْظِ إلى شَرَايعِ المياه، فتتسافدُ هناك فيلقح منها ما يلقح،  
ويمتنع ما يمتنع، فيجىءُ من ذلك خلقٌ كثيرٌ مختلفٌ الصُّورة والشكل  
والقَدْر، منها الزَّرَافَةُ.  
وللزَّرَافَةُ حَظْمُ الجَمَل، والجِلد للنَّمير، والأظلاف والقرن للأَيْل،  
والدَّنب للظَّبْي، والأسنان للبقَر، فإنْ كانت أمُّها ناقةً فقد كامها نميرٌ  
وظبْيٌ وأَيْلٌ في تلك الشرائع، وهذا القولُ يدلُّ على جَهْلِ شديد.  
والزَّرَافَةُ طويلةُ الرَّجْلين، منحنية إلى ماخيرها، وليس لرجليها  
ركبتان، وإنما الرُّكبتان ليديها؛ وكذلك البهائم كُلُّها، وعَساهُ إنما أرادَ

الثغنيات، والإنسان ركبناه في رجليه.  
ويقولون: أُشْتُرُ مُرْكٌ لِلنَّعَامَةِ، على التشبيه بالبعير والطائر، يريدون  
تشابهُ الخلق، لا على الولادة.  
ويقولون للجاموس كاماش على أن الجاموس يُشبه الكباش والثور،  
لا على الولادة، لأنَّ كاماش بقرة، وماش اسم للضان.  
وقال آخر: تضع أمُّ الزرافة ولدها من بعض السباع، ولا يشعُر النَّاسُ  
بذلك الذَّكَر، قالوا: كاماش على شَبه الجواميس بالضان، لأنَّ البقر  
والضان لا يقع بينهما تلاقح، والتفليس الذي في الزرافة لا يُشبه الذي  
في النمر، وهو بالبئر أشبه، وما النمر بأحقَّ به من هذا الوجه من  
القهد.

### تسافد الأجناس المختلفة

وقد يمكن أن تُسمَح الصَّبغ للذئب، والذئبة للذئب، والكلبة للذئب  
وكذلك الثعلب والهرة، وكذلك الطير وأجناس الحمام كالورداني  
والورشان والحمام، وكالشهري من بين الحجر والبرذون، والرمكة  
والفرس، والبغل من بين الرمكة والحمار.  
فأما برك الجمل على النمرة، والجمل لا بدَّ أن تكون طروقته باركة،

فكيف تبركُ النّمرُ للجمل، والسّباعُ إنّما تتسافد وتتلاقح قائمةً، وكذلك الظّلف والحافر، والمخّلب، والحُفّ، والإنسانُ والتّمساح يتبطّنان الأُنثى، والطيرُ كلّهُ إنّما يتسافدُ ويتلاقح بالأستاه من خلف وهي قائمة.

### شواذ السفاد

وعموا أنّ الغرابَ يُزاقُّ، والحُمُرُ والقَبَجُ ربّما ألحقا الإناث إذا كانا على غُلاوة الرّيح، ولا تكونُ الولادةُ إلّا في موضع إلقاء النّطفة والشّيء الذي يلحق منه. وأمّا السّمكةُ فقد عاين قومٌ مُعارضَةَ الذكر للأُنثى، فإذا سَبَحَ الذكْرُ إلى جنب الأُنثى عَقَفَ ذنَبَهُ وعَقَفَتْ ذَنبَهَا، فيلتقي المبالان فتكونُ الولادة من حيث يكون التلقيح، لا يجوزُ غير ذلك.

والذين يزعمون أن الحَجَلَةَ تَلْقَحُ من الحَجَلِ إذا كائت في سُقَالَةِ الرّيح، من شيءٍ ينفصل من الذّكر، فإنما شبّهوا الحَجَلِ بالثّخل، فإن النخلة ربما لِقَحَتْ من ريح كافورِ الفُحّالِ إذا كانت تحت الرّيح.

### المخايرة بين ذوات القرون والجم

قال: وسئل الشَّرْقِيُّ عن مخايرة ما بين ذوات القرون والجُم فقال: الإبل والخيل من الخفِّ والحافر، والبرثن والمخلب والقدم التي هي للإنسان، قال: فمن خصال ذي القرن أن منه وإليه ينسب ذو القرنين الملكُ المذكورُ في القرآن، ويزعم بعضهم أنه الإسكندر، وقال أمية بن أبي الصلت:

رَجُلٌ وَتَوْرٌ تَحْتَ رَجُلٍ      وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى وَلَيْتُ  
يَمِينِهِ      مُرْصَدٌ

استطراد لغوي وَيَقَالُ صَرَبَهُ عَلَى قَرْنِهِ، وَقَرْنٌ مِنْ دَمٍ، كَمَا يُقَالُ  
قَرْنٌ مِنْ عَرَقٍ، وَالْقَرْنُ: أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ، وَالْقَرْنُ: شَيْءٌ يُصِيبُ فُرُوجَ  
النِّسَاءِ يُشْبِهُ الْعَقْلَةَ.

## ذوات القرون

والفيل من ذوات القرون، وفي الحيَّات والأفاعي ما لها قرون، وإنما ذلك الذي تسمع أنه قرن إنما هو شيءٌ يقولونه على التشبيه، لأنه من جنس الجلد والغضروف، ولو كان من جنس القرون لكانت الحيَّة صلبة الرأس، والحية أضعفُ خلق الله رأساً، ورأسه هو مَفْتَلُهُ؛ لأن كلَّ شيءٍ له قرنٌ فرأسه أصْلَبُ وسلاحه أتمُّ، والقَرْنُ سلاحٌ عَتِيدٌ غير مُجْتَلَبٍ ولا مصنوع، وهو لذوات القرون في الرؤوس، وللكركدن قرنٌ في جبهته، والجاموس أوثق بقَرْنِهِ من الأسد بمخلبه ونابه. وتقول المجوس: يجيء بَشُوْتَنٌ على بقرةٍ ذاتِ قُرُونٍ. وظهرت الآية في شأن داودَ وطالوتَ في القَرْنِ، وشَبُورُ اليهود من

قَرْنٌ

والبُوق في الحُرُوب مُذ كانت الحَزْب إنما كان قرناً.  
وَبُوق الرَّحَى قرْنٌ، والأَيْل يَنْصُلُ قَرْنَهُ في كُلِّ عامٍ، وكان سِنان رُمح  
الفارس في الجاهليَّة رَوْقَ ثور.

## ما يسمى بروق

ويسمى الرَّجُلُ يَرُوقُ، والرَّوْقُ كالشيء يعاقب الشيء وقال بشار في التَّعاقب:

أَعَقَبْتَهُ الْجَنُوبُ رَوْقاً مِنَ الْأَزْيَبِ

وفي العَرَبِ رَوْقٌ وأبو رَوْقٍ، وقال ابن ميادة:

وَقَبْلَهُ دَاتٌ لَهُ جَمِيرٌ

دَانَ لَهُ الرَّوْقَانِ مِنْ وائِلٍ

الرَّوْقَانِ: بَكْرٌ وَتَغْلِبُ.

## استطراد لغوي

ويقال قَرْنُ الصُّحَى، وَقَرْنُ الشَّمْسِ، وَقُرُونُ الشَّعْرِ، وَقَرْنُ الكَلَأِ،  
وقرون السُّبُلِ، وأطرافُ عذوق النَّحْلِ وأطاف عروق الحَلْفَاءِ وإبرَةُ  
العقرب كُلُّها قُرُونٌ.

## علاقة القرون واللحى بالذكور

والأجناس التي تكون لها القرون تكون قُرُونُها في الذُّكور منها، وقد يكون الفحلُّ أجمَّ، كما أن اللِّحَى  
عامٌّ فـي الرِّجالِ، وقد يكـون فيهنَّ السُّنـاط.

أنواع القرون وقد تتشعبُ قرونُ الطباء إذا أسنت. وقرونُ الأطباءِ وبقرِ الوحشِ شداؤُ جدًّا، وإنما تعتمد الأوعالُ في الوثوب وفي القذف بأنفسها من أعالي الجبال على القرون، والأغلب على القرون أن تكون اثنتين اثنتين، وقد يكون لبعض الغنم قرونٌ عِدَّة.

استخدام القرون والجواميسُ تمتعُ أنفسها وأولادها من الأسد بالقرون، وبقر الوحش تمتعُ أنفسها وأولادها من كلاب القنَّاص ومن السباع التي تُطيف بها، بالقرون، قال الطرِّمَّاح:

**أَكَلَ السَّبُعُ طَلَاهَا فَمَا تَسْأَلُ الْأَشْبَاحَ غَيْرَ انْهَرَامِ**  
قصة في سفاد الخنزير وقال ابن التوشجاني: أقبلت من خراسان في بعض طُرُقِ الجبال فرأيتُ أكثرَ من ميلين متصليين في مواضع كثيرةٍ من الأرض، أثر سِتِّ أرجل، فقلت في نفسي: ما أعرف دابةً لها سِتُّ أرجل فاضطرَّني الأمر إلى أن سألتُ المُكاري، فرَّعَمَ أن الخنزيرَ الذَّكَرَ في زمان الهَيْجِ يركب الخنزيرة وهي ترنُّع أو تذهبُ نحو مَبَيْتِهَا، فلا يَقْطَعُ سَفَادَهُ أَمِيالًا، ويداه على ظَهْرِهَا ورجلاه خَلْفَ رجليها، فَمَنْ رَأَى تلك الآثار، رأى سِتَّ أرجل، لا يدري كيفَ ذلك. ما يعرف بطول السفاد قال: فالخنزير في ذلك على شَبِيهِ بحال الذباب الذكر إذا سقط على ظهر الأنثى، في طول السَّفَاد. وإنَّ الجملَ في ذلك لعجيب الشَّان، فأَمَّا العدد فالعصفور، ويُحَكِّي أنَّ للورل في ذلك ما ليس لشيءٍ، يعني في القوة، وأنشد أبو عبيدة:

وطولِ عَيْسٍ جَمَلٍ إِذَا  
دَحَّسُنْ

فِي عُظْمِ أَيْرِ الْفَيْلِ فِي  
رَهْزِ الْفَرَسِ

## فرس الماء

قال عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ: فرس الماء يأكل التماسيح، قال: ويكون في النيل خيول، وفي تلك البحور - يعني تلك الخُلجان - مثلُ خيول البرِّ، وهي تأكل التماسيح أكلاً شديداً، وليس للتماسيح في وسط الماء سلطان شديد إلا على ما احتمَّله بذنبه من الشريعة. قال: وفرس الماء يؤذِن بطلوع النيل، بأثر وطء حافرِه، فحيث وجد أهلُ مصرَ أثرَ تلك الأرجل عَرَفُوا أَنَّ ماءَ النيل سينتهي في طلوعه إلى ذلك المكان. وهذا الفرس ربَّما رعى الزُّروع، وليس يبدأ إذا رعى في أدنى الزرع إليه، ولكنَّه يحزُّرُ منه قدرَ ما يأكل، فيبدأ بأكله من أقصاه، فيرعى مُقبِلاً إلى النيل، وربَّما شرب هذا الفرس من الماء، بعد المرعى ثم قاءه في المكان الذي رعى فيه، فينبت أيضاً. والطير عندنا يأكلُ الثُّوت ويذُرُّقه، فينبت من ذرِّقه شجر الثُّوت. قالوا: وإذا أصابوا من هذه الخيل فلوأ صغيراً ربَّوه مع نسائهم

وصبيانهم في البيوت، ولم يزد على هذا الكلام شيئاً.  
قال: وفي سن من أسنانه شفاء من وجع المعدة.

## التداوي بفرس الماء وبنات عرس

قال: والنوبة وناس من الحبشة يأكلون الحيتان نيئة بغير نار،  
ويشربون الماء العكر فيمرضون، فإذا علّقوا سن هذا الفرس أفاقوا،  
قال: وأعفاج هذا الفرس تُبرئ من الجنون والصرع الذي يعتري مع  
الأهلاء.

قال: وكذلك لحوم بنات عرسٍ صالحة لمن به هذه العلة.

## صيد الذئب للإنسان

قال: وإنما يكون الإنسان من مصايد الذئب إذا لقيه والأرض تلجاء،  
فإنه عند ذلك يحفش وجه الأرض ويجمعه، ويضرب وجه الرجل  
فارساً كان أو راجلاً، قال: ودقاق الثلج وعُباره إذا صك وجه الفارس  
سدراً واسترخى وتحير بصره، فإذا رأى ما قد حلّ به فربما يعج بطن  
الدابة، وربما عضها، فيقبض على الفارس فيصرعه ولا حراك به،  
فيأكله كيف شاء، وإلا أن يكون الفارس مجرباً ماهراً، فيشد عليه

عند ذلك بالسَّلاح، وهو في ذلك يَسِيرُ ويقطَعُ المفازَةَ، ولا يدَعُه حينئذٍ  
يتمكَّن من النفر عليه.

## تعليم الذئب وتأليفه

وَرَعَم عبويه أنَّ الخصيَّ العبدي الفقيه من أهل هَمَدان، السودانيَّ الجَلِّي، وهو رجل من العرب قد  
ولدته حلیمة طئرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهو من بني سعد بن بكر، فزَعَم أنَّ السُّوداني أشبهه  
خَلق الله بجارحةٍ وأحْكَمَهُم بتدبير ذئبٍ وكلبٍ وأسدٍ وتمر، وتعليم وتثقيف، وأتته بلَعٍ مِن حذقه ورفقه  
أَنَّهُ صَرَّى ذئباً وَعَلَّمَهُ، حتى اصطاد له الطَّيَّاء والتُّعَالِبَ وغير ذلك من الوحوش، وأنَّ هذا الذئبَ بعينه  
سَرَّحَهُ فرجَع إليه من ثلاثين فرسخاً، وذكر أنَّ هذا الذئبَ اليومَ بالعسكر، وحدثني بهذا الحديث في  
الأيام التي قام بها أميرُ المؤمنين المتوكِّلُ على الله، وذكر أَنَّهُ صَرَّى أسداً حتى أَلِفَ وصار أهلياً  
صُوداً، حتى اصطاد الحميرَ والبقرةَ وعظامَ الوحش صيداً ذريعاً، إلا أنَّ الأسدَ بعد هذا كله وتبَّ على  
وليدٍ لــــه فــــه أكله، فقتلــــه الســــوداني.  
والذي عندنا في الذئب أنه يألف، ولو أخذَ إنسانٌ جرواً صغيراً من جرائه ثمَّ رَبَّاه، لما نَزَعَ إلا وحشياً  
عَدُوراً مُفسِداً، ولذلك قال الأعرابي:

أَكَلْتُ شُوبَهَتِي وَتَشَأْتُ فِيهَا      فَمَنْ أُنْبَاكَ أَنْ أُنْبَاكَ ذَيْبُ  
فالذي حكى عبويه من شأن هذا الذئب والأسد من غريب الغريب.

## مصارعة كلبة لشعلب

وأخبرني عبويه صاحب ياسر الخادم قال: أرسلتُ كلبة لي فحاصرتُ  
شعلباً، فوالله إنَّ زالا كذلك حتى خرَّا ميّتين، قال: فقلت: أكرمُ بهما  
صيداً ومصيداً، وطالباً ومطلوباً.

## من خصائص الكبار والفلاسفة

قال: وإذا أسنَّ القرشيُّ رَحَلَ إلى الحجاز. وقال: ما احتتكَ رجلٌ قطُّ إلا أحبَّ الخلوة، وقالوا: ما فكَّرَ فيلسوفٌ قطُّ إلا رأى العُرْبَةَ أجمَعَ لهمَّه وأجودَ لخواطره.

## قول بكر المزني في الأَرْضَة

قال: وشتم رجلُ الأَرْضَة فقال بكر بن عبد الله المُزني: مَهْ، فهي التي أكلتُ جميع الصَّحيفَة التي تعاقدَ المشركون فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا ذكرَ رسول الله، وبها تبيَّنت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين، وبها تكشَّف أمرُها عند العوَّام بعد الفتنة العظيمة عندهم، وكان على الخاصَّة من ذلك أعظم المحن.

## طول ذمِّ الضب

وخبَّرني رجلٌ من بني هاشمٍ كان منهوماً بالصَّيْدِ لهجاً به، أنه صَرَبَ وَسَطَ صَبِّ بالسَّيْفِ فقطعه نِصْفَيْنِ، فتحرَّك كلُّ واحدٍ منهما على جِباله ساعةً من نهار ثمَّ سَكْنَا.

## الورل والضب

وأخبرني أنهم كانوا يُهَارِشُونَ بين الصَّبِّ والوَرَلِ، فَيُلْغِبُهُ الوَرَلُ حتى يقتل.

وحكى أنّ الوَرَلَ يقتل الضبَّ على معنى الصائد والطالب، وأن الضبَّ يقاتل على معنى المُحَرَجِ، وأتت هَارِشَ بين الوَرَلِ والحَيَّةِ فوجد الوَرَلَ يقتل الحَيَّةَ ويأكلها، ويقتل الضبَّ ولا يأكله ولكن حُسُولَهُ.

## علة عدم قتل الأعراب للورل والقنفذ

وزعم أنه وجدَ مشايخَ الأعرابِ لا يقتلون وَرَلًا ولا قنفُذًا ولا يدعُونَ أحداً يصطادهما، لأنهما يقتلان الأفاعيَ، ويُريحانِ الناسَ منها.

## نوادير من الشعر والخبر

وأنشد أبو عبيدة لأبي ذؤيب:

كَلَوْنِ النَّوُورِ وَهِيَ بِيضَاءُ  
سَارُهَا

وَسَوَدَ مَاءِ الْمَرْدِ فَاهَاً  
فَلَوْنُهُ

وأنشد شبيهاً به للنابغة:

صَفْرًا مَنَاخِرُهَا مِنْ  
الْجَرَجَارِ

بَتَحَلَّبِ الْعِضِيدِ مِنْ  
أَشْدَاقِهَا

وأنشد شبيهاً بذلك لإبراهيم بن هزيمة:

وَالْحُرْضِ وَالْعَسَنِ وَالْهَزْمِ

كَأَنَّهَا إِذْ حُضِبَتْ جِنًّا

وَدَمٌ

وأنشد أيضاً:

العُصْمُ

تُعَلِّمُ الْأَكْلَ أَوْلَادُ الطَّبَائِ بِهَا

وأنشد:

فَمَا يَحْسُ بِهَا سَيِّدٌ وَلَا أَسَدٌ

ذَكَرْتُكَ ذِكْرَةً فَاصْطَدتْ  
ظَبِيًّا

وَكُنْتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ لَا أُخِيبُ

مَنْحَتُكُمْ الْمَوَدَّةَ مِنْ فَوَادِي

وَمَا لِي فِي مَوَدَّتِكُمْ نَصِيبُ

وقال ابن مُقبل:

وَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ قَدْ شَقَقْنَا  
قَمِيصَهُ

بِأَسْمَرَ عَسَّالٍ إِذَا هُرَّ عَامِلُهُ

وقال أيضاً:

وَلَمْ أَصْطِيحْ صَهْبَاءَ صَافِيَةً  
الْقَدَى

بِأَكْدَرَ مِنْ مَاءِ اللَّهَابَةِ  
وَالْعَجَبِ

وَلَمْ أَسْرِ فِي قَوْمٍ كَرَامٍ  
أَعِزَّةٍ

عَطَارِفَةٍ شَمَّ الْعَرَابِينَ مِنْ  
كَلْبِ

اللَّهَابَةِ وَالْعَجَبِ: ماءان من مياه كلب موصفان بالعدوبة، وهي في ذلك كدرة، وأنشد ابن مَرزُوع

لعدِي بن عُطَيْفِ الكَلْبِيِّ، وكان جاهليًّا:

أَهْلَكْنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَعَا

وَالدَّهْرُ يَعْدُو عَلَيَّ الْقَتَى  
جَدَّعَا

وَالشَّمْسُ فِي رَأْسِ فُلْكِةٍ  
نُصِبَتْ

رَفَعَهَا فِي السَّمَاءِ مَنْ  
رَفَعَا

أَمْزٍ بَلِيطِ السَّمَاءِ  
مُكْتَتَمٌ

وَالنَّاسُ فِي الْأَرْضِ فُرَّقُوا  
شِيَعَا

كَمَا سَطَا بِالْأَرَامِ عَادُ  
وَبِالْحِجِّ

رَ وَأَرْكَى لِنُبَّعٍ تَبَعَا

فَلَيْسَ مِمَّا أَصَابَنِي  
عَجَبٌ

إِنْ كُنْتَ شَيْبًا أَنْكَرْتُ أَوْ  
صَلَعَا

قال: هو عاد بن عُوص بن إرم، وسَطَا بِالْحِجْرِ، أي بأهل الحِجر، وأَرْكَى أي أَحْر، والإركاء: التأخير.

وقال كعبُ بنُ زهير:

فِي خَلْقِهَا عَنِ بَنَاتِ الْفَحْلِ  
تَفْضِيلُ  
وَعُمُّهَا خَالُهَا قَوْدَاءُ  
شِمْلِيلُ

فَعَمُّ مُقَلِّدُهَا عَبْلِيٌّ  
مَقِيدُهَا  
حَرْفِيٌّ أَخُوهَا أَبُوهَا مِنْ  
مُهَجِّنَةٍ  
وكما قال ذو الرِّمَّة:

أَخُوهَا أَبُوهَا وَالصَّوَى لَا يَضِيرُهَا  
وقال سالم بن دارة:

مِنَ السَّيْرِ فِي الظُّلْمَاءِ  
خَيْطَانِ حَرْوَعِ

حَدَوْتُ بِهِمْ حَتَّى كَانَتْ  
رِقَابَهُمْ  
وقال بعض المحدثين:

مِنَ اللَّيْنِ لَمْ تُخْلَقْ لَهُنَّ  
عِظَامٌ

وَقَدْ شَرِبُوا حَتَّى كَانَتْ  
رِقَابَهُمْ  
وقال آخر:

عَلَى الْمَنَاكِبِ لَمْ تُعَمِّدْ  
بِأَعْنَاقِ

كَأَنَّ هَامَهُمْ وَالنَّوْمُ وَاضِعُهَا

نَ الْأَقْيَ مِنْ بَرَكَهَا كَلِكُلُ  
نَ هَذَا الْمُقِيمُ لَنَا الْمُزْجِلُ

وقال الكمي:  
وَفِي اللَّرْبَاتِ إِذَا مَا السُّنُو  
لِعَامٍ يَقُولُ لَهُ الْمُؤَلَّفُو  
وقال أيضاً:

سِ وَالْمَنَابِتِ وَالْمَكَابِرِ  
نَ الْأَرْضِ هُدَابِ الْمَازِرِ  
ة كَابِرًا مِنْ بَعْدِ كَابِرِ  
نَ خَلَائِفًا وَبَخِيرِ عَاشِرِ

الطَّيْبِيُّ تُرْبِ الْمَعَارِ  
وَالسَّاحِبُونَ اللَّاحِقُو  
أَنْتُمْ مَعَارِدُنُ لِلْخَلَفِ  
بِالتَّسْعَةِ الْمُتَتَابِعِي  
وقال أيضاً:

أَعَشَبَتْ فَانزِلْ إِلَى  
مَعَشَوْشِبِ الْعُشْبِ

وَلَا يَكُنْ قَوْلُهُ إِلَّا  
لِرَائِدِهَا  
ذهب إلى قوله:

يُقْلَنَ لِلرَّائِدِ أَعَشَبَتْ أَنْزِلْ

مُسْتَأْسُدُ ذِبَابُهُ فِي عَيْطِلِ  
ولكن انظر كم بين الدِّيَابِجَتَيْنِ، وَفِي الْأَوَّلِ دَهَبَ إِلَى قَوْلِ الْأَعَشَى:

## إِذَا الْحَبْرَاتُ تَلَوَّتْ بِهِمْ وَجَرُّوا أَسَافِلَ هُدَايِهَا

قال: كان أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يقولون: كونوا بُلْهًا كالحمام ولقد كان الرَّجُلُ منهم يـدْعُو لصـاحبه يـقـول: أَقـلُّ اللـهُمَّ فَطـنـتـكـ. قال: وهذا يخالف قول عمر رضي الله عنه، حين قيل له: إِنَّ فلاناً لا يعرف الشَّرَّ، قال: ذلك أَجْدَرُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ.

وقال النابغة الذبياني:

ولا يحسبون الشَّرَّ ضربةً  
لازبِ

ولا يحسبونَ الخيرَ لا شَرَّ  
بَعْدَهُ

وقال الآخر:

شِرَارُ الرجالِ مَنْ يسيءُ  
فِيَعْدَرُ

ولا تعذِراني في الإساءة  
إِنَّهُ

وقالت امرأة ترثي عُمر بن مَعْبَد بن زُرارة:

وكان ضروباً باليدين  
وباليدِ

أَعَيْنُ أَلَا فابكي عُمر بن  
مَعْبَدِ

تقول: بالسِّيفِ وبالقداحِ، لأنَّ القداحَ تُضْرَبُ باليدين جميعاً، وقال ابن مقبل:

لَدَمَ الوليدِ وراءَ الغيبِ  
بالحجرِ

وللفؤادِ وجيب عند أبهرِه

وقال ابن أحرمر:

وفؤاده زجلٌ كعزفِ الهدهدِ

وكان حسان يقول لقائده إذا شهد طعاماً: أَلطعامُ يدٍ أم طعام يدَيْنِ؟، طعام يدَيْنِ: الشُّواءُ وما أشبه ذلك، وطعام اليـدِ: الشرائـدُ وما أشـبـهـهـا. وقال بعض السُّلاطين لـغلامٍ من غـلمانـه وبين يـديه أسيـرٌ: اضربْ، قال: بيدٍ أو يدَيْنِ؟ قال: بيدٍ، فضربه بالسُّياطِ، قال: اذهبْ فأنت حُرٌّ، وزوَّجَه وأعطاه مالاً. وسارَّ رجلاً من الملوك بعضُ الشُّعاةِ بابنٍ له ذكرُ الله بموضع كذا وكذا يشرب الخمر مع أصحاب له، فبعث غلاماً له يتعرَّف حاله في الشرابِ، فلمَّا رجع وجدَّ عنده ناساً فكرِه التفسيرِ، فقال له: مَهَيْمٌ، قال: كان تَقْلُهُ جُبْناً، قال: أنت حُرٌّ، لأنَّ مُعاقِرِي الخمرِ يتنقلون بالجبن لأسبابٍ كثيرة. وكان فرجُ الحجاجِ مملوك جعفر بن سليمان، إذا حَجَمَه أو أخذَ من شَعْرِه لم يتكلَّم ولم يتحرَّك، ولم

يأخذ في شيء من الفضول، فقال جعفر ذات يومٍ: واللّه لأمتحننّه، فإن كان الذي هو فيه من عَقْلٍ لايُننّه، وإن كان كالتَّطْبِيعَةِ وَالخَلْقَةِ لأحمدنّ الله على ذلك، فقال له يوماً: ما اسمك يا غلام؟ قال: فرج، قال: وما كُنْيُوكَ؟ قال: لا أكنني بحضرة الأمير، قال: فهل تحنّجِم؟ قال نعم، قال: متى؟ قال: عند هيجه، قال: وهل تعرفُ وقتَ الهيج؟ قال: في أكثر ذلك، قال: فأَيُّ شيءٍ تأكلُ على الحمامة؟ قال: أما في الصَّيْفِ فسِكْبَاجَةٌ مَحْمَصَةٌ عذبة، وأما في الشتاء فديجِراجة خائِثَةٌ حُلوة، فأعتقه ورَوَّجه، ووهبَ لـــــــب لـــــــه مـــــــالاً.

وكان قاطعَ الشهادة، ولم يكنْ أحدٌ من مواليه يطمع أن يُشهدَه إلا على شيء لا يختلف فيه الفقهاء، وهو الذي ذكره أبو فِرْعَوْنِ فقال:

## خَلُّوا الطَّرِيقَ رَوْجَتِي أمامي أنا حميمٌ فرجِ الحَجَّامِ

وكان أهل المربد يقولون: لا نرى الإنصاف إلا في حانوتِ فرجِ الحَجَّامِ، لأنّه كان لا يلتفت إلى مَنْ أعطاه الكثيرَ دونَ مَنْ أعطاه القليل، ويقدمُ الأوّلَ ثم الثاني ثم الثالث أبداً حتى يأتي على آخرهم، على ذلك يأتيه من يأتيه، فكان المـؤخّر لا يغصّب ولا يشكّو.

وقال ابن مَقْرُومِ الصَّبِي:

أعطاك ثابئة ولم	وإذا تُعلل بالسيّاط جيانا
وعلام أركبه إذا لم	يتعلل
وظلّفت	فدعوا تَرالِ فكنثُ أوّل نازل
ولشر قول المرء	أنزل
أبناء فارس	ولقد أقدتُ المالِ من جمع امرئِ
جرب مقارفة عنية	نفسى عن لئيم المأكل
	ودخلتُ أبنية الملوكِ عليهمُ
	ما لم يفعل
	وشهدتُ مَعْرَكَةَ الفُيُولِ وحولها
	بيضها كالأعبل
	متسرّيلي خَلقِ الحديدِ كأنهمُ
	مهمل